
ريتا خوري
أسرار صغيرة

ريتا خوري

أسرار صغيرة

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر

مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية

صندوق بريد ٥٨٢٥

الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي: 9789992178775

Printed in Great Britain by
Clays Ltd, St Ives plc

إلى ريجينا

وإلى نون

مقدمة

أسوأ الكتابات هي تلك التي تكتبها لأنه ينبغي عليك ذلك؛ تمامًا كفروضنا المدرسية وقوائم شراء الطعام وإقرارنا الضريبي.

أمتع الكتابات هي تلك التي تكتبها باسم مستعار، ولكلٍّ منا أسبابه.. هنا فقط تكمن الحرية، وهذا ما كان عندما اكتشفتُ لذة التدوين، كان لي ما أردت فولدت «رات»؛ اسم مستعار لامرأة تقتحم عالم التدوين، وتفتتح مدونة تسكب فيها كل ما يخطر على بالها، أو يعنُّ لها من الأمور الشخصية والحميمة. سر استأمنت عليه صديقة عزيزة فأفشته مشكورة، واقتضى الأمر إطلاق رصاصة الرحمة عليها (المدونة لا الصديقة بالطبع) بما في ذلك كل مَن ورد ذكرهم في تلك التدوينات. هكذا ماتت المدونة الأولى واسمها «أسرار النمل». ولأنَّ لكل منا، كما تعلمون، إدمانه، فقد أصبح التدوين إدمانًا. لذا فقد تلتها مدونة (جرعة ثانية) أسمتها: «ماذا بعد؟». بعد أن انزاح الستار زال سحر التخفي وانزلقت إلى مرحلة العادي، مرحلة الخوف من البوح، مرحلة فضلت فيها الكلام للكلام على الصمت المطلق، وهكذا صمدت مدونة «ماذا بعد؟» إلى أن أرهقها التطفل الوقح والمجاني ففضلت الانسحاب بدورها. ثم تلتها مدونات عديدة بكثير من الأسماء

المستعارة منها «لن ولا»، ولكنها لم تجد لنفسها صدًى في أي مكان فكانت مدونة سرية بعنوان «هروب»، صمدت هي وروادها الثلاثة من حوارييها المخلصين حوالي ثلاث سنوات. اختبار آخر لنوع جديد من العزلة وشعور تام بالأمان، فلا مَن يترصد ولا مَن يحاكم ولا مَن يحيك شيئًا في الخفاء. مجرد حكواتي وست آذان صاغية. التدوينات الواردة في «أسرار صغيرة» ما هي إلا باقات مقتطفة من المدونات المذكورة أعلاه، تمت كتابتها بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠١١، كُتبت في أوقات مختلفة وأمزجة متقلبة حينًا وهادئة، بل سعيدة، أحيانًا.

لماذا أنشرها؟

هذا سؤال جيد واليوم رائع! تراجع في كرسيك واترك سؤالك في الهواء!

أسرار صغيرة

أنت تبوحين بالكثير.

نور

طيِّب! بدأ عقلي الصغير يستوعب أمر «البلوغ» نوعًا ما، سأستجمع شجاعتي وأكتب في العلن، تحميني أسمائي المستعارة، هكذا ومن دون مقدِّمات.

اعتدت كتابة يوميَّاتي بشكل شبه منتظم، ومنذ خمس سنوات، أُخصِّص لها دفاتر أنيقة، تليق بأسراري الصغيرة.

منذ أشهر قليلة كسر أحد اللصوص باب البيت وسرق علبة مجوهراتي (قيمتها عاطفية أكثر منها مادية). لمَّا دخلت البيت واكتشفت أمر السرقة، انتابتني موجة رعب هائلة، وركضت أبحث عن دفاتري، وجدتها «صاغ سليم». ارتاح قلبي، فتفرَّغت للبكاء قليلًا على حظي؛ وأنا ماهرة في هذا الأمر.

بعد ذلك، قررت شراء خزانة حديدية، أودعها حياتي المكتوبة في سطور مملة لا تنتهي.

نكتب اليوميات لأنفسنا، ولا أعرف حقيقةً ما الذي يدعوني لاستبدالها بهذا الموقع المعرَّض للقراءة من قبل أشخاص افتراضيين.

لا أعرف ما إذا كنت سأتمتع بالقدرة نفسها على البوح، أم أنني سأعمد إلى تجميل الأشياء.

لماذا نخاف على أسرارنا الصغيرة؟ لماذا يتَّخذ بعضنا لنفسه في هذا الفضاء اسمًا وهميًّا؟

أعرف أنَّ الكتابة هنا ستساعدني، ربَّما على تخطِّي مشكلة ما يُعرف بالخوف الاجتماعي، والتي طفت فجأة منذ ثلاث سنوات على صفحات حياتي.

عشت سنوات طويلة في الخارج، وعند عودتي انكفأت على نفسي بشكل لا مثيلَ له. السبب؟ الأسباب.. قد يكون أحدها فقداني لمفاتيح التعامل مع مدينتي.

أعرف أيضًا أنني بي حاجة لأتكلم عن نفسي ولنفسي بشكل مختلف، وهذا سيعدل رؤيتي لأمور حياتي، سيغنيني عن عادة رؤية المحلل النفسي الباريسي، الذي حاول أن يفعل ما بوسعه؛ لأساعد نفسي، واكتشفت معه أنني بشكل عام بكَّاءة وأريد دائمًا للآخرين أن يرثوا لحالي.

تغيَّر الأمر اليوم، لم أعد أريد أن أتسوَّل استعطاف الآخرين، ولكنني لم أتوقف بشكل كافٍ عن الرثاء لحالي.

بداية هذا العام، خصَّصت يومين كاملين، أعدت خلالهما قراءة ما كتبت خلال السنوات الخمس الماضية، وهنا تلقيت صفعة أخرى.

أحور وأدور وألاحظ أنَّ القلق والمخاوف والأسئلة ما زالت على حالها وإن ارتدَت ثيابًا أخرى. أسرعتُ أستنجد بصديقتي التي مارست طقوس التحليل النفسي لمدة فاقت عشر السنوات، أتحفتني بنظرية هدَّأت قليلًا من روعي (روعي؟) قالت:

إنَّ الإنسان يولد وتولد معه المخاوف وتكبر وترافقه إلى القبر.

اللذيذ في الموضوع تتابع أنَّه، ومع التقدم في العمر، يعتاد المرء على هذه المخاوف وتصبح معرفته بها مشابهة لمعرفته بجيبه، فلا يعود بإمكانها تنغيص عيشه.

أمَّا المؤسف في النظريَّة العجيبة، أنَّ الإنسان لا يبلغ هذه المرحلة من التعارف مع الذات إلا ببلوغه مراحل متقدمة جدًّا من العمر، ويكون الأمر عندها: «ولِّيت».

مَن أكـون؟

مَن أنا؟

كلما طرحتُ السؤالَ على نفسي، أعجز عن الإجابة، وأتهرَّب منها.

أصعب الأمور مواجهة الإنسان لذاته ولذَّاته.

مَن أنا؟ أفف! ومن أين لي أن آتي بالإجابة؟ سيتطلَّب الأمر جهدًا وبحثًا مضنيًا ومؤلمًا، سيتطلَّب الأمر عمرًا بأكمله...

لكن ربما يكون في هذا التفكير إفادة، للبحث أكثر في أعماقي، وأظن أن التشابه في البشر حاصل على غفلة منهم.

سأُطلق لأفكاري العنان، تسرح وتمرح على سجيَّتها، تختار صورًا من الذاكرة..

صحيح أنني الحاضر، ولكنني أيضًا هذا «الماضي الذي لا يمضي».

فلتكن إذن طريقة أخرى فيَّ لاكتشاف الذات.

مَن أكون؟

أنا كارثة متنقلة على رِجلين، أنا الفتاة التي تمارس الهروب الدائم،

كارهة القيود والظلم... كتلة التناقضات، سطر أبيض، وسطر أسود، حتى ينتهي الدفتر.

كم كان عمري عندما هربت للمرة الأولى؟ ١١ سنة؟ شيء من هذا القبيل...

أنتم تزعجونني، لا أريد قضاء عطلة الصيف عندكم، وإذا أجبرتموني على أكل السبانخ فسأعود سيرًا على الأقدام إلى بيت أهلي.

سخر مني زوج عمَّتي بتحبب: «ستحتاجين إلى ثلاثة أيام من السير المتواصل، وستجوعين لدرجة تشتهين فيها طبق السبانخ، وستأكلك «العفاريتا» ليلًا».

بعد نصف ساعة من السير على الطريق الجبلي الخالي، وجدته يلحق بي، لاعنًا أبي: «اطلعي، سأوصلك بنفسي إلى بيت أهلك».

لامني أبي كثيرًا، ما العمل؟ أحبُّ عمَّتي غير أني أكره السبانخ!

مَن أكون؟

أنا الطفلة التي إذا سألتَها: «ماذا ستفعلين عندما تكبرين؟»، تجيبك: «أريد أن أصعد إلى القمر..».

أنا التي أصرَّت، عندما وُلِد أخوها، على سؤال والدتها: «متى ستعيدونه إلى المستشفى؟»

أنا الابنة التي ظنَّت نفسها يومًا سوبرمان، فتدثرت بوشاح أمها الأحمر، ووقفت على حافة الشرفة مستعدة للطيران، عندما انطلقت صافرات إنذار النسوة تولولن في سماء الحي بكل ما أوتين من قوة: «يا أم «فلان»، اِلحقي شوفي بنتك...».

لم تُزعجني العلقة الساخنة، نصيبي في ذلك اليوم، بقدر ما أزعجتني

تسمية والدتي بأم «فلان» وليس أم «فُلانة»: «لماذا ينادونك بأم الصبي ومش بأم البنت؟ ما أنا أكبر، ومن حقي أن ينادوك أم رات..».

مَن أكون؟

أنا الطفلة التي طاردت الفراشات في حقول القرية، وعرفت منذ نعومة أظفارها أن طعم النمل الأسود مرٌّ والأشقر حلو كالسُّكر، الطفلة التي جمعت الخنافس «الكوكسينيل» الحمراء المنقطة بالأسود في زجاجات، لمجرد سحر منظرها.

الطفلة التي خذلها «سانتا كلوز»، ووزَّع هداياه على جميع أطفال الحي ما عداها، فغاصت في مقعدها تغالب دموعًا كادت تسقط، قبل أن يعود ناسيًا أن في قعر كيسه هديتها؛ علبة خياطة، فبكت لأنها لا تريد أن تصبح خيَّاطة ماهرة كوالدتها، وبالكاد تعلَّمت تقطيب الأزرار.

أنا البنت التي كبرت في عائلة متواضعة، طموحها، غير المعلن، تعليم البنت إلى المرحلة الثانوية بحد أقصى، أما الجامعة فبعيدة المنال، و«البهدلة» في التنقل بين الطرقات التي تربط بيروت بالجبل ليست من بين شيمها.

أنا ابنة التاسعة في وضع حرج تتعرف فيه على جسدها، فتضبطها والدتها بتهمة الفضول وتحرق يديها بالكبريت، بل وتجبرها على الاعتراف لدى كاهن الرعية بالخطيئة المميتة.

بحثَت في الوصايا العشر لتعرف ما الجرم الذي ارتكبته، فلم تجد بعد استبعاد بقية الأفعال فعلًا يشبه فعلتها من بعيد، سوى: لا تزنِ. وعلى كرسي الاعتراف، اخترعت كل الخطايا الممكنة، ممهدة للنطق بالكلمة العجيبة: «عذبت الماما، ضربت أخي، سرقت تفاحة من شجرة الحقل و... و...» و.. بعد تردد طويل، خفق قلبها بشدة وقالت: «ززز... زنيت».

لم يقل إنه لا يمكن لفتاة في التاسعة أن تزني بهذه الطريقة، بل طلب منها الصلاة ليغفر لها الرب خطاياها، فكرهت جسدها.

أنا التلميذة الحالمة التي لم تفهم يومًا لماذا قطعت شظية القذيفة عنق زميلها الصغير: «لماذا الصغار يا الله؟ فالكبار عاشوا بما فيه الكفاية».

أنا المتقدمة في المراهقة، التي ينهال عليها الوالد بالضرب؛ لأنها تسللت مساءً من دون علمه إلى النادي الرياضي المجاور، لتلعب الـ«بيبي فوت»، أو تشجع فريقها الرياضي المفضل بالهتاف: «يا دودو طير وعلِّي، طير وحطها بالسلة...».

يتعب، عفوًا: يتبع... يمكن...

جريمــة

لم أتردد طويلًا صباح هذا اليوم قبل اقترافي للجريمة، لن أسمح لنفسي بوصفها بالبشعة أو الحلوة، إنها جريمة فحسب.

«المرَّة الأولى هي الأصعب، بعد ذلك يُصبح القتل عادة، مثل الأكل والشرب والجنس».

هذا ما قاله لي يومًا أحد المقاتلين القدامى. آخر، من أهل الثقافة، أخبرني أنَّ فعل القتل يجعل القاتل يضع نفسه في مرتبة إله يتحكَّم في حيوات البشر.

منذ أسبوع، وعند الفجر، تؤرِّق تلك الأصوات نومي وكنت قد ظننت أنني تخلَّصت منها بمجرد مغادرتي لباريس، لكنني، وكالعادة، أخطأت في تقديري.

بحثت عن مصدر الصوت بدقة من دون أن أفلح في تحديد موقعه، فاستسلمت لقدري بالاستيقاظ المبكر والوقوف «سنجة طق» (قمة التأهب) استعدادًا لمواجهة يوم آخر طويـيـيـيل، ملؤه الفراغ والحيرة.

لكن لا بأس، لقد أنعمت السماء علينا اليوم ببعض من شعاع شمسها،

فاعتبرتها مناسبة لتشريع نوافذ البيت على الضوء، كل النوافذ من دون استثناء، خصوصًا تلك التي لا أفتحها إلا في المناسبات التعيسة (تنظيف عميق للمنزل).

هي في الواقع نافذة واحدة، تطلُّ على حائط المبنى الملاصق، المتعفن بسبب رطوبة بيروت وبخل مالكه.

بعد جهد بدني لا يُستهان به، تمكنت من فتحها، وهناك عند الحافة الصغيرة رأيت ما رأيت!

لم يسبق أن شاهدت في حياتي عشًّا لأي نوع من أنواع الطيور، كان العش صغيرًا، ذا هندسة راقية، مصنوعًا بدقة من أعواد رفيعة. لا شكَّ أن بانيتها لاقت عناء كبيرًا لنقلها وترتيبها. في وسط الدائرة بيضات صغيرة ثلاث، ترتجف من البرد، بانتظار حرارة قفا صاحبتها. قلت في نفسي: «آآآه كم هو جميل ورائع أن أبدأ يومي بمشهد مماثل آآه، حتى الطيور تعرف كيف تبني بيوتًا لها!».

ماذا قلت؟ طيور؟ اعععععع! يا إلهي! وماذا لو كانت مصابة بذاك الداء العجيب، إنفلونزا الطيور؟ ماذا لو كانت برِّية وعاشرت عددًا من الطيور المهاجرة؟ ثم لماذا اختارت بناء عشِّها هنا عند حافة نافذتي، وليس بين أغصان شجرة الجميز المجاورة الوارفة الأغصان صيفًا وشتاء؟

أتكون أزمة سكن؟ أتكون مريضة فعلًا، فقام أبناء جنسها بنفيها؟

سأرميها! أنا أصلًا أكره هذا الكائن وأعتبره من أشدِّ المخلوقات غباء ووقاحة.

سأرميها! لأني أكره صوت الحمَام، الذي لا يصلني هديله سوى في الصباح

الباكر، أو على الأقل أنا أسمعه عند الصباح، لكن ضميري لم يطاوعني وأخذ يرميني بعبارات من نوع: «ما ذنب الأطفال؟»

أجيبه: «إنه بيض وليس أطفال».

فيقول: «تصوري شعورها عند اكتشافها لهذا الفقدان الذي لا يعرف طعمه إلا الأم».

فأجيبه: «لا يهم، فأنا لن أصبح يومًا أمًّا، وبالتالي لا أعرف عمَّا تتحدث، ثم إن والدتي لم تهتم لشعوري بافتقادها حين ارتمت في أحضان الحبوب المهدئة للأعصاب، فوضعت مسافة بين حياتها وبين أولادها..».

يقول: «ستجعلين جهد هذه الحمامة المسكينة يذهب هباء».

أقول: «لا بأس، فأنا أجاهد منذ مراهقتي المبكرة لأبني نفسي بنفسي، وانظر ماذا كانت النتيجة».

تحطَّم كل شيء.

رميتها، من الطابق الثاني، لم أنظر إلى المكان الذي وقعت فيه، بل فكَّرت: صدقَت مَن قالت: «إنَّ الطيور من إنفلونزاها تقع».

صور من الطفولة

المكان: بيروت.

الزمان: السابعة مساءً ومن عُمري.

المناسبة: مرور عدة أيام على وفاة جدي الذي كنت أعتقد أنه يكره البنات.

الحوار: مع جدة تمضي أيامها في الصلاة.

* * *

أنا: تيتا، أين يذهب الناس عندما يموتون؟

الجدة: إذا كانوا صالحين يذهبون إلى الجنة، وإذا كانوا أشرارًا يذهبون إلى النار.

أنا: وأين هو «جدو» الآن؟

الجدة: في الجنة.

لم أستوعب لماذا يكون في الجنة وهو يُفضِّل الصبيان. أنا متأكدة من ذلك، فهو يُفضِّل أخي عنِّي.

أنا: وماذا نفعل في الجنة؟

الجدة: نكون إلى جانب الرب دائمًا، ولا يعود هناك موت، نعيش على طول إلى جانب الله.

أنا: يعني ما في بُكرة؟ ولا مرة بيخلص اليوم إذا «منعيش» على طول؟

الجدة: نعم، ما بيعود في بُكرة.

أنا: وماذا نفعل إلى جانب الله؟

الجدة: نصلِّي.

أنا: نصلِّي طوال الوقت؟

الجدة: نعم، نصلي طوال الوقت.

أنا: ألا نلعب؟

الجدة: لا، لا نلعب ولا نجوع ولا نعطش ولا نمرض ولا نتألَّم.

أنا: طيِّب تيتا، ألا يوجد مكان ثالث مخصص للأولاد، غير الجنة والنار ليلعبوا قليلًا؟ حتى في المدرسة هناك وقت للعب.

الجدة: هيَّا حان وقت العشاء.

مـوت

هل دخل أحدكم مرَّة منطقة الشك؟ هل عانى أحدكم من ارتباكات الأسئلة التي لا جواب محدد لها، إلَّا ما تمليه علينا عقولنا؟

أنا فعلت وأفعل، وما زال سؤال ابنة السابعة يلاحقني: «أين يذهب الناس عندما يموتون؟» لم أعد أرغب في اللعب ولا البحث عن منطقة ثالثة بين الجنة والنار.

وزن الروح «٢١ جرامًا»، هذا ما يعتقده مخرج الفيلم بين القوسين، المكسيكي «أليخاندرو جونزاليس إيناريتو»، وكنت أعتقد أنها أثقل من ذلك بكثير.

أعرف تفاصيل كثيرة عن تحلُّل الجسد، وأنواع الدود الذي يأكله، والمدة التي يحتاجها ليتحلل تمامًا، بل قمت ببحث مضنٍ عنها خلال الصيف الماضي، على الرغم من أن الناس يكرهون الدخول في هذه المسألة بالذات.

غريبة هي علاقة الناس في عالمنا العربي مع الموت: يتجنبون السيرة ويتطيرون منها، بينما يدهشني مشهد عجائز باريس في محلات دفن الموتى.. تدهشني قدرتهم على الدخول واختيار التابوت المناسب لقامتهم، ونوع

البلاطة والكلام الذي سيُحفر عليها، إنهم باختصار يُحضِّرون موتهم وهذا أبسط الأمور بالنسبة إليهم.

لا أريد أن أُدفن في تابوت، بل في الأرض مباشرة؛ لعلني أعود لأنبت من جديد على شكل زهرة أو شجرة أو حتى حشرة..

يملك «أوشو»؛ الحكيم الهندي الذي يعتبره البعض نصابًا (وأنا منهم)، نظرية مريحة لذوي القلق الدائم حول أسئلة الموت وما بعده، إذ يقول ما معناه: عندما يكون الإنسان جنينًا في رحم أمه، يعيش أقصى حالات الراحة والسعادة، كل شيء مؤمَّن: الماء والطعام والدفء، ويكون في حالة تراخٍ وسرور تامَّين، إلى أن تأتي اللحظة التي تكون فيها ولادته، نحن نعتبرها ولادة، لكنها بالنسبة إلى الجنين، ما هي إلا موت وخروج من عالم الطمأنينة.

ثم يتوقع أن تتشابه لحظة موت الإنسان التي نعرف كثيرًا عنها، ولا نعرف شيئًا في الوقت ذاته، مع لحظة خروج الجنين من رحم أمه: موت وولادة في اللحظة نفسها.

عندما دخلت ذلك المساء إلى محل دفن الموتى لأسأل صاحبه عن إمكانية إجراء حوار معه حول مهنته، فوجئت بالعامل المُمدد بين الصحو والنوم على كنبة عتيقة، تعلوها رفوف سميكة، من كل الجهات، عليها توابيت عديدة الشكل والأنواع. سألته: «كيف تنام هنا؟ ألا تتطير من المنظر؟».

أجابني بلكنته المصرية المحببة وبصوت يفيض سخرية: «يا بنتي ما احنا كلنا دلوقتِ ميتين».

انتهى!

من يوميات ظلّ

هذه المرأة لم تقفل كل الأبواب.
هذه المرأة تنتظر أن تأخذي بيدها، وأنت أعلم
الناس بها.
لا تخذليها.

تـارا

ما الشيء الذي يحيل الناس، أحيانًا، من وضع ما إلى وضع معاكس تمامًا؟

أنظرُ إليها في مرآة الزمن الماضي، تضجُّ بالحيوية والحياة، نعمة تتيح لها التواصل مع أي عابر سبيل، ابتسامة لا تفارق الوجه حتى أصبحت جزءًا من الوجه نفسه، حركة، ثقة زائدة عن اللزوم بالنفس، جرأة، اقتحام للحياة وتشبث بالفرح من قرونه.

فجأة، ومن دون إنذار، تحوَّلت إلى حلزونة متقوقعة في داخلها، مصابة برعب الأشياء والناس.

تقول المعالجة النفسية في بيروت هذه المرَّة إنه نوع من أنواع الخوف الاجتماعي، وعلينا البحث عن أسبابه. كانت هذه آخر جملة سمعَتْها من فم معالجتها، ثم توقفَت عن الذهاب إلى الجلسات.

لماذا تذهب بعد الآن؟ فالسيناريو يتكرر منذ شهور طويلة: تدخل، تجلس قبالة علبة المحارم الورقية وتصمت لدقائق، قبل أن تستسلم لنوبات من البكاء الحاد. ملَّت من النحيب على نفسها، هالتها الاكتشافات التي أودت بها إلى ما هي عليه اليوم، اهتزاز نفسي تلو الآخر، لم يعد قلبها الصغير يحتمل كل هذا الأسى.

تقول اشتقت إلى نفسي، عندما تقف أمام مرآتها. وها هي تتجنبها، إذ لم تعد قادرة على التعرُّف على المرأة الواقفة قبالتها بكتفيها المحنيتين كالعجائز، وتعجز عن مواجهة النظرات المكسورة، وحَبِّ الشباب الذي تأخر عقدين، قبل أن ينبت.

ظنَّت أن الجميع تخلَّوا عنها، قبل أن تنتبه إلى أنها هي التي تخلت عنهم. حتى هذا الهاتف الذي لم يكن يتوقف عن الرنين طوال اليوم، أصبحت رناته موسمية.

غذاؤها النوم وطناجر الـ«بوب كورن» والجلوس الطويل أمام شاشة الإنترنت وعدائية لا مثيل لها.

الإنسان هو المسؤول الأول عن مصائبه، لا يعجبها هذا الكلام، إذ تنتظر الملاك الحارس، وتعوِّل على قراءة الأبراج، هي التي كانت ألد أعداء المُبصِّرين والمنجمين، تشعر الآن بالغبن، وتحسد الآخرين القادرين على التواصل مع المجتمع، وكأنها لم تكن يومًا كذلك.

هذه المرأة تعني لي الكثير، بودِّي تقديم يد العون لها، ولكنها أقفلت في وجهي جميع الأبواب، ينشغل بالي عليها وأخاف أن أخسرها، فما أنا إلا ظلٌّ لها.

نزولًا عند رغبة حواء

ـ ما السعادة القصوى بالنسبة إليكِ؟
ـ فنجان قهوة صباحي على شرفة منزلي الجبلي
قبالة جبل «صنين» أنتظر الشمس، لأساعدها
في شروقها.
ـ كم يلزمني لأؤجر بيتك لصباح واحد؟

محمد علاء الدين

حسنًا، هيا بنا نلعب لعبة اكتشاف الذات والآخر، مشكورة يا «حواء» وقبلها «تارا».

إجابة عن أسئلة الاختبار:

ـ ما السعادة القصوى بالنسبة إليك؟

ـ فنجان قهوة صباحي على شرفة منزلي الجبلي قبالة جبل «صنين» أنتظر الشمس، لأساعدها في شروقها.

ـ ما هو أكثر ما تخشينه؟

ـ الصراصير والتجاعيد، منظرهما مقزز.

ـ أي شخصية تاريخية تتماثلين معها؟

ـ مريم المجدلية ربما، لست متأكدة.

ـ مَن أكثر شخص تقدرينه؟

ـ كل مَن مد يد العون بصدق ومن دون غايات، وبالمناسبة هم كثر.

ـ ما أكثر سمة تزعجك في نفسك؟

ـ سرعة الانفعال، التي أحاول حاليًّا السيطرة عليها، والتبذير والكسل.

ـ ما أكثر سمة تزعجك في الآخرين؟

ـ إصدارهم للأحكام المسبقة، وهذه طبيعة بشرية لا أملك حلولًا لها.

ـ ما أكثر ما تتهورين فيه؟

ـ الثقة السريعة بالآخرين، وهذا أمر مكلف ولا تحمد عقباه أحيانًا.

ـ ما الذي يدفعك إلى الكذب؟

ـ الخوف والرغبة في حماية الذات.

ـ ما أكثر ما يزعجك في شكلك؟

ـ ذقني، لم يكتمل نموها كما أطمح، مزحة طبعًا.

ـ مَن أكثر شخص تحتقرينه؟

ـ لا أحد، أجد للناس دائمًا مبررات تجعل منهم ما هم عليه.

ـ أي كلمات أو جمل تبالغين في استعمالها؟

ـ «أعرفت كيف؟»، «عم تفهمي شو قصدي؟»، «أفف»، «عم تمزح».

ـ لو قُدر لك تغيير شيء واحد فيك فما عساه يكون؟

ـ عقلي؛ أجعله أكثر ثباتًا.

ـ ما إنجازك الأكبر؟

ـ عدم توقفي عن التدخين.

ـ إذا كُتب عليك أن تفارقي الحياة، ثم تُبعثي من جديد كإنسان أو شيء، ما يكون في رأيك؟

ـ أحب أن أكون مياهًا في نهر لا تعرف الجفاف.

ـ مَن هم كُتابك المفضلون؟

ـ لا ثوابت عندي في الموضوع، حسب المواسم..

ـ أيُّ بطل من الخيال هو الأقرب إلى قلبك؟

ـ لولو الصغيرة، من سلسلة «لولو وطبوش»، عرفتوهم؟

ـ ما هي قمة التعاسة؟

ـ ألَّا نقبل فكرة التعاسة كجزء أساسي من دوامة الحياة.

ـ أين تودين العيش؟

ـ الآن ستعذرون وقاحتي في الإجابة، لكنني منذ أيام كنت أقول لنفسي إنني أود العيش في جزيرة للعراة، لأتجنب همَّ السؤال الصباحي اليومي الأزلي: امممممم ماذا سأرتدي اليوم؟

ـ ما هي ميزتك الأبرز؟

ـ وجه بشوش بشكل عام، ولؤم مخيف عندما يستدعي الأمر.

ـ أبرز صفة تفضلينها في الرجل؟

ـ صفة واحدة لا تكفي، نضجه، روحه المرحة، واحترامه للمرأة ككيان مستقل ليس تابعًا له.

ـ ما أشد ما تندمين عليه؟

ـ علمتني الحياة محو كلمة ندم من قاموسي، إللي فات مات.

ـ مَن أو ما حبك الأكبر في الحياة؟

ـ لا شيء أكبر من حب الحياة.

ـ كيف تودين الموت؟

ـ في فراش دافئ ونظيف، بعد سهرة لطيفة، أنام مبتسمة في ليلة لا صباح لها.

أبي الذي، مبدئيًّا، في السموات

إنهم دائمًا يريدون الأفضل لنا، وهي ذات الذريعة التي تجعلهم يرفضون التخلِّي عنا.. نحن نعشق «أفعل التفضيل» علمًا بأن «أفعل التفضيل» نسبية، وهي غالبًا ما تؤدي إلى طريق مسدود في كل المجالات.

هلال

أبي الحبيب..

قد تسأل نفسك ما الذي حملني على الكتابة إليك بعد مرور كل هذه الأعوام على رحيلك.

لن أُخفي عليك بأن الفضل يعود إلى هلال وتدوينته «معركة خاسرة».

لقد استفزني هذا النص وأعادني أشواطًا إلى الوراء، أخذت الصور تتدافع في رأسي لتوقظ بداخلي مجموعة من المشاعر، ظننت أنني دفنتها نهائيًّا.

لم تُتح لي فرصة التحدث إليك عن هذه الأمور، كما أنك رحلت من دون إنذار، تاركًا وراءك أحاديث معلقة على حبال الغياب.

أتذكُر ابنتك التي ركبها شيطان الزواج في سن المراهقة؟ أنا أذكر ذلك، وأضحك اليوم منك ومن نفسي، عندما أستعيد وحشيتك المطلقة في التعامل مع عريسي الأوَّل!

يقول مساء الخير، فلا ترد التحية. نتأهب للجلوس إلى مائدة الطعام، فتتجاهل وجوده كليًّا...

بعد فترة، وعندما شعرتُ بقيود الارتباط تحيط بي، قررتُ الانفصال واستسلمت لقيودك التي أسرتني بين جدران المنزل عدة أشهر، لكن بريق السعادة في عينيك لم يكن ليخفى على أحد.

توالت الأيام وتوالى العرسان وردَّات فعلك: هذا أهبل، وهذا من ديانة مختلفة، وهذا «نسونجي»... وبقينا سنوات على هذا الحال، كنت خلالها سعيدة بحريتي خارج هذا الوطن، وسعيدة أكثر باستفزازك من حين إلى آخر بعرسان الغفلة، إلى أن جاء النصيب الحقيقي الذي جعلك تخرج من ثيابك.

مطلَّق، من طائفة مختلفة، يكبرني سنًّا وفي رصيده ابنتين.

هنا طار صوابك بالفعل، وعندما زارنا ابن الحلال ليطلب يدي، ماذا كانت ردة فعلك يا بابا؟ كان موعد نشرة الأخبار، وما إن استهلَّ الرجل حديثه حتى تناولتَ جهاز التحكم عن بعد ورفعتَ صوت التلفزيون، بشكل سمع معه أهل الحي موجز النشرة.

لم أكن مراهقة يومها، ولم أكن أعبأ بمشاعرك.

اصطففت، يوم عودتي إلى مقر عملي الفرنسي، مع بقية أفراد العائلة لوداعي، وكان جسمك الواقف، صلبًا كالصخر، لكنك تحولت فجأة إلى شلال دموع، كطفل يبكي من كل قلبه، تشهق، تتنفس بصعوبة، وتبكي من دون انقطاع!

عندما اقتربت منك لأطبع قبلة على وجنتك رفضت، وأشحت بوجهك، تركتني أرحل مع أزمة ضمير خرافية.

تخطيت مع الوقت شعوري بالذنب وهذا الارتجاج النفسي الذي يحدثه منظر والد غارق في البكاء أمام ابنة كانت تظنه شديد القسوة، لا يرحم، وكنت قد اتخذت قراري، سأتزوج يعني سأتزوج.

خططت لإقناعك عن بعد، بأنها حياتي، وأنني المسؤولة الوحيدة عن خياراتي فيها، لكنك لم تمهلني ورحلت عن هذه الدنيا وتركتني في حيرة قاتلة.

بودِّي أن أخبرك، الآن، أني تزوجته بعد مرور عام على وفاتك، واتخذته أبًا بديلًا، قبل أن أكتشف فداحة الأمر. على الرغم من كل ذلك أقول لك إنني سعيدة معه للغاية، وأظن أنك، لو لم تفارقنا مبكرًا، لاتخذت منه صديقًا لك.

بلا عنوان

الثمن النفسي باهظ من دون شك، لكن لا بد من دفعه.. اتصلي بها.

مجهول

منذ صغري وإلى الآن، لم يستطع صوت فيروز الملائكي وهي تغني «أمي يا ملاكي، يا حبي الباقي إلى الأبد» تغيير صورة الأم في رأسي.

لم أفهم يومًا لماذا نحتفل بعيد الأم؛ لذا شحَّت معايداتها بيومها العظيم، على مر السنين.

بل اعتبرتني الهدية الأمثل التي وهبتها لها الدنيا من دون أن أشعر أنها فرحت بها.

في طفولتي كانت لا تتردد في قص حكاية ولادتي مرة تلو الأخرى، لتقول أمام الناس وأمامي: «عندما شاهدت ابنتي للمرة الأولى فور ولادتها، كانت فاحمة الشعر وبشعة، وبمجرد رؤيتي لها قلت للمحطين بي في المستشفى، خذوها لا أريدها»..

وكان الناس يضحكون لهذه القصة، بينما أتمزق من الداخل. لم أفهم سبب رفضها لي، خصوصًا أنه لا حيلة لي في مجيئي إلى هذا العالم.

كانت علاقتنا عبارة عن لقاء غريبين، يتبادلان الكلمات الضرورية فقط. هذا ما تحتفظ به ذاكرتي، وترفض الاعتراف بغيره كطبيعة لهذه العلاقة.

ترعرعت وكبرت مع فكرتَي الرفض والإهمال اللتين غذَّتا في لاوعيي شعورًا دائمًا بالذنب نحو كل أمور حياتي التي عرفت كيف أفرض نفسي عليها.

بماذا يشعر الإنسان الذي ترفضه أمه؟ هل تتشابه ردات فعل من عاشوا تجربة كهذه؟

لا أعرف. كل ما أعرفه أن الذي لا يحصل على حنان وحب أمه، يشعر بأنه لا يستحق شيئًا في هذه الحياة؛ فيعيش في خوف دائم من رفض الآخرين له، لذا لا يُقبل عليهم. ويشعر بنقص عاطفي شبه دائم، يُجبره على الفشل في أمور حياته، فيحاول التشبه بها، بعلَّاتها وبأمراضها، لدرجة يتحول معها إلى صورة مصغرة عنها.

استغرق الأمر سنوات طوال قبل أن أنتبه إلى أنني لست المسؤولة عن إعراضِكِ عني، لأعي أنك امرأة لها قصتها وعذاباتها، قبل أن تكوني أمي التي أردت تفصيلها على قياسي، وتوقعت منها ما لم تستطع تقديمه.

مَرَّ زمن طويل قبل أن أقتنع بأنك أحببتني على طريقتك الخاصة، لكن هذا الوعي لم يُرضِ الطفلة التي تعيش في أعماقي، ولا تزال تبحث في وجوه البشر عن أم بديلة.

على الرغم من أنني تخلصت اليوم من مشاعري السلبية تجاهك، وتقبلتك كما أنت، ورضيت عن العلاقة التي بدأت تنشأ بيننا، إلا أنني أجد صعوبة في الاتصال وقول كل عام وأنت بخير.. لكن يبدو لي.. أنني سأفعل.

كل ذلك وأكثر

لا أعرف ما الذي جعلنا نستعيد، في تلك الأمسية، ذكريات بعض الأحداث والمشاكل التي تخطيناها بما نعتبره أعجوبة (حتى اليوم). لم أجد سببًا منطقيًّا لغرقنا في ضحكٍ مميت، عندما استعدنا الوسائل التي كان أحدنا ينفث بها عن غضبه تجاه الآخر.

حسنًا.. أعترف أنني استعملت عبارة: «أتذكر عندما...» بأكثر مما استعملتها أنت، وكنتَ الأكثر تعقلًا مني في التعاطي مع هذه الأمور على الدوام، فلم تكن ردات فعلك متهورة وانفعالية مثلي. كانت ردود أفعالي عفوية لم يمسسها التفكير بسوء!

أتذكر عندما اختلفنا مرة لسبب لا أذكره، بقدر ما أتذكر جيدًا كيف أوصدتُ باب غرفتنا بالمفتاح وأعملت المقص، بكل عزم، في خزانة ملابسك. مزقت قمصانك كخيَّاط نسي دواء الصرع، إربًا إربًا. ولا أعرف إلى الآن كيف أفلتت بناطيلك من براثن المقص، ثم نجوت بنفسي بعدها وركبتُ أول طائرة مغادرة.

أتذكُر عندما «توحمتَ» مرة على طبخة لوبياء بزيت وأقسمتَ بأنك ستعود

مبكرًا لنتناول العشاء معًا؟ قدَّمت الصحبة، بالطبع، على أطباقي. أنا التي لا أزور المطبخ إلا في المواسم. تظاهرتُ بالنوم عند عودتك في الواحدة صباحًا، لكن سكون الليل لم يتمكن من تهدئة روعي، أتذكُر ما الذي حصل في الصباح؟ كنتَ تستلقي بدعة في مياه المغطس الدافئة، تتلهى بعدِّ فقاعات الصابون عندما اقتحمتُ عليك الحمَّام، مصحوبة بوعاء اللوبياء الذي أفرغته عليك بالكامل. أذكر كيف فغرت فمك وأصابتك الدهشة، واللوبياء، بالشلل. بعدها حملتُ حقيبتي وتوجهتُ إلى عملي وكأن شيئًا لم يكن.

أتذكُر تلك الفترة التي كنت أخاف فيها من الأشباح؟ أتذكُر كيف اتهمتَني بالجنون حين أيقظتك مرتين عند الثالثة صباحًا، لأؤكد لك أن السرير يميل بنا؟ نظرتَ إليَّ باستياء والريبة ملء عينيك، وأشعلتَ الضوء، تحت إلحاحي، ثم انكفأتَ أرضًا لتؤكد لي أنه لا أشباح تحت السرير. اعتبرتَني مجنونة، قبل أن نكتشف في اليوم التالي أننا نعيش في منطقة تتعرض للزلازل من حين إلى آخر، وأننا تعرَّضنا لهزة أرضية مالت بالسرير ومَن عليه، فقدَّمت اعتذارًا لائقًا.

أتذكُر ليالي أرقي في تلك القرية النائية؟ أيقظتك، في ليلة أرق شديد، قُرب الثانية صباحًا، ثم اقترحت عليك قص شعرك بنفسي. لا أدري ما الذي دعاك إلى الموافقة. فقد شوهتُ وسامتك تمامًا، قبل أن تتسلَّل مبكرًا جدًّا إلى محل الحلاقة الوحيد في القرية، الذي لم يجد حلًّا يُخفي آثار فعلتي، سوى حلاقة شعر رأسك كاملًا.

أتذكُر عندما اتصلت بك وأنت في مدينة «كان» الفرنسية؟ حينها قلت لي أن أعاود الاتصال بعد عشر دقائق، لأنك تريد مشاهدة «شارون ستون» الخارجة للتوِّ من الفندق وأقفلتَ الخط. أنا أيضًا أقفلت خطي رافضة التحدث إليك مدة يومين.

لم أفهم، إلى اليوم، لماذا فضَّلت مشاهدتها على التحدث إليَّ؟!

أتذكُر...؟ أتذكُر...؟

غادرتني اليوم، للأسف الشديد، ردات فعلي العشوائية، فصرت أكبح جماح نفسي عن الغناء بصوت مرتفع في الطريق. لم أعد أرقص على وقع أنغام عازفي المترو. لم أعد أجرؤ على قبول التحدي والسباحة بثيابي في شهر شباط (فبراير) في مياه المحيط الأطلسي. لم تعد تغريني فكرة القفز بالمظلة من ارتفاع ألفي متر، ونسيت لماذا كنت أحب تلك الوضعية، معلَّقة بين السماء والأرض، ولا أفهم كيف احتملت مني كل ذلك وأكثر!

غلطة الشاطر

ثلاثة أشهر فقط؟!
سأتزوج من مريضة بالإيدز، وسأوقِّع، على الأرجح، عقدًا مع الـ«سي إن إن» لبثِّ ما تبقى من حياتي، وليكن بعنوان «وقائع موتي المُعلن» (مع الاعتذار لصانع الحب في زمن الكوليرا)،
وسأُقدم المال الذي أجنيه على موائد القمار،
عن طيب خاطر، لكل الخاسرين.
سأشتري سلاحًا لأتلفه، وسجائر لأحرقها.
وفي اليوم الأخير..
حين أموت..
سأضحك كثيرًا لأني حين أموت سأحيا.

الداني

غلطت مرة، منذ بضعة أشهر، ودخلت على الموقع الإلكتروني لأحد الكنديين الذين يؤلفون كتبًا عن «الحياة الروحية» و«قدرات الإنسان السبع» التي لا يعلم عنها شيئًا. غلطت أكثر وتركت عنواني الإلكتروني، ليُرسل إليَّ بنسخة من كتابه، ويا لغلطة الشاطر... راح يرسل إليَّ أطروحات لها علاقة

بهذه المواضيع يومًا بعد يوم، من دون أن يفوته تذكيري بسعر الموسوعة الخاصة به في ختام كل رسالة.

هو لم ييأس، وأنا لم أوقفه عند حده، علمًا بأن قراءة هذا النوع من الرسائل، تجعل الإنسان يفكر، ولو للحظات، في التعرف على نفسه أكثر.

اليوم وقبل بزوغ الضوء، يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، بعث برسالة طويلة يشرح فيها لأي درجة يُهدر الإنسان وقته في الأشياء السطحية في الحياة، واستفزني بسؤال أحاول أن أتحرى له جوابًا.

سأطرح السؤال بدوري على مَن يمرون من هنا، وأرجو معرفة رأيكم في الأمر برُمته، فإذا لم يرُق لكم الأمر كثيرًا لا يهم. ستجيبون قسرًا! السؤال:

إذا علمت بأن ما تبقى لك من عُمرك في الحياة هو ثلاثة أشهر فقط، فبأي طريقة ستعيش؟

غبار من هذا الكون

«بقي لكِ في حساب مصرف هذه الحياة ٩٠ يومًا». تخيلت نفسي أمام أحد الأطباء يرجمني بهذه العبارة، وحاولت تصور رد فعلي، ما عساي أن أفعل في حالة كهذه؟

تقفز أمامي صورة إيمان، التي أخبرَها الطبيب بأنها مصابة بسرطان الرئة.

ـ عفوًا؟ ما الذي يعنيه ذلك؟

ارتبك الطبيب وقال إنهم سيبذلون أقصى ما في وسعهم للقضاء على الورم الخبيث، تعلم صديقتها الجالسة إلى جانبها بأنه كذاب أشِر، لكنها لم تضف شيئًا وكذلك إيمان التي سألت بضعة أسئلة، ثم قالت باقتضاب: «شكرًا يا دكتور، عذبتُك معي» وانسحبَت.

تشبَّثت بالحياة حتى الرمق الأخير. غمغمت بكلمات غير مفهومة، وأسلمت الروح إلى صاحبها بعد خمسة أشهر من تاريخ لقائها الأول بالطبيب.

عشنا هذه الفترة معها وكأنها باقية إلى الأبد، كانت تتصرف على هذا النحو؛ لا شيء يوحي بأنها ستغادر.

في الليلة التي أسلمت الروح فيها، كنت أعبر طريقًا صحراويًّا، فهلَّ القمر ورأيت صورتها مرتسمة على وجهه، قلت لرفيق الطريق: «ماتت إيمان». لم يفهم، وتابع سيره مبتسمًا.

ماذا أفعل إن كنت مكانها؟

سأحتاج إلى عشرة أيام لأتقبل الأمر. وسأبكي على نفسي، وبعدها سأنتفض.

سأتصل بكل معارفي لأعبِّر عن حبي، أو كرهي الشديد لهم، سأجلس على حافة الجنون، وسأدعو الجميع لمشاركتي الجلسة، من دون أن أخبرهم بحقيقة الأمر. سأتفرج عليهم بينما هم يعبثون بمعنى الحياة.

وسأودع أمي بعد ذلك وأقول لها كم أحبها، ثم أطالبها باعتذار شديد اللهجة، وأمضي الشهر الأخير من حياتي مع مَن أحب. في تلك الجزيرة التي حضنتنا يومًا وغادرناها مكرهين، سأطلب منه أن يدفنني حسب معتقدات سكانها.

كنا واقفين، في تلك الليلة على الشاطئ، نراقب مشهدًا شديد الرومانسية على ضوء القمر:

تهادت، على أمواج المحيط، شموع صغيرة... فتحمَّسَ رفيق لنا وقرر السباحة بينها، التصقت مادة رمادية بجسمه، عند خروجه من الماء، اكتشفنا بعدها أنه قد سبح مع رماد أحد الموتى الجُدد، بعد أن أحرقوه وألقوا برماده في علب صغيرة تُضيئها الشموع ويُحيط بها ورد قليل. إذ يرسلونها في المحيط لتختلط بغبار هذا الكون.

فوضى

جميل أن تكون المدونة جسرًا للتواصل الحياتي
الحقيقي وليس العكس، لقد نجحتِ في رهان
صعب للغاية، ربما من دون أن تدركي ذلك.

محمد علاء الدين

وقفت مذهولة أمام مدونتي هذا المساء، شعرت بأني أمام صندوق خشبي عتيق، أرمي فيه كل ما ليست بي حاجة إليه. صندوق تعمُّه فوضى الكلمات، والأحاسيس، وألوان الصور المبعثرة بعيدًا عن أي أناقة تُذكر.

صندوق الفوضى التي كانت تعمُّ أنحاء غرفتي قبل سنوات.

بعثرت محتويات المدونة، أذهلتني سرعة انتقالي من حالة نفسية إلى أخرى. وقفتُ حائرة بين غزارة الكتابة في البداية والهروب منها في منتصف الطريق، راودني شعور بالسأم وسؤال مُلحٌّ حول جدوى الكتابة.

الكتابة، هههههه عفوًا أنا لست بكاتبة، (رغم أن طموحي يسير على حياء في هذا الاتجاه).

دعوني أقل التدوين، أشرف لي... فما جدوى التدوين؟

لا أتحمل فكرة تحويل المدونة إلى مكان مهجور لا أثر للحياة فيه، هنا أحيا بشكل آخر لا يشبه الأقنعة التي أستعملها في حياتي الواقعية، فصام في الشخصية من نوع آخر: هل أناي الافتراضية هي الواقعية؟ ربما هي جزء من واقعي.

هنا أصطدم بوجه آخر من وجوهي المتعددة، هنا أموت على راحتي، فلا عزاء ولا من يحزنون، هنا أحيا بصعوبة، هنا أبحث عن بقايا أكسجين يدخل صافيًا إلى رئتيَّ المطليتين بسموم الدخان، هنا أسأل مَن أنا، وأركض لاهثة وراء أجوبة لا حصر لها.

هنا يفتح صندوقي القديم قلبه لمزيد من دفق حياة تتحول في كل لحظة إلى ماضٍ لن يعود.

الغريبة



أين باقي الصورة؟ وبقية الغرباء؟

الداني

مَن هذه الغريبة؟ لماذا تحدق في وجهي بهذه الوقاحة، تسخر مني وتجعلني أنطق بأسئلة غريبة: «هل تقع الأرض إذا توقفت عن الدوران؟».

ضحك الحاضرون، فأخرستها بسرعة. ولأنها عنيدة، فهي لا تكف عن اقتحام حياتي ضاربة بنضجي عرض الحائط. حاولت مداراتها مرارًا وتكرارًا، أخبرتها أن دورها انتهى، وواجهتها بحقيقة موتها، فأخرجت لي لسانها وقالت: «لا، نحيا معًا ونموت معًا».

تحيِّرني قدرتها الخارقة على الصعود من الأعماق حيث دفنتها مرارًا.

تباغتني، تبعثرني، وتجعلني أنطق بأسئلة غريبة:

«لماذا نرفع رأسنا إلى الأعلى كلما أردنا النظر إلى السماء ولا نخفضها إلى الأسفل؟»

«لماذا لا نستطيع النظر إلى السماء من تحت الكرة الأرضية؟»

قفز السؤال إلى فمي على الرغم مني. يضحك الحاضرون ثانية: «لأن الأرض لا تملك شرفة، ولا تملك أطرافًا».

مَن هذه الغريبة التي تسري في أجزائي كدبيب الحُمى؟ من أين تأتي بالقوة لاجتياحي وأنا عارية من أي سلاح أدافع به عن نفسي؟

أرجوكِ دعيني وشأني، لا خبز يكفينا نحن الاثنتين، فتبكي ويخرج الدمع من عيني أنا.

مَن هذه الغريبة؟

تقول: «أنا الذكريات، البراءة، الطفل المهمَل، أنا المتملِّكة وأنتِ لي».

أيأخذها أحد بعيدًا عني؟

تمدُّ لسانها ثانية: «أنا الحياة وأنتِ الموت».

مَن هذه الغريبة الملتصقة بأهدابي؟

غنِّ لي أغنية! فعلتها وكان للأغنية مفعول السحر.. نامت من جديد...

صانع الأحزان

أرسم دوائر الضجر على غبار الطاولة الكثيف، رسائل إلكترونية كثيرة غير التي أنتظرها.

أنظر بِحيرة إلى كومة الكتب المتزاحمة في المكتبة، تفيض بها الرفوف، ألمسها بحنان: تقفز الشخصيات من بين الصفحات، تتحرر من قيد الحروف والحبر، طال اصفرار بعضها بفعل مرور الزمن، وكذلك وجهي.

كتبت اسمي في الصفحة رقم مائة من كل كتاب، لكثرة مَن سرقوا كتبي أو استعاروها فلم ترجع.

للكتب الأحب إلى قلبي عنوان دونته بخط عريض على الصفحات الأولى: «هذا الكتاب اسمه: أرجعني إلى صاحبتي من فضلك». توقفت عن إعارة الكتب. أحفر عميقًا في تربة الذاكرة، سارق الكتب مجرم، وسرقة الكتب لا تُعد حلالًا.

«يوميات الحزن العادي»، كتاب قديم سُرق مني منذ خمسة عشر عامًا، كان يطفو على سطح إحدى الكراتين، حين كنت أستعد للانتقال من بيت الطلبة إلى منزلي الأول، ذيَّله المؤلف بعبارة: «إلى رات، نجمة صاعدة نحو الفرح».

اختفى صانع الأحزان من حياتي مع اختفاء الكتاب، والفرح كذلك.

يوميات حاسوب

هل هناك عطل في الحاسوب أم عطل في البهجة؟
وهل تلك يوميات للحاسوب أم يوميات للأرواح الجريحة؟

فلان الفلاني

أنا حاسوبها وكاتم أسرارها! لكني لم أعد أحتمل سوء المعاملة والمزاجية، فقلت أعبِّر عن نفسي.

أكره الاستحمام وهي تعرف ذلك، لكنها أصرَّت وما باليد حيلة، علمًا بأنني سمعت المختص ينصحها ألا تُعرضني لأي نوع من السوائل.

صحيح أن ملمس «الليفة» كان ناعمًا كالحرير، غير أن سائل الاستحمام سبَّب لي ضيقًا في التنفس وانعدامًا في الرؤية.

فمرضت، وبدلًا من تهوين الأمر عليَّ راحت تشتمني.

حاولَت أن تعاود الكتابة مِرارًا وتكرارًا، لكن حروفي تحولت إلى أرقام، فراحت تضغط بعصبية على كل ما يقع من أزرار تحت أصابعها. منحتني إجازة ساعة وأخرستني، ثم حاولَت من جديد. نشَّطت نفسي لأتجنب الضغط العشوائي الذي يؤلم جسدي وامتثلت لأوامرها.

تُراعي شعور الناس جميعًا ما عداي، حسنًا أنا لست من الناس وألعب الآن دور النسناس الذي لا يؤتمن على سرٍّ.

ضاق صدري، طالبتها كثيرًا بمضاد جديد للفيروسات، فتعدني كل يوم بذلك وتماطل. وبما أني ضعيف البنية، ألتقط أحيانًا أمراضًا تعشش بداخلي وتجبرني على التوقف عن العمل، فأنال نصيبي من شتائمها.

لكنني اعتدت عليها وهي منذ أشهر عدة تفارقني بالكاد، إذ نمضي ساعات طويلة في اليوم معًا وأكون نديمها في ساعات القلق. توترها تسرَّب إليَّ وأتعبني..

تارة على هذه الطاولة، وأخرى في حضنها، ومرة في سريرها، ويرهقني السفر معها، لكنني لا أقوى على فراقها، وأعرف أنها لن تستغني عني بهذه السهولة؛ لأنها، ببساطة، لم تمتلك جميع مفاتيحي وأسراري بعد، وهذا أمر مطمئن.

أسعدني، في البداية، أمر اعتزالها الدنيا، فلم أعد أشعر بالوحدة، كما أحسست بأهميتي، كيف لا وقد فضَّلتني على كل ما يتعدى عتبة دارها.

ظننتها متعَبة تبحث عن ملاذ آمن فترة لن تطول، قلت أعطيها شهرًا وأحضِّر نفسي معنويًّا لوحدة جديدة. لكنها مكثت طويلًا بقربي، وها نحن ذا نقرع باب الشهر السادس. أسمعها تردد: «أُف، كيف مرق هالوقت بسرعة؟».

لا يعنيني مرور الوقت كثيرًا، فأنا أسجل، وأحسب، أعيش في الزمن وخارجه، وأخاف عليها منه فحسب.

وعدتني مؤخرًا أنها ستحتفظ بي، حتى لو اقتنت حاسوبًا جديدًا، مؤكدة أنها لن تُعرضني، ثانية، لمخاطر الإنترنت، معلنة أن الترحال المتواصل عبر المواقع سيتوقف لتنحصر مهمتي في حفظ صورها وأسرارها.

أسعدني الخبر كثيرًا، سأمتلكها.

شعرت، في الواقع، بغيرة شديدة من هذا المدون الذي أضاف إلى اسمها ياء التملك، خصوصًا أنني أول من اقترح عليها هذا الاسم.

تحدثت بالأمس ليلًا عبر الـ«إم إس إن» مع أحدهم، تعمدتُ التنصت. تعجبني آراء هذا الرجل، وأعرف كم أنه حريص عليها، لكنني لم أتوقع أن يقسو عليها بهذا الشكل. قال لها إنها تغيرت كثيرًا، سألَته: إلى الأفضل؟ فأجاب بالنفي. قالت له: وكيف تراني اليوم؟ هلَّا وصفتني بكلمات؟ لكنه فضَّل أن يصفها بصور التقطها من هنا وهناك على «الإنترنت» وأرسلها صباح اليوم بالبريد الإلكتروني.

صعقت من ردة فعلها، لم يسبق لي أن رأيتها تبكي بهذا الشكل، نالني رذاذ دموعها، فأدمت أسلاكي.

ساعة، ساعتان... حتى ظننت أن خزان الدمع قد فرغ في عينيها، لكنها فجأة كتمت أنفاسي وخرجت، وأنا حتى الساعة فاقد لأي اتصال معها. لعنت هذا الحمار الذي أخبرها بواقعها الحالي واستسلمتُ لنوم مضطرب.. حلمتُ بأني الأمير النائم وبأنها ستأتي، لا محالة، لتطبع قبلة اللقاء الجديد فوق جبيني.

المثوى الأخير

لا يزال الدفتر يُذكرني بالجد العجوز، فله أظفار لا ينفع المقص معها، وما زالت الأوراق البيضاء تُذكرني بالموت. أشعر بالحياة حين أجرح بياضها الثلجي الكئيب، وأنتصر عليها بالخدش والتجريح والتسويد والتلوين.

فلان الفلاني

لي في الموضوع كلمة، وخصوصًا أنني سجين مع أربعة من إخوتي منذ ثلاثة أشهر في مكان معتم ورطب. لا أعرف ما هي الجريمة التي اقترفتها لأستحق عقابًا ظالمًا كهذا، فلا رأي لي فأكون سجينة، كما أنني لم أتدخل في شؤون السياسة يومًا. آه عفوًا، نسيت أن أعرِّفك بنفسي: أنا دفتر يوميات مصاب بانهيار أعصاب حاد.

صحيح أنني أتجنب تعريض نفسي لفضول الغرباء، ونجوت مرة من براثن اللص الذي اقتحم غرفتها، كما أنني أمين، وجوفي بئر تطمُر فيه أدق تفاصيل حياتها، وعلى الرغم من صفاتي الحسنة فقد هجرتني من دون سابق إنذار، ورمت بي في قعر الخزانة تحت كومة من القماش الثقيل.

خارت قواي، ففقدت الأمل، بل شعرت بدنو أجلي، فاستسلمت لموتي المحتمل.

انتشلتني، فجأة، من العتمة صباح أمس، بل خرجت بي إلى ضوء الشمس مباشرة، فدبت الحرارة في قلب كلماتي، لكنني لم أجرؤ على التفاؤل، إذ أنبأني حدسي بأن النهاية قد حلَّت. قلَّبت الصفحات، توقفَت طويلًا عند بعضها، مزَّقت بعضي الآخر، وارتجفت أوصالي من فكرة الموت حرقًا.

لم يحدث شيء سوى أني أمضيت ليلة لم أذق للنوم فيها طعمًا، بجانب حاسوب متعجرف، يعاملني كملف ينتظر «نقرة إعادة التدوير» على «سلة مهملاته»، بينما ينعتني بالمتخلف.

أخبرني أنها قد أعرضَت عن اللجوء إليَّ منذ أن اكتشفت المدونات. ثم شرح لي التقنية فلم أفقه منه شيئًا، ولم أحاول تبني موقف الدفاع عن النفس، إذ عرفت للتوِّ أن عصر الورقة والقلم قد انتهى، حان وقت توديع ملمس اليد التي طالما أبقت على أناقتي؛ عاملتني صباح اليوم برقة، ودلكت صفحاتي، ثم قالت بأسى إن موعد تقاعدي قد حان، شكرتني على احتمالي لها طوال هذه الأعوام، وأورثت حاسوبها (النتن) كثيرًا مما أحويه، فلم تغب ابتسامة السخرية والشماتة فيَّ عن زجاج شاشته.

وضعَت في قلبي وردتين، واحدة حمراء وأخرى بيضاء، وها أنا أتوجه الآن إلى مثواي الأخير. عزائي أنها ستأتي من سنة إلى أخرى تتفقد قبرًا يضم رفات بعض ما كان جزءًا منها.

يوميات حاسوب ٢

حاسوبك كتير مهضوم... حاسوبي حابب
يتعرَّف عليه.

أحمد

لست حزينًا، على الرغم من تجنبها لجِلساتنا الطويلة.

ضخَّت، منذ يومين، في أحشائي بكثير من بقايا دفتر اليوميات، فانتفخ الورم في جسدي.

حاولت أن أُفهمها بأن الاستحمام لا يكون بهذه الطريقة الوحشية التي مارستها معي منذ عدة أيام، بل بتنظيف داخلي، يستأصل ما لا لزوم له من جسدي المتورم، أوضحت لها أن كل هذا اللغو الذي يعج به داخلي، يعوق حركتي ويجعلها من البطء الذي ينذر بانفجار وشيك.

طيب، طيب، بعدين..

أجرُّ نفسي جرًّا، بثقل مخيف، لا أعرف كيف أتحرر من قيودي، بانتظار رحمتها!

لكن كل ذلك يهون أمام المصيبة التي لحقت بي في شهر أكتوبر الماضي، لا زلت حتى اليوم لا أستوعب كيف تمكَّنَت من إيلامي بهذا العنف.

الست، بيني وبينكم مجنونة، من فترة إلى أخرى «تخرم» على موضوع ما، وتدخل فيه، ونادرًا ما تعرف كيف ستخرج منه. «تفتَّح» رأسها في أكتوبر على النمل، (النمل، نعم، اسألوني أنا).

لعنة الله على هذا الذي أهداها ثلاثية الكاتب «برنارد فيبير». حوالي ١٦٠٠ صفحة مخصصة للنمل، تقرأ، ثم تأتي إليَّ وتدسُّ في جيوبي ملاحظاتها عن هذه الكائنات العجيبة.

تطوَّر الأمر حين ذهبَت إلى محل بيع الحيوانات الأليفة المجاور، تستفسر عن منملة (قرية زجاجية صغيرة يربَّى فيها النمل)... اندفع رأس البائع، كالسلحفاة، عدة سنتيمترات إلى الأمام! لقد رأى منملة في أوربا، لكنه لم يعتقد أن تربية النمل ستثير اهتمام الزبائن في لبنان، فلم يستوردها.

عادت تجرُّ أذيال الخيبة، لكن لا! لقد وجدت «الست» أن دسَّ حفنات صغيرة من السكر عند زوايا الجدران، سيجعلها تحصل على «منملة طبيعية».

محمية النمل، يا للجنون!

في الصباح الباكر، كان النمل يجتاح المنزل، ودارت بينها وبين سكان البيت رحى معركة لتمنعهم من استعمال مبيدات الحشرات، وتقنعهم بأن الحَبَق مضاد فعال له.

أما كيف اجتاحني النمل؟ فلا أحد يعرف. نمل أشقر صغير تغلغل في تلك الليلة المشؤومة بداخلي. تسميه «بيبي نمل»! حاولت الاستغاثة، لكن كما تعرفون، لي فم يأكل ولا يحكي. شعرت بدغدغات بسيطة، لم أفهم

مصدرها في البداية، ثم اجتاحني رعب قاتل، تغلبت على الرغم من ذلك، على مخاوفي وتابعت العمل بانتظام.

ينشد الـ«بيبي نمل» الدفء مع لفحات هواء الخريف الباردة، فإلى أين يلجأ؟ عند محسوبكم، الذي يضخ حرارة محترمة ليل نهار، طبعًا.

في اليوم الأول للاجتياح، لم تفلح شتلات الحبق في إبعاد العدو، يبدو أنها قد خافت عليَّ أخيرًا، فنقلتني إلى غرفة أخرى، واحتجزتني فيها يومًا كاملًا، ينعشني هواء المكيف البارد.

أستطيع القول الآن بأنني لم ألتقِ بأي نملة منذ شهور، عدا تلك التي تتدلى من رقبتها في قلادة. مجنونة، النساء تركض وراء الذهب وَهذه تُعلق نملة محنطة!

دم النمل بارد وشفاف.

«عندما تشعر النملة بالخطر، تبطئ من خفقات قلبها بالتدريج وتموت.»

نـون

«نون يكره النوم، فينام مجبرًا، وهو ممن يعتقدون أن الحياة أقصر من أن يمضيها الإنسان مستلقيًا، غائبًا عما يدور في الكون من حوله.» كتبتها صاحبتي بالضغط على لوحة مفاتيحي وبالطبع طاوعتها كأي حاسوب يحترم نفسه.

وأما الطامة الكبرى فتكمن في كون «نون» مضربًا للمثل القائل: «ما بينام ولا بيخلي حدًا ينام».

تشهد على ذلك المعارك الدائمة التي تفاوتت بين الحامية والفاترة والمناوشات بينهما، والخلاف، طبعًا، حول موضوع النوم.

نعتني «نون» صباح أمس بالأخرس الحزين، وأعرب لي عن السعادة التي يشعر بها عندما يراها تبتعد عني، وخصوصًا أنه كان قد بدأ يتذمر من رفقتها الدائمة لي منذ فترة.

اعترفت لي هذا المساء بأنها ستمضي السهرة معه... وبأن مسألة عزلتها حتى عن أهل البيت بدأت تثير قلقها.

قلت في نفسي: «لقد قُضي عليَّ!» وارتجفت فأرتي من شدة الانفعال، لم يصطلح أمري إلا بعدما أغلقتني ثم شغلتني من جديد.

(لنعد إلى مسألة النوم الذي لا يطيقه «نون» من دون الدخول في متاهات هذه السهرة وأحاديثها العجيبة).

هي، تعتبر النوم أمرًا مقدسًا لا يجوز المساس بطقوسه، فينخفض صوتها، في التوِّ والحال، لوجود نيام في البيت، وتبطئ من حركتها وخطواتها حرصًا على راحة النائم، ولكم تمنت لو عاملها أهل البيت بالمثل، الأمر الذي لا يحدث إلا نادرًا وبعد معركة ضارية لاسترجاع حقها المسلوب في النوم الهادئ.

فهم أفراد العائلة الموضوع وبذلوا قصارى جهدهم كي لا يزعجوها في أثناء ساعات نومها، كلهم تكبدوا ذلك ما عدا «نون».

من المستحيل أن يكون «نون» أول من يدلف إلى السرير، وإذا اضطره إرهاقه إلى دخوله باكرًا، يُمضي ما تبقى لديه من طاقة في آخر اليوم، في إقناع الجميع بالخلود إلى النوم باكرًا.

ومَن أول المستيقظين؟ هل تسألون حقًّا؟ بالطبع «نون»!!!

لماذا أخبركم بقصة «نون»، على الرغم من أني مع أن يحكي كلٌّ منا قصته بنفسه، وإلا فليصمت؟ ربما لما هي عليه من الحيرة، لا تريد الكلام ولا تود الصمت.

لقد تسنت لي رؤيتها نائمة ذات مرة؛ تتكور على نفسها كالجنين في رحم أمه، كأنها تحاول العودة إلى ذلك المكان الأول... هناك.. حيث الشعور المطلق والفريد بالحب والأمان.

بـدون مكيـاج

أحيانًا ما ينتابني الإحساس بأن العالم الخارجي
قد خُلق أساسًا ليقلق راحتنا.
الغريب في الأمر أننا عندما نقوم بأشياء مهمة
لا نجد مَن يسألنا: ماذا تفعل هذه الأيام؟
هذا يُذكرني بأيام الدراسة: الآخرون يسألون عن
النتيجة، فقط، عندما تكون سيئة.
تجاهليهم يا رات، فهم دائمًا الجحيم.

بلوزمان

لا أغادر المنزل إلا للضرورة القصوى. نجحت ندى في جرِّي إلى مكان يعج بالناس.

كاتبة موهوبة توقِّع خمسة كتب للأطفال.

ترددت في قبول الدعوة، إذ لا أريد لأحد أن يسألني: «أين أنت هذه الأيام؟» أو «ماذا تفعلين؟».

لا أريد أن أجيبهم: في البيت، لا أفعل شيئًا.

لا أريد لعب دور الضحية أمام الآخرين، وخصوصًا أنني كنت الجلاد في حق نفسي.

اشترطت عليها: «بدون مكياج وتوابعه؟» فوافقت.

أدخل إلى المكان، موجة هائلة من البشر تشعرني بغثيان مفاجئ. أتمسك بندى. أدور وراءها خطوة بخطوة، وندى كثيرة الحركة والمعارف. أشيح بناظري عن بعض الأصدقاء، أشعر أنهم يفعلون بالمثل، فينقبض قلبي.

رحت أتلهى بتصفح الكتب الممتازة، غرقت فيها فترة، حتى اختفت ندى بين الجمع.

لم يبقَ أمامي سوى مزاحمة الأطفال، لأحصل على مقعد يتيح لي الدخول في صندوق الفرجة الأثري. أضع عيني في المنظار وأسافر إلى عالم آخر.

لم أدرِ كم مر من الوقت عندما شعرت بيد تربت على كتفي، وصوت طفولي يسأل: «تانت، نحنا كمان بدنا نشوف وإنتِ كتير طولتِ».

أقبّل جبينها وأترك لها مكاني. ثم رأيته.

تجنبت النظر إليه، وتحاشيت الذهاب في اتجاهه، وها هو الآن يغادر، يمشي بجواري حتى كاد يلامسني.

هل أشاح بوجهه عمدًا، أم إنه لم ينتبه بالفعل لوجودي؟

استوقفته بسرعة، فأبدى دهشة مصطنعة قائلًا: «شو دخلك إنتِ بالأطفال؟ ماذا تفعلين هنا؟».

أرغمت نفسي على الابتسام: «ما أنا الطفلة المعجزة، شو نسيت؟».

وانضم، طبعًا، إلى كثير من الأصدقاء قبله؛ أحس بالذنب وقال: «اعذريني، عرفت مؤخرًا بما حصل لك، أين أنت؟ ماذا تفعلين هذه الأيام؟».

حاولت استحضار حيوية ما، ورحت أخبره عن مشاريع وهمية بفرح واهن.

ختم اللقاء كعادته: «طيب اتصلي فيَّ، خلينا نشرب قهوة مع بعض».

هذه المرة لم أكتفِ بكلمة أكيد، بل بجملة طويلة عريضة شرحت له فيها كيف يختفي إثر كل مرة أتصل به لنشرب فنجان القهوة هذا!

لم يكن يتجنبني في السابق، بل كان على لائحة أصدقائي المحببين.

برر موقفه بكلمات غير مفهومة، ووعد بأنه سيتصل بي في أقرب وقت.

قال: «عليَّ أن أغادر بسرعة، إذ لا أقدر على استنشاق عطرك، الذي يثير أشياء غريبة في مخيلتي».

كان على أي امرأة أن تقع تحت تأثير سحر الكلمات المجاملة الأخيرة، ولكني لم أفعل، اعتبرتها مجرد طريقة ذكية للانسحاب من دون جرح شعور محدثته.

أقف وحيدة بضع ثوان، فقدت بعدها احتمالي، وندى تائهة عن نظري، وزميل سابق على بعد خطوات.

استجمعت شجاعتي وتوجهت نحوه، فلم يعرفني! وحين فعل قال بأن شعري قد طال كثيرًا وبأنني استفدت من سمنتي قليلًا. ثم أردف: «وماذا تفعلين هذه الأيام؟».

«أرتاح وأفكر لأعرف، بالضبط، ماذا أريد.»

فيقول ساخرًا: «حاذري، من الممكن لهذه الراحة أن تطول عشر سنوات».

وهنا يحلو لي، وبطريقة غير مباشرة، أن أنشط ذاكرته بخصوص وضعه المزري، وأنسحب.

«أين أنت؟»، «ماذا تفعلين هذه الأيام؟»، «ماذا فعلتِ؟»، وأخيرًا «شو عاد صار معِك؟»

لم أعد أحتمل وقع هذه الأسئلة، التي تنهال كالسياط على جلدي، خصوصًا عندما تصوبها أفواه الآخرين نحوي.

أنا في البيت، أضيِّع وقتي بالاكتئاب ونصب العراقيل في وجه كل ما من شأنه انتشالي من هذه البؤرة، فأجتر أيامي، وأغرق في الكسل، والبكاء أحيانًا، بينما يلح عليَّ السؤال الموسمي: «ما جدوى حياتي؟»

تهتف ندى: «يلّا حياتي، تأخرت على ابني»، وننسحب.

سقوط حرّ

:)) آسفة على الابتسامة ولكن سؤالك ذكرني بما قاله لي طبيب نفسي منذ أسابيع قليلة. سألني: لمَ أتيتِ؟ فأجبت بأن صديقة رتبت لي الموعد لأنها تظنني أحتاجه، ولكني أظنني بخير. قال الطبيب في نهاية الجلسة: الأمر ليس في حاجة إلى طبيب، لو سألتِ البواب بيقول لك إنه عندك اكتئاب.

ألكسندرا

حشرت نفسي في هذه الزاوية المظلمة. لا مخالب لي تسعفني على إنقاذ ما تبقى.

أتخلى، بكامل قواي العقلية، عن أشيائي الواحدة تلو الأخرى، وأحزن لذلك.

ألقي بنفسي في بحر ثائر لا أجيد السباحة فيه.

الأبواب موصدة، ولا طاقة لي على قرعها، لا أرغب في اقتحامها.

لا ألجأ إلى أي نوع من المهدئات أو مُغيبات الوعي، معلنة عن رغبة حقيقية في المواجهة... أفشل...

تتراكم الخيبات فوقي. أستسلم.

من أين أتاني هذا الاندفاع العظيم لتحطيم كل الأشياء؟

صحيح أنه ليس بوسع المرء الحصول على كل شيء، لكن يبقى بوسعه نسف كل شيء.

«تأثير الدومينو»: حيث تتساقط أحجارها بعضها تلو بعض بانسجام تام على: العمل، البيت، العائلة، الأصدقاء، الأحباء، الضحك، المتعة، الطموح، وعليَّ أنا...

أحاول أن ألمس القعر، لكنه بعيد.. أواصل الهبوط.. متى ينتهي كل هذا؟ كيف أنهي كل هذا؟ ما هذا؟

ماذا أسمّيكِ؟

احترت ماذا أسمِّيكِ في هذا النص، «بصَّرت ونجَّمت كثيرًا» واقترحت على نفسي، أخيرًا، اسم الملاك الحارس.

ربما لن تعجبك التسمية، لكنني أعتبرك كذلك، هل قلت لك ذلك يومًا؟ لا، لا أظن، ها أنا الآن أحاول قول كل ما لم تسمح الظروف بقوله سابقًا...

لماذا ملاكي الحارس؟ لأنني متعبة حتى النخاع، (نخاع؟)

عادت بي الذاكرة يا ملاكي إلى العام ٩٣ حين كنت «هبلة» (ولم أزل، لكن بدرجات أقل)، ومشتتة، وطويلة اللسان، وحساسة كورقة خريف يابسة.

فتحت عينيَّ في ذلك المشفى، بعد نوم دام أيامًا أعجز عن عدها، توقعت رؤية أي شخص إلا أنتِ.

سألتك بين الصحو والنوم: «كم الساعة، لقد أخذوا ساعتي». فخلعتِ على الفور ساعتك الضخمة المزركشة بألوان عجيبة وكبيرة، كأنها ساعة حائط.

ما الذي أتى بك لزيارتي؟ كنتِ قد انضممتِ لتوِّك إلى العمل معنا،

وأنا كنتُ باردة وشديدة الحذر في التعامل معكِ لشدة شعوري بالذنب من المقلب الذي دبَّره آخر في حقك وتواطأت معه خوفًا منه.

لكنك أتيتِ إلى المشفى، وأعطيتني ساعتك، ومن ساعتها تبدلت العلاقة بيننا.

لعبتِ الأدوار جميعها بصدق وبساطة؛ فمرَّة أعتبرك أمي، ومرَّة صديقتي، وأخرى زميلتي..

لا شكَّ أنني أثقلت كاهلك كثيرًا بصبيانيتي، لا شكَّ أنك احتملت كل ذلك عن طيب خاطر.

أعرف أننا نتشابه كثيرًا: بكاءات، ضحَّاكات، نتمتع بذقن لم يكتمل نموُّه، وغيرها من الأشياء التي جعلت من علاقتنا خالية من أي مشاحنة أو سوء تفاهم أو شدٍّ شعر.

لم أشعر بفارق العمر بيننا، ولطالما اعتبرتك من عمري، يا عمري.

لم أشعر سوى بعطف وانتباه وحرص جعلك، لسبب أجهله، تأخذين بيدي، وتفتحين لي بابًا دخلته مرغمة في البداية، وبفضله تحوَّلت إلى امرأة تعي أسباب أزماتها السابقة، وتتخلص منها. هذا أمر لن أنساه لكِ طوال العمر، وحتى في حال متُّ وبقيت ذاكرتي في أثناء موتي، كذلك لن أنساه.

كان وجودك هو صمام الأمان، وحكمتك كانت مشعلًا ينير أحلك الطرق أمامي عتمة.

اقتنعت، مع الوقت، وبفضلك أنَّ لي أمًّا واحدة وعليَّ القبول بها كما هي.

أظنني لعبت معك دور الأم أيضًا، لكنني لم أحتمل إلَّا أن أكون الطفلة، فاستعذت موقعي.

تمرُّ الأيام، فأغادر، وتبقين في مدينة تملكينها ولا تملكك، تجابهين مرضًا عضالًا وتشفين منه، تسخرين من آلامك وتسقي دموعك طيف رغيف الخبز الساخن الذي رحل عن شقتك في غفلة منك.

تضحكني العفاريت الوهمية التي تعتقدين أنها تعيش معك في المنزل، «زوجي العفريت» هكذا أسميته، وتصبِّحين وتمسِّين عليه حتى لا يزعل.

منذ مدة وأنا أخطط للكتابة إليك، عبر هذه المدونة، لكن كل ما كتب هنا في هذه الصفحة لا يشبه ما جال في رأسي بتاتًا.

لقد كان فينا من الجنون ما يكفي لنشكِّل زادًا من الذكريات الممتعة التي نستعيدها كلما التقينا ونضحك، لعلَّ الضحك يمسح حسرة على الأيام الجميلة التي ولَّت.

مراهقة أنت في عمر الـ... طيب لن أفصح، وطفلة أنا في الـ... ها ها، لن أقول.

لقد كانت حياتك عطاء بلا حدود، فكَّرتِ في الآخرين أكثر مما فكرتِ في نفسك، واليوم ما الذي بقي من كل هؤلاء؟

هيَّا، عودي إلى هنا، حرارة بلادنا أفضل من برد الغرب. لا؟ لِمَ لا؟

حسنًا سأعترف بأنانيتي وأقول إنك لو كُنتِ هنا، لاحتملتُ الحياة بشكل أفضل.

أوشكت على الانفجار عندما كتبتُ نصَّ «سقوط حرّ»، وظننتِ أنني سأهدأ عندما أهدهده في حضن المدونة، فلم يحصل.

مرَّت ساعة قبل أن يرنَّ الهاتف، وجاءني صوتك محمَّلًا، عبر آلاف الأميال، بالدفء والطمأنينة.

أعرف أنك تمرِّين بصمت من هنا، وأعرف أنك سمعت نداء استغاثتي، وأطمئن كلما تذكرت أنك على متن هذه الكرة الأرضية.

لا أعرف ماذا أقول لك هنا، فلديَّ كثير، لكن مفاتيح الطباعة لا تطاوعني، وتسدُّ الطريق على مشاعري.

هل تذكرين حين اعتبرنا تجربتنا، ذات مرَّة، أهم من تجربة محمود درويش وسميح القاسم في «الرسائل»؟

دبَّ الحماس فينا وبدأنا نتراسل، ثم توقفتِ فجأة.. مما أصابني بالخيبة التي استغرقت أيامًا لأشفى منها، لكنني أفهمك وألتمس لك العذر إذ تركتِني وحيدة، في خضم حروفي وأفكاري.. لا بأس، أعرف أنَّ قلمك سيستعيد رشاقته في يوم ما، وأنا لست مصرَّة على موضوع الرسائل، بل أصرُّ على أن تكتبي.

اكتبي؛ فالكتابة تساعدنا على رفع الثقل عن قلوبنا. أأفتح لك مدونة؟ لا، لا تريدين، خمنت ذلك.

لكن هيا اكسري هذا الحائط الذي يحول بينك وبين الكتابة. هو جدار برلين وها قد سقط.

أعرف، ستقولين لكنَّ هناك جدارًا آخر يرتفع في المنطقة التي نحب، وأنا على يقين من أنه سيسقط هو الآخر.

شعرت، منذ مدة، أن المسافات التي تفصلنا قد باعدت بين أرواحنا، لكنَّ هاتفك اليوم قال أشياء كثيرة، قال بأن هناك من تهتم بصدق لأمري، وتخاف على طفلتها الصغيرة، وهذا يمنحني حافزًا للمجيء إليك.

أعدك أني سأبكي كثيرًا، لذا عديني بأنك ستفعلين بالمثل.

استلمت رسالتك الإلكترونية للتو، وقرأتها مرارًا. يا صديقتي، التي أفخر بصداقتها.

ربما سأتعلم منك في لقائنا المقبل الضحك والبكاء في آن واحد، (فظيعة أنتِ)، لم ألتقِ يومًا بإنسان يقدر على جمع الحالتين معًا في العين سواكِ.

سأتركك الآن، عليَّ الاستيقاظ مبكرًا في الغد..

شكرًا لك، جزيل الشكر..

ودعيني في النهاية أبوس روحك..

بــلا رأس

«تركت رأسي صباح اليوم في البيت وخرجت». قرأت هذه الجملة من كم يوم في مكان ما، أظن ذلك، لم أعد أذكر أين. حسنًا، سأستعيرها، ولن أنسبها إلى نفسي، حتى تثبت عدم ملكيتها لأحد.

من الأول إذن:

تركت رأسي صباح اليوم في البيت وخرجت. لا أحتاج رأسي، أصبح ثقيلًا وفارغًا كالطبل.

لا أحتاجه اليوم، فهو مصاب بصداع منذ عدَّة أيام. اكتشفت أن الإنسان يتحرك بشكل آلي، إذ لا يستعمل رأسه إلا فيما ندر! لن أحتاجه للقيادة، اكتشفت أنني أجوب طرقات العاصمة آليًّا، آكل آليًّا، أحضِّر قهوتي آليًّا، أتكلم من دون تفكير، يعني آليًّا أيضًا..

تركته والأفكار التي فيه هناك على السرير.

هناك كلمة يستعملها اللبناني كثيرًا عندما يتعلق الموضوع بشأن المال، تسأله: «كم ثمن ذلك؟».

فيجيبك: «وَلَوْ مش راح نختلف».

«طيِّب وبلكي اختلفنا؟»

المهم عندما سألتها منذ عدَّة أشهر عن الميزانية التي خصصتها للعمل الذي سأقوم به، قالت: «ولَوْ! لن نختلف!».

انتهى المشروع، كلفني وقتًا وجهدًا وأبحاثًا وقرفًا.

حان، صباح اليوم، وقت الحساب وبالطبع اختلفنا!

أنتمي، عادة، إلى النوع الذي لا يعرف المطالبة بحقوقه المادية، لكن وبما أنني تركت رأسي اليوم في البيت، فقد نجحت في ذلك.

قالت بأن المبلغ الذي أريده خيالي، وأن المؤسسة لا تملك هذه الميزانية. فاستجمعت شجاعتي المفقودة وأخبرتها (في سرِّي) أنني لست الأم «تيريزا»، مبرزة لائحة المصاريف زائد أجرة يدي.

احتدم النقاش قليلًا، وامتقع لوني حتى كدت أبكي! قلت بأنني سأقدم العمل هدية للمؤسسة، هذه هي نتيجة ترك الرأس في البيت.

لا أريد مالًا مغمسًا بالذل، وخصوصًا أنني أعرف أن ما أنجزته يستحق مبلغًا أكبر.

لملمت أغراضي استعدادًا للرحيل، فاستوقفتني؛ وأنا أكنُّ لها، بصراحة، معزة واحترامًا بالغَين، وأتفهم أن طيبة أصحاب المال تتبخر عندما يتعلق الأمر بالدفع.

غابت بضع دقائق، وعادت مع مغلَّف رقيق. تبادلنا التحية و«التشكرات» وخرجت.

لم أفتح المغلف، وضعته بلا مبالاة في حقيبة يدي، كنت على يقين أنها أعطتني ما أريد، وأجَّلت الذهاب إلى المصرف ليوم غدٍ.

نسيت القول بأني من النوع الذي يشعر بالذنب دائمًا، شعرت لحظات أنني لا أستحق هذا المبلغ، حتى كدت أتهم نفسي بالسرقة، واستسلمت لهذا الشعور القاسي الذي أحس معه أنني لا أستحق شيئًا في هذه الحياة.

لكن المحلل النفسي أخبرني منذ أكثر من عشر سنوات، عندما كنت أعيش في باريس، أن أمثالي، الذين لم تغدق عليهم أمهاتهم بالحنان والاهتمام في الطفولة، يسكنهم هذا الشعور، وأقنعني أنني أستحق هذه الحياة عن جدارة.

أتممت واجبات يومي، توقفٌ أخير، في طريق عودتي، في مركز البريد لاستلام رسالة مسجلة.

يطلب العامل بطاقة هويتي فأفتح حقيبتي وأخرج البطاقة، أستلم الرسالة وأعود منهكة حيث تركت رأسي، فلا أجده! هرب؟ ربما، فهو يبادلني شعورًا بالكراهية منذ فترة. لا بأس، سيعود، لن يجد إنسانًا طبيعيًّا يقبل بإيواء رأس كهذا.

رنين الهاتف، يزعق صوت سكرتيرة صاحبة المؤسسة على الجانب الآخر من الخط:

«رات! هل أنت بخير؟»

«نعم، لماذا؟»

«وين عقلاتك؟»

ثم تضيف: «شو بلا راس إنتِ؟»

ياه! كيف عرفت أني أضعت رأسي؟

«طيري إلى مركز البريد الفلاني، لقد وقع منك الشيك الذي دفعناه لك للتو وهو بالمبلغ المرقوم وموجود عندهم.. أسرعي سيقفلون، لكن الموظفة التي عثرت على الشيك، ستنتظرك.»

راح صوتي، حاولت أن أقول شيئًا غير مفهوم وطرت..

سألت العاملة: «بعد في أوادم بهالدنيا؟» فابتسمت وقالت بأنها واحدة منهم.

شكرتها من كل قلبي، واسترجعت مالي، وما إن خطوت خطوتين على طريق العودة، حتى التقيت برأسي، تعانقنا عناق الأصدقاء المشتاقين بعضهم إلى بعض.

أخبرت رأسي بالقصة، فتساءل من أين أتت عاملة البريد برقم المؤسسة؟ ليس من المعتاد أن تكتب أرقام هواتف على الشيكات! فتحت المغلف، لأجد الشيك راقدًا في أحضان بطاقة التعريف بالمؤسسة، كتب عليها بخط اليد:

«الحبيبة رات، يلعن أبو المصاري، المهم أننا نحبك ونقدِّرك.»

في الحقيقة، وأنا أيضًا.

حدث اليوم أن

حدث اليوم أن قرأتها عدة مرات ووجدتني أسأل نفسي قبل أن يحل المساء: هل أخذت خطوتها باتجاه الخارج أم خطوتيها باتجاه الرجوع.
وقلت لنفسي أيضًا: سأحب عودتها خطوتين كي تفتح أبواب السماء في غرفتها قبل حلول المساء.

فلان الفلاني

حدث اليوم، أن..

نظرت في المرآة ووجدت نفسي في قمَّة البشاعة.

نقبت في شعري لأكتشف شعرة بيضاء، أقتلعها بعزم.

أضفت ملحًا للقهوة بدل السكر.

نسيت تنظيف أسناني.

أكلت أظافري مباشرة بعد تقليمها والاعتناء بها.

سمعت أغنية «صباح ومسا» على مدى ثلاث ساعات متتالية، فبحَّ صوت فيروز.

قتلت بعوضة بضربة كفٍّ واحدة.

ابتسمت.

قدمت لنفسي هدية متواضعة.

وافقت، مكرهة، على الذهاب إلى عشاء أرستقراطي، لم يسبق أن رأيتهم إلا فرادى، لنر ماذا ستكون نتيجة مشاهدتهم، في جماعات.

قبلت، مُجبرة، التخلي عن الجينز واستبداله بفستان أسود أنيق.

طمأنت «نون» بأنني لن أنتحر، رامية نفسي من فوق سطح كعبي العالي، اللهم إلا إذا انزلقت.

استجاب حوض «الجيرانيوم» لطلبي وتفتحت فيه زهرة واحدة.

أهملت موعدين، من دون تقديم اعتذار.

حدث الآن، أن صبغت وجهي بالألوان.

حدث الآن، أن اختفت الهالات السوداء من تحت عيني.

حدث الآن، أنني جاهزة للخروج، وهناك احتمال كبير، أن أخطو خطوة باتجاه الخارج، ثم خطوتين رجوعًا لأندسَّ في فراشي، قبل حلول المساء.

حدث بالأمس

لم يكن العشاء سيئًا إلى هذا الحدِّ.

جاء المجتمع المخملي، بسياراته الفارهة، وألماسه المشعِّ، ليساهم بمبالغ «بسيطة» في عشاء يعود ريعه إلى إحدى المؤسسات الوطنية.

وجود صديقتي وصديقها، لم يخفف من حدَّة ارتباكي. تكفَّل مشروب روسي بالأمر.

مضحكة نظرات النساء التي تقتفي بعضها أثر بعض، وتمحص أدق التفاصيل، ما ترتديه هذه ومجوهرات تلك.

والعشاء كان من شغل أيديهن، عفوًا، من يد طباخاتهن. محشي ملفوف، محشي ورق عنب، محشي مصاري...

نظرات الرجال مختلفة، تلاحق «السيليكون» المتوافر بكثرة هنا.

نلت نصيبي من نظرات التقدير تلك، على الرغم من افتقاري الشديد لمادة «السيليكون»، وفرحت في سرِّي.

غـدًا

راكمت حتى الآن ثلاثة نصوص، أتردد في نشرها، وأفكر في سؤال صديق «سايبري» عن الفضفضة في المدونات.

كتبت رسالة أرد فيها على «نون»، الذي زعل عندما علم بأمر نشري لرسالته، لكن «نون» قلبه طيب، وخبأ زعله في اتهامي بالبحث عن الشهرة على ظهره، فضحكنا طويلًا..

زعل حاسوبي هو الآخر، أراد مرافقتي، لكن رحلتي ستطول هذه المرَّة قليلًا، وهناك مَن يحتاجه أكثر مني هنا.

رحلتي، هذه المرَّة، عبارة عن هروب جديد، إذ أترك الجبهات مشتعلة وأرفض مواجهة مصيري، أهرب بكل ما أوتيت من جبن. لكن قلبي يقول لي: إن اللجوء إليه هي النارنجة صديقة العمر والملاك الحارس سيجعلني قادرة على المواجهة من جديد، سيجعلني أشحن بطاريتي، وأتخلص من التردد المرضيِّ الذي أعيش فيه.

يؤنبني ضميري قليلًا، وأخاف أن أكون ضيفة ثقيلة لا تحمل في حقيبتها سوى طاقتها السلبية لا غير.

التقيتها آخر مرة في بيروت منذ سنتين، زياراتها خاطفة، ترحل قبل أن نفرغ جعبتينا من الكلام.

راكمت الأمور كعادتي حتى اليوم الأخير، ورحت منذ الصباح الباكر أقفز كالمجنونة من مكان إلى آخر. تمكنت، على الرغم من زحمة سير خانقة، من إنجاز أهم الأشياء، حتى إنني ودَّعت أمي التي قالت إنها ستشتاق إليَّ، يا سلام، صارت تقول الكلام الحنون.

حدثتني سيارتي، في طريق عودتي إلى بيروت، عن ساعة التخلِّي (ساعة الموت)، بعد أن نجونا من مصير بشع.

أغراني منظر الفاكهة المرصوصة بعناية عند بائع الخضر، فانعطفت فجأة من دون تفكير إلى الجهة الأخرى من الطريق التي بدت خالية، قبل أن تمر سيارة سوداء كبيرة كالطلقة عن يميننا. لا يزال أزيز فراملها يطن في أذني.

سائق قدير لا شك، وأنا الغلطانة. نزلت واعتذرت وقبلت صفة الحمارة بطيبة خاطر. في لحظات كهذه لا يستوعب الإنسان الحدث بسرعة، بل يتصرف بشكل غير واعٍ، لكن ما إن مرت الدقائق الأولى، وانصرف الرجل مزمجرًا، حتى بدأت أرتجف كمن أصابتها الحُمى، أعطاني بائع الخضر ماء، فرشفته من دون تفكير بمصدره، وخصوصًا أنني شديدة الحذر في مسألة مياه الشرب المصابة بدرجات عالية من التلوث، الذي أدى مؤخرًا إلى ظهور بضع حالات من «التيفوئيد»، وطبعًا تكتم المعنيون على الخبر.

هدأت، وصلت إلى بيروت، ترددت طويلًا أمام مدخل مستشفى الجامعة الأمريكية، قسم سرطان الأطفال.

وعدت الطبيب الذي التقيته في تلك السهرة بزيارة الطفل الحلو قبل سفري. قال إن زيارتي ستسعده، وإن حالته متردية.

استندت على عمود الكهرباء في الشارع، أدخل؟ لا أدخل، أدخل؟ لا أدخل. لست مصفحة ما فيه الكفاية لمواجهة موقف كهذا، «لماذا الأطفال يا الله، فالكبار عاشوا بما فيه الكفاية!»

عدت أدراجي، ينتظرني أبو محمد، أستلم كتاب علاء، الذي مرَّ على الرقابة التي مزقت جزءًا من المغلف كما يبدو. لا خصوصية لأحد في هذا البلد، شو هيدا يا عالم!

بقي همُّ الحقيبة الآن، أففففف. أسوأ شيء في السفر، توضيب الحقيبة.

تذكرت ذلك الذي كان يسافر من دون حقائب، ماذا لو أفعل ذلك؟ لا، سيكون الأمر مكلفًا هذه الأيام.

المشكلة أنني غالبًا ما أحمل كمًّا كبيرًا من الثياب التي لا أستعملها، ولم أتعلم.

سأترك الحقيبة حتى الغد.

يا ريت هلّق بكرة!

متل اجري

لا لا، لن أتوقف عن الكتابة، فصديقتي هنا مدججة بترسانة تكنولوجية مدهشة، وقد خصتني اليوم فقط بكمبيوتر محمول متصل بالإنترنت ليل نهار. صحيح أنني لا أجلس أمامه ساعات طوال كما يحدث في بيروت، لكن التواصل متاح في كل لحظة، وهذا أمر يدعو إلى الاطمئنان.

لست «إيميلدا ماركوس»، ولا أدَّعي هواية تجميع الأحذية، لكنني اكتشفت، في معرض توضيب حقيبتي، أنني أملك كثيرًا جدًّا منها، المشكلة أن معظمها من ذوات الكعب العالي الذي لا أنتعله، المشكلة أنني لا أعرف لماذا أشتريها وأتركها تقبع جديدة في الخزانة التي بدأت تضيق بها ذرعًا، المشكلة أنني، وعلى الرغم من كثرتها، أتعلَّق دائمًا بحذاء رياضي أو مسطح الكعب لا أنفك ألبسه حتى يهترئ تمامًا، كهذا الذي أتيت به إلى هنا. كان لونه الأساسي أزرق، ثم حال لونه، لكثرة استخدامه، إلى الأزرق الباهت، واليوم أخصص مكافأة لمن يستطيع تحديد لونه. على الرغم من ذلك لا أزال أنتعله.

لا أدري من أين ورثت هذا الوفاء النادر للأحذية التي لا كعب لها.

قد يفكر بعضكم بخبث: وماذا عن الرائحة النفاذة؟ المشكلة ألا رائحة لحذائي، لا رائحة لقدميَّ صيفًا وشتاءً.

تذكرت «عطر» رواية «باتريك زوسكيند»، عشقت بطلها، لأني مثله لا رائحة لي.

لا رائحة لي، لكن أنفي حساس كـ«أبي كلبشة» (الشرطي في المسلسل الكوميدي «صح النوم السوري») الذي لا يخطئ أنفه تمييز الروائح.

للمدن، أيضًا، رائحة. رائحة باريس قاتلة، تسربت رائحتها إلى أنفي بمجرد هبوط الطائرة.

رائحة باريس، بالنسبة إليَّ، هي رائحة المترو، رائحة خاصة تختلط فيها أعراق البشر والفئران، رائحة العفونة وبول العابرين أو المقيمين في دهاليز هذه الأمكنة، روائح لامبالاة الناس ومحاولاتهم لمحو آثار عرقهم بالعطور الراقية.

أعود إليها اليوم بلامبالاة تامة، لا شيء فيها يعنيني، عدا من أتيت لرؤيتهم.

ظننت، بل توهمت، بعد هذه السنوات الطوال التي أمضيتها فيها، أنني لن أغادرها أبدًا، بل سأحيا وأموت فيها، ظننتها المكان الذي يشعرني بالأمان والطمأنينة، ولا يتوقف عن مساعدتي في الانفتاح على العالم، المكان الذي سمح لي أن أعيش بكامل حريتي الشخصية والفكرية، من دون رقيب أو جلاد.

لكنني ولسبب مجنون تركتها من دون أسف، وها أنا الآن أزورها، يرافقني هذا الشعور السطحي بأني لا أحتاجها وأظنها تبادلني الإحساس ذاته.

أين ذهب حب المكان الذي أعتقني؟ من غير العدل أن يمحى شعوري تجاهها ويتحول إلى لا شيء.

غريبة أنا في هذه المدينة، غريبة في كل المدن.

لن أواجه، هنا على الأقل، نظرات ساخرة تشير نحو حذائي المهترئ، لن يحاسبني أحد على كيلو مترات أذرعها سيرًا على الأقدام، ممتطية حذاء لا لون له أو رائحة، تمامًا، «متل اجري».

volver

نستيقظ عند الثامنة، الطقس غائم يشي بشتوة لا أحد يعرف توقيتها. عادة صباحية جديدة؛ فنجان القهوة وسيجارة الصباح الأولى، لكن على شباك المطبخ، نصفي الأعلى خارجه ونصفي الأسفل يسندني في الداخل.

لا، لا أتذمر، ممنوع التدخين في بيت صديقتي نارنجة، وبالتالي انخفض عدد السجائر التي كنت أستهلكها يوميًّا بشكل ملفت.

التاسعة والنصف صباحًا، هل نذهب إلى السينما بعد الظهر؟

تقول: «بإمكاننا الذهاب الآن».

أعشق أفلام «ألمودوفار»، وها هو فيلمه الجديد ينتظرنا منذ أيام في صالة العرض القريبة.

يبدأ العرض في العاشرة والنصف صباحًا، صرنا كالممسوسات، نجهز أنفسنا للخروج بالتي هي أسرع.

ظننت أننا سنكون بمفردنا في الصالة، من هذا الفاضي من الأشغال الذي سيأتي (قبل الضو) إلى السينما؟

لكن الوضع كان مختلفًا، صف طويل من الرواد الصباحيين، انتظرنا واحتملنا البرد عشر دقائق، راودتني فيها نفسي على التصرف كعربية أصيلة لا تحترم مفهوم الوقوف في الصف، لكني لم أكن مستعدة إلى سماع ما لا يعجبني.

ندخل أخيرًا. تُطفأ الأنوار، ونبحر في عالم هذا المبدع الحساس.

البكاء الذي يجرني إليه في أفلامه يختلف كثيرًا عن البكاء في الحياة، أرمق صديقتي بطرف عيني، فأجدها تبكي هي الأخرى ويتناهى إلى سمعي بعض النحيب الخافت لرواد يجلسون خلفنا.

المشهد الأول: سكان قرية ينظفون قبور موتاهم.

لن أتحدث عن الفيلم، أتذكر «نون» الآن، عندما كنا نشاهد فيلم «دوج ڤيل» في البيت، أحسست بجفنيَّ يطبقان قبل عشر دقائق من نهاية الفيلم فدخلت إلى سريري، معلنة أنني سأتابع ما تبقى من الفيلم، يوم غد.

فتحت عيني بالكاد حين دخل «نون» غرفة النوم صاخبًا بعد ربع ساعة وبادرني: «أيعجبك ما حدث؟ لقد قامت بقتلهم جميعًا في نهاية الفيلم».

أظنني كنت مستعدة لجولة عراك حامية لحظتها، لولا إرهاقي الشديد.

خارق هو «ألمودوفار»، ينتزعك من حزنك في اللحظة التي تشعر فيها أن الدمعة أوشكت على الانطلاق خارج مجرى العين، ويجعلك تطلق ضحكة مفاجئة، تدوي في صدرك بقوة قبل أن تؤرجحها حبالك الصوتية.

عنوان الفيلم «ڤولڤر»، وينصح به بعنف شديد.

شكرًا بدرو.

كل شيء مباح

لم أتحمس للبقاء كثيرًا، ولا رغبت في العودة.

أستطيع القول بأن إقامتي كانت ممتعة ومفيدة على أكثر من مستوى شخصي.

لقد تمكنت من اتخاذ مجموعة من القرارات المهمة، أشعر أنني صرت شبه جاهزة لتنفيذها، ومنها:

* أن أكون أنا.

* أن أهتم بنفسي فقط، على الأقل فترة الأشهر الستة المقبلة.

* بناء حديقة سرية خاصة بي، أدفن فيها أموري الشخصية.

اعتقدت، لوهلة، أن مدونتي هي هذه الحديقة، قبل أن أكتشف أن «نون» اقتحمها، قرأها من ألفها إلى يائها في غيابي، ثم أصيب بنوبة غيرة قاتلة، عندما قرأ أحد النصوص.

أنا الآن في قمة نرفزتي، تعود بي الذاكرة إلى البيت الصغير المتواضع، الذي كبرت ونشأت فيه. كان صغيرًا لدرجة لا يحتمل الأسرار معها.

كنت أحلم حينها بامتلاك دُرج صغير، أضع فيه أشيائي الصغيرة وأقفل عليها بمفتاح لم أحصل عليه يومًا.

على الرغم من صغر البيت، كانت هناك سماعتا هاتف: واحدة في غرفة النوم اليتيمة، وأخرى في غرفة الجلوس. كنت أعرف أن والدي يتنصت على معظم مكالماتي التي كنت أجريها أيام مراهقتي، في ساعة قيلولته، علمًا بأنه لم يكن يعمل لصالح المخابرات، ولا أنا كنت العدو!

نصحته مرَّة بطريقة خاصة، أن يرفع السماعة الأخرى بهدوء شديد، كي لا أنتبه لفعلته، فابتسم.

اجتاحنا جميعًا. يريد أن يعرف الشاردة والواردة دائمًا، وكان الكذب من سابع المستحيلات، فتعلَّمت، على الرغم من ذلك، أن أصدِّق كذباتي، فتخرج مقنعة مائة في المائة.

لا أنسى ذلك اليوم الذي استلم فيه نيابة عني رسالة بعث بها صديقي. فتحها، قرأ ما لم يعجب خاطره فاتصل بالصبي و«شرشحه» على صنوبر بيروت. عند عودتي إلى المنزل، نلت نصيبي من التقريع، مصحوبًا بقرار حازم اتخذه أيضًا نيابة عني، يمنعني من التعامل مع هذا الولد الفلتان.

لم أجرؤ، من رُعبي، على اتهامه بالتجسس عليَّ، لم أستطع أن أقول له إنه ليس من حقِّه التدخل فيما لا يعنيه.

في لحظة لم أعد أحتمل كل ذلك، فهربت من البيت مرَّة، وأعادني ابن عمي عندما اكتشفوا المكان الذي لجأت إليه بعد ثلاثة أيام. لم أكن أريد العودة، لكن ابن عمي تعهد بأنه لن يسمح له بضربي، فعدت مكسورة.

يبدو أنني اعتدت في لاوعيي على هذا النمط من العيش، حتى بعدما سافرت وعشت استقلاليتي التامة. لم أنعم يومًا بأشياء سرية أو بحياة خاصة.

كل شيء عامٌّ، كل شيء مباح.

أصل في هذه اللحظات إلى أقصى درجات «النرفزة».

وقفت منذ قليل أمام رفوف مكتبتي التي تم ترتيبها في غيابي. لا أعرف لماذا أحسست بأنها تنقص كتابًا، فسألت أحد نزلاء البيت عما إذا كان قد قرأ كتاب «العطر» لـ«باتريك زوسكيند»، وقبل أن يجيب، أعلن «نون» أنه قد أعاره لأحد زوارنا اليوم.

صدقت حاسة شمِّي، فجنَّ جنوني، ورحت أزعق بأعلى صوتي: «هذه مكتبتي، هذا كتابي ولقد سمحت لنفسك بتسليف كتابي من دون علمي!».

هناك من امتدَّت يده صباح اليوم لحقيبة يدي باحثًا عن أوراق مهمة جلبتها معي من باريس، وأخفاها حرصًا عليَّ كما يقول. كنت قد فتحت الحقيبة بثقة، لأخفي الوثائق في مكان أمين، فلم أجدها! شعرت بالبرودة تسري في جسمي، أتكون قد وقعت مني في المطار؟ أين هي؟ أنا متأكدة أني وضعتها في الحقيبة. اكتشفت الفعلة وجن جنوني.

لا ألقي باللوم على أحد، لأنني المسؤولة الوحيدة عن اقتحام الآخرين لأغراضي.

يصعب على الآخرين الذين اعتادوا تساهلي في هذه الأمور، تغيير نمط سلوكهم في يوم واحد، سيحتاجون إلى أكثر من نوبة جنون ليعوا مدى جديتي، مدى التغير الذي أصابني.

أنا الآن في قمة «النرفزة»، ولا أريد شيئًا سوى أن يحلُّوا عني، انتهى عصر المباح.

ألِـف

ونسيت كيف تمشي بظهر مستقيم؟ رات، أيهما أهمُّ: الخطوة أم الطريق؟

فلان الفلاني

ربما يتحتم عليَّ الذهاب لرؤيتها من جديد، لو لا أني أدين لها بقليل من المال، لا بأس، لن يضعها المبلغ على لائحة أثرياء العالم.

سينتهي الأمر بي عندها، وهي التي تعرف كثيرًا عني، تعرف ما لا أعرفه عن نفسي.

ضجيج كثير هنا، تحوَّل المنزل، على الرغم مني، إلى أوتيل صحِّ النوم.

أفتح دفتر لائحة الأصدقاء، إلى أين أذهب؟

لا حلَّ آخر سواها، فهي الوحيدة القادرة على مساعدتي، ولهذا أيضًا ثمنه المادي، والمعنوي.

ضجيج كثير هنا، سينفجر رأسي، وفي هذه المدينة القذرة لا أثق بأحد سواها.

لا أعرف عنها كثيرًا، لكنني أثق بها، على الرغم من انقطاعي عن زيارتها هكذا من دون إحم ولا دستور منذ بداية العام.

تعد زيارة المحلل النفسي في الغرب ضربًا من ضروب الترف، بينما لا تزال النظرة إليه في هذا العالم المتخلف مشوبة بالحذر.

أذكر تلك السيدة التي نعتت المحلل النفسي بالحكيم الحمار؛ لأنه لا يفعل شيئًا، يسأل بضعة أسئلة، ينتظر منها أن تتكلم، ولا يصف دواء.

حاولت أن أشرح لها الفارق بين «الطبيب النفسي» و«المحلل النفسي» و«المعالج النفسي»، ولسرعان ما اكتشفت أنها مضيعة للوقت.

أعترف لنفسي الآن بالتحسن الكبير الذي طرأ على حياتي إثر مداومتي على زيارة المحلل النفسي في أحد أحياء العاصمة الفرنسية. ثابرت على العمل معه خمس سنوات، يشكل مجموع ما دفعته له ثروة صغيرة، لكن الغطس في الأعماق كان له مردود إيجابي، تعرفت على حقيقة كثير من جراحي، وتعلمت أن هذا النوع من الجراح لا يلتئم، وأن التعايش معه يصبح ممكنًا، طالما تمَّ التعرف على حقيقتها.

اختفيت فجأة، طاردني المحلل قليلًا، تهربت منه، وآخر رسالة تلقيتها يقول فيها بأنه ليس من حقي لعب دور الميت بهذه البساطة، لكنني متُّ.

عشت موتي بهدوء، من دون مشاكل، براحة مطلقة، تمكنت حتى من التعامل مع أزماتي النفسية برويَّة وتعقل.

لكن أزمة جديدة طفت على السطح منذ أربع سنوات، وجه آخر من وجوهي البشعة بدأ ينغِّص عيشي.

ماذا حدث منذ أربع سنوات؟ عدت إلى حضن الشيطان المسمَّى بيروت.

هربت أصلًا من هذا المكان وما أعادني إليه سوى أوهام مهنية، ذهبت اليوم أدراج الرياح.

فتشت له عن بديل هنا، لا يمكن الوثوق بمهنية أي من كان في هذا المجال الجديد عليهم.

عثرت عليها، عاملتها في البداية بفوقية العارف بأصول المهنة، ولكنني بفضلها تمكنت من بناء علاقة لم تكن موجودة أصلًا، مع أمي، علاقة خلت مع الوقت من شعوري المتواصل بالذنب نحوها.

ولسرعان ما فتحت ملفات مغلقة مستجدَّة، نحفر معًا في مجاهل اللاوعي، ننكأ جراحًا، نداويها، وأتعايش مع جراحي المستجدة كأحسن ما يكون.

يضحكني زياد الرحباني حين يصف النفس البشرية بالخسة، «نفسية بقلب نفسية بقلب نفسية».

وصلنا في أول السنة إلى مكان شديد الحساسية، فخفت واختفيت، لكنها لم تسأل عني، ولم تطالب حتى بمالها.

لكنها اليوم ملاذي الأخير، أتردد، أجد حججًا كثيرة تمنعني من معاودة الاتصال بها، أتصل بها وأذهب إليها لأقول ماذا؟

إن البقرة الحلوب توقفت عن العمل بمحض إرادتها، لأن ضرعها قد جفَّ؟

إن البقرة الحلوب شبعت من الابتزاز المادي والمعنوي، وإنها كانت تعطي كل ما أعطت فقط ليتركوها بسلام؟

إنه لم يعد بوسعي أن أكون رجلًا، وإنني انتحلت هذه الصفة منذ اليوم الذي اكتشفت فيه أن أخي يملك عضوًا لا أملكه؟

إنني لم أعد أريد إثبات أنني رجل البيت لأهلي الذين هلَّلوا عندما جاء الصبي؟

إنني أعمل، منذ سن السابعة عشرة، وأعول نفسي، ولم أسمح يومًا لرجل بالإنفاق عليَّ؟

إنني كنت أعرف دائمًا كيف أعطي ولا آخذ؛ لأنني أظن أنني لا أستحق أن آخذ؟

إنني لا أعرف كيف أتقبل المديح وأعتبره نوعًا من المجاملة؟

إن «رات» الصغيرة قررت، بكثير من الألم، أن تترك مكانها للمرأة الكبيرة لتعيش عمرها الحقيقي؟

إن القيود والأغلال أصبحت جزءًا من جلدها ولا تجد سبيلًا أقل إيلامًا للتخلص منها؟

إن المرأة الكبيرة أصيبت بنوبتي عنف حادتين لم يسبق لها أن عاشتهما سابقًا؟

إن المرأة الكبيرة تتحطم وتتناثر ولا ترى ضوءًا قريبًا في الأفق؟

إن أكتاف المرأة الكبيرة انحنت لدرجة سهلت معها صعود كل الآخرين عليها ونسيت كيف تمشي بظهر مستقيم؟

إن المرأة الكبيرة تقوم بمجهود خرافي كي لا تقع في دوامة الحبوب المهدئة للأعصاب؟

إن المرأة الكبيرة لا تعرف أين أخطأت وبودها تدارك الخطأ؟

إن المرأة الكبيرة تخاف من بدء حياة جديدة تكون فيها وحيدة؟

سأقول لها بكل بساطة: إن المرأة الكبيرة تريد الانطلاق وتبحث عمن يعلمها المشي وحيدة من جديد.

ما العمل؟

> منتهى الشجاعة أن تعودي إليها، لأن من يفتح ما يسمونه بـ«صندوق باندورا» ولا يفرغ تمامًا من مواجهة محتوياته، أسوأ حالًا ممن لم يفتحه أصلًا.
>
> نارنجة

يا للهول، في لحظة مظلمة اتصلت بها، سأراها غدًا، في العاشرة صباحًا.

أحسست بارتياح شديد فور إغلاق الخط، إحساس سرعان ما تلاشى.

بدأت الدودة إياها تنخر في رأسي: ها! ذهابك مضيعة للوقت والمال، هذا النوع من البشر يعرف كيف يتلاعب بمشاعر الناس، هل تعتقدين أنك ستصلين إلى الحل من الجلسة الأولى؟ تحتاجين إلى شهرين على الأقل، ثم إنك انقطعت عن زيارتها والآن يتحتم عليها مراجعة ملفك، هذا إذا كانت تملك الوقت لذلك... لا لن تراجع ملفك؛ لأنها تظن أنك أتيت لتسديد ما عليك من ديون، وأنت لست مستعدة لذلك الآن، ستصاب بخيبة أمل وتعاملك بلامبالاة شديدة...

كفى، كفى... ليس بإمكاني التراجع الآن، ولم أعد أرغب في الذهاب.

سأدق الباب في الوقت المحدد، سأنتظر لحظات، أظنها ستفتح بوجه

باسم نوعًا ما، وسأكون أمام خيارين: الدخول إلى غرفة الحوار مباشرة أو إلى غرفة الانتظار، حيث سأحاول استراق السمع لأفشل في ذلك كالعادة.

سألبس نظارتي الشمسية طبعًا، أخاف أن تفضح عيوني ما في روحي، سأصمت وأتناول حبة من السكاكر التي أحبها في الطبق الموضوع أمامي، ستقول «وي رات» بلكنتها الفرنسية اللطيفة، سأشير إلى فمي علامة عدم القدرة على النطق والمضغ في آن، سأتمسك بصمتي وأستكشف الغرفة ولوحاتها وكتبها، لكنها لن تيأس وستعيد المحاولة هذه المرة بخبث، ستقول «أممم»، سأبتسم وأقول بأني جئت للاطمئنان على صحتها وسير عملها، ستبتسم بدورها وربما تسألني عن صحتي وعملي، هنا سأتناول ورقة «كلينكس» جاهزة خصيصًا لتلقف دموعي، وخصوصًا أنها بسؤالها تكون قد أصابتني في الصميم. سأجيبها: «على حطة إيدك منذ ستة أشهر».

سأحاول ألا أبكي، عيب، كل مرة أبكي أكثر مما أتكلم، وفي المرة الأخيرة بدا التأثر واضحًا على وجهها، نهرتها، أعلمتها أنني أدفع لأبكي على راحتي، فابتسمنا.

إذا وافقت على متابعة العمل على حالتي، سأعلمها أنه ليس بإمكاني فتح كل الملفات العالقة، بل سأعلن حالة طوارئ لمعالجة المسائل المستعجلة: العزلة، والاكتئاب، والعمل.

سأسأل: ما العمل؟ وسأجيب على طريقة زياد الرحباني: العمى لـقلبي...

عصفور

معلش.. ما زال موضوعك هذا يثيرني قليلًا..
ما العلاقة التي تجمع الجلاد بالضحية؟ ثم أؤمن
بأن من يأخذ وضعية الفريسة لا بد أن يفترس،
ثم هل يمكنني الاختلاف معك.. أعتقد ممكن!
لا عشق يجمع بين قاتل وقتيل.. بينهما، فقط،
بحر من دماء..
قولي لي امشي بقه.

فلان الفلاني

إحم...

لقد ذهبتْ، لم تصح تخيلاتي، عدا الابتسامة المنضبطة التي استقبلتني بها.

ابتسامة الواثق من عودتي ولو بعد حين.

كل الإكسسوارات جاهزة، نظارتي الشمسية، علبة المحارم الورقية، صحن السكاكر.. لكنها بدلت النوع، وهذا لا أحبه، لأنه يليق بالأطفال، وأنا لست طفلة، لست طفلة، هل تفهمين؟

قلت:

«لم أكن أرغب في المجيء.»

«ولماذا عذبت نفسك وأتيت إذن؟»

صمت.

«إيه رات!»

حسنًا، أتيت.. أتيت.. أتيت لأنني بي حاجة إلى مساعدة، ولأنني بحسب رأي الأكثرية ٩٩ في المائة فاصل ٩٩ من المائة صوتوا أنني منهارة وأعاني من اكتئاب شديد، لا تزوير في التصويت صدقيني، فهم يحبونني ويريدون لي الخير على الرغم من كل الشرِّ اللاواعي الذي يمارسونه في حقي، أقصد، الذي أتيح لهم ممارسته في حقي.

أتيت لأنه لا أصدقاء لي في هذه المدينة، ولأن الذين يعتبرون أنفسهم كذلك ينجحون دائمًا في تحميلي بمزيد من عُقد الذنب تجاه نفسي، وأتيت لأني لا أريد الانتحار، ولأني أريد البحث عن مخرج لا أتمكن من إيجاده بمفردي، ولأني كنت شديدة العنف تجاه نفسي والآخرين ولأني تعبت، تعبت جدًّا.

تركتني أبكي على راحتي، خمنت أن سعر الجلسة يتضمن ثمن المحارم الورقية، نظرت إلى سلة المهملات بقربي، فارغة من كل دمع، سأفتتح نادي البكاء وسأمنح عضويته للمنتسبات مجانًا.

ثم أصبت بـ«إسهال شفوي» (أحب هذا التعبير الفرنسي)، تكلمت نصف ساعة من دون توقف، لا أذكر ما قلته، لكنها، وفي ربع الساعة الأخير، راجعت معي تاريخ جلساتنا السابقة (حضَّرت الدرس جيدًا هذه المحتالة)، واكتشفت أنني بدأت اليوم من حيث توقفت منذ ستة أشهر.

قالت:

«افتحي راحة يدك، ضعيها على عنقك واضغطي جيدًا، بماذا تشعرين؟»

«أشعر بصعوبة في التنفس.»

«ما الذي يمنعك من نزع يدك عن عنقك؟»

أبعد يدي بهدوء، «لا شيء» بل أشياء كثيرة.

أخبرتها عن العصفور الذي ولد في القفص وقررت إطلاق سراحه ذات يوم ليستعيد حريته، أية حرية؟ فهو لم يعرف طعمها يومًا، وبالتالي لن يعرف كيف يدبر أموره بسهولة في فضاء الصقور الواسع، أخبرتها أنني أطلقته في الصباح لأجده عند باب القفص مساءً.

فكرت في العلاقة المتينة التي تجمع الجلاد بالضحية، عن العشق الذي يستعر بين القاتل والقتيل.

هل تكون خالتي محقة و«فرويد» على خطأ؟

حدث ذلك في عام ٩٧، حين ذهبنا إلى أقاصي الأرض لدفنه، حيث غطى الثلج المكان.

كنت أعيش في إيطاليا، وقد اعتاد أن يكلمني صباح كل سبت قائلًا: «أيقظتك يا ابنتي؟» وكنت دومًا أكذب وأقول إنني صاحية.

استغربت سماعه عند اتصاله في المرَّة الأخيرة، وكان يوم أربعاء، خطر ببالي أنه سينقل لي، من الطرف الآخر من الخط، خبرًا سيئًا عن موت أحد أفراد العائلة.. فسألته بلهفة:

«خيرًا؟!»

«اشتقت إليك يا ابنتي ولم أقوَ على انتظار يوم السبت لسماع صوتك، فقلت لأطمئن اليوم عليك..»

قلت في نفسي: لا بد أن في الأمر شيئًا مُلحًّا. طلبه الوحيد كان أن أنتبه لنفسي.

الثانية بعد منتصف الليل، هاتف يرن، لم أجفل، فالدنيا رمضان وكنت قد وصلت لتوي إلى البيت، لا بد أن حفنة من الأصدقاء ستقترح المرور عليَّ لنتسحر معًا، لكن الصوت جاء من بعيد:

«والدك في المستشفى في حالة خطرة.»

أسأل: «في أي ساعة توفِّي؟»

يسود ارتباك قصير، جملة مقتضبة، انتهى الأمر بعدها. أتصل بفريد، ندور بسيارته في أزقة القرية النائية عشرات المرات، صمت ثقيل، أفتش في السماء عن نجمة، عنه، لا أجد سوى خيالات متفرقة.

طائرة تحملني ودموعي إلى بيروت.

«أين هو؟ أريد أن أراه!»

«ترينه غدًا في الكنيسة.»

يمضي اليوم بثقل شديد، أمي لم تذرف دمعة واحدة! لماذا يأتي كل هذا الكم من البشر لممارسة نفاقهم الاجتماعي؟ كنت أفضل أن أُمضي بقية اليوم معه، فلديَّ كثير لأقوله له.

أدخل الكنيسة بخطى مترددة، أقترب منه، توقفت عن البكاء. أريد صورة أخيرة واضحة عنه لا يُعكر تدفق الدمع صفوها.

لم يتمكنوا من إغلاق عينيه تمامًا، بقيتا شبه مفتوحتين، ترسلان نظرات حانية أخيرة، لي ولي فقط. كم كان جميلًا يستحق ضمة وقبلة أخيرة، لم يسبق لي أن لمست ميتًا! ألمس يده وأجفل، لم تخطر ببالي إطلاقًا فكرة البرودة التي تعشش في الميت. ضممته على الرغم من ذلك، وطبعت على خديه عشرات القبلات، وددت الاستلقاء إلى جانبه.. لا يتسع المكان (التابوت) لنا نحن الاثنين؟ حسنٌ، سأستلقي فوقه وليأخذونا معًا، حرام أن يبقى وحيدًا. تعاجلني سيدة بحبة صفراء ونجلس لنحتفل برتبة دفن الموتى. زياد المجنون على يميني، صديق يختفي، ولكنه سرعان ما يظهر عند وقوعي في

مصيبة، يكره المراسم الدينية، لكنه على الرغم من ذلك، حدس بأن وجوده سيريحني ولم يخطئ في ذلك. يهمس فجأة في أذني بنكتة قاتلة، شعرت معها بموجة هستيرية من الضحك توشك على الانفجار في داخلي، دفنت بعدها رأسي في حضني، حتى انتهى مفعولها.

انتهى يومي في سرير واحد مع أمي التي تقول قبل أن تنام: «لا أعرف إذا كان اللازم أن أفرح أو أحزن! لا أعرف!».

نظرت إليها باستهجان، تحوَّل إلى نقمة عليها محوتها اليوم، وتحديدًا، قبل ساعة من الآن.

كان يعاملها بقسوة لا مثيل لها، ولم تدافع عن نفسها ولو مرَّة، يضطهدها، يشتمها، يحقرها ولا تقول له شيئًا.

اختارت موقع الضحية.

اليوم راجعت ما كتبته في نص السابق وتوقفت عند الضحية مطوَّلًا، ثم التمعت الفكرة في رأسي: «مَن قال إننا نرث فقط الجينات «الفسيولوجية» من أهلنا؟ لا بد من وجود جينات سيكولوجية تنتقل بدورها إلينا».

لقد ورثت، من دون وعي مني، موقع الضحية عن أمي، أنا واثقة من ذلك.

لكني لا أريد أن أكون هي، إذ لست امتدادًا لها، وأقاوم، منذ سنوات، أعباء هذا الامتداد.

لا لا، لا أريد ذلك لنفسي، أفضِّل أن أكون جلادًا، أو لا شيء.

شعرت بالتعب فجأة، فاستسلمت لقيلولة قصيرة.

انتبهت فجأة لوجود أبي الجالس في بيتنا، بيت أهلي، واستغربت أين كان

مختفيًا طوال تلك المدة، سألته بضعة أسئلة، فأجابني: «عندما تقرئين كتابي الذي أصدرته مؤخرًا ستعرفين كل شيء». استنكرت أن يكون الكل على علم بهذا الكتاب ما عداي، وبدأت معه مناوشاتنا المازحة، أهدده بإصدار كتاب أنا الأخرى، أقول فيه أشياء لا تقال في العلن عادة، وأؤكد له أنه لن يجد سبيلًا لقراءته، لأني سأصدره باسم مستعار وسيموت كمدًا لأن أشياء كثيرة ستفوته، ثم أضيف متصنعة الوعيد: «وبكرة بتشوف». يسخر مني بود ونضحك طويلًا.

استيقظت فجأة على قرع كعب الجارة الغليظة على السلالم، لعنتها بصوت مرتفع، حاولت النوم من جديد علني أمضي معه المزيد من الوقت من دون جدوى، فنهضت حاملة في قلبي هذا الشعور العظيم بالاشتياق، هذا الحنين القاتل لحُبي وجلادي الأول.

لو قصصت رؤياي على خالتي لقالت بأنه يحتاج إلى الصلاة لأن روحه مضطربة، ولسألتني عما إن كان قد أعطاني شيئًا أو لمسني، فلهذه الأمور، في قاموسها، تفسيرات مخيفة.

بينما ستزعم النظريات الفرويدية في تفسير الأحلام بأن عقلي الباطن، يأخذني إلى أماكن جديدة في علاقتي مع نفسي ومع من ارتضيت طائعة أن أكون ضحيته، ويبقى الخبر اليقين عند «ألف» يوم الاثنين.

حيث لا يقين إلا الشك.

فإنّ الحظّ شاء

الثامنة مساء، نسائم لطيفة ترسلها النافذة المفتوحة، تنعش جو غرفة الجلوس المتوتر بصمت.

سؤال يقض مضجعنا منذ فترة: انفصال أو مسافة حقيقية؟

ما الفرق؟ أليست المسافة بداية الانفصال؟

هدوء غير مشوب بالحذر.

خرجت من عيادة «ألف» مرتبكة قليلًا، قبلت اليوم حقيقة وجود الوقائع التي كنت أرفض مواجهتها وأدعي عدم وجودها. تلاشت حدة أزمة الضمير والشعور بالذنب اللذين خيما فوق سمائي الأسبوع الماضي.

على وشك اتخاذ قراري، تهدأ موجات التردد، لست خائفة، أحمل همًّا لكني لست خائفة.

مستعدة لخوض غمار المجهول من دون أي خريطة، لكني لست خائفة.

لطالما أطعت ما يمليه عليَّ قلبي وهذا القلب يملي عليَّ اليوم أمورًا مخيفة، لكني لست خائفة.

لا، أنا أكذب، خائفة قليلًا، لكنني سألحق قلبي، ولماذا سأغير عادتي الآن بعد كل هذا العمر؟

تستعد أم كلثوم للشدو بأغنية «نون» المفضلة: «الأطلال».

قد يستغرب البعض، لكني لم أستسغ سماعها يومًا، وفي كل مرة تشدو فيها، أسمعها في الخلفية، لم أجلس يومًا بهدف الاستماع واكتشاف أسرار هذه السيدة. أعرف أنها عظيمة، لكنها لم تدغدغ أحاسيسي مرة. في هذه اللحظة أستمع لها للمرة الأولى بجدية وتركيز، أكتشف أن كثيرًا من الجمال فاتني.

محاولة فاشلة من «نون» للغناء معها، قمعته سريعًا: «صحيح أن صوتك أهم بكثير من صوتها، لكن دعنا نستمع إليها وحدها هذه المرَّة». وافق مكتفيًا بأرجحة رأسه وإغماض عينيه..

يا فُؤادي لا تَسلْ أينَ الهوَى

كان صَرحًا مِن خَيالٍ فَهوَى

لحظات ويسود، لسبب مجهول، جو من الود والمزاح.

ن: إذا متُّ، بتحزني عليَّ؟

ر: مفترض انو إيه؟

ن: كم سيطول حدادك؟

ر: شوف، هو أبي حدِّيت عليه شهر!

ن: مفترض أهمُّ من بيِّك أنا، ولَّا لا؟

ر: مش كتير متأكدة!

أينَ في عَينَيكَ ذيَّاكَ البَريق

يسود الصمت مرة أخرى ثم..

ن: هل تملكين شكوكًا حول مدى حبي لك؟

ر: لم يراودني الشك لحظة.

ن: ولا مرة؟

ر: أبدًا!

ن: الآن تشكّين؟ كما أنا أشك؟ أنا شككت بك مرَّة واحدة في هذا العمر، عندما كنتِ في باريس.

صمت..

أعْطِني حُرِّيتي أطْلِق يَديَّ...

وإلامَ الأسْرُ والدُّنيا لديَّ

ن: ما في حدًا غنَّى أحلى من هالإنسانة!

ر: ...

ن: أريد أغنية الأطلال في لحظة دفني، وأريدها نسخة حفلة مش استوديو، وبتتفضلوا بتسمعوها للآخر!

ر: ٥٠ دقيقة؟! لا سأتصرف بها في المونتاج وألغي الإعادات فتصبح ثلاث دقائق، وتعرف أن لي سابقة في هذا الموضوع.

ضحك ثم صمت..

أَيُّــهــا الــسَّــاهِــرُ تَــغْــفــو

تَــذكُــرُ العَــهْــدَ وتَصْحــــو

ن: ولو! مَن الذي سيمنعك من النوم أكثر من مرة ليلًا؟

ر: يا نهار سعدي، يا ليل سعدي، سأعود لأنعم بنوم هانئ كالأطفال، ليالٍ كاملة بشكل متواصل!

ن: ولو! مَن سيُدلك كتفك اليُمنى قبل النوم؟

ر: أوكي، سأفتقد اليد التي تدلك كتفي، وستحتاج وقتًا للاعتياد على غيابها.

صمت..

فـــإذا أنْــكَــرَ خِـــلٌّ خِـلَّـه

وتلاقَـيـنـا لِـقـــاءَ الغُربـــاء...

ن: سيحدث لنا ذلك، ستكونين خارجة من مجمَّع «بيال» برفقة أحدهم وسأكون هناك، وسننظر بعضنا إلى بعض نظرة غرباء.. حدث لي مرة أن التقيت بإحداهن لقاء الغرباء بعد انفصالي السابق، لكن اليوم وفي هذا العمر، «رح اقبرو» (سأدفنه).

ضحك..

ن: سترحمين على الأيام التي كنتُ فيها هنا، سأسلط عليك جواسيس، وكلما خرجت مع أحدهم سأتدبر أمري لأكسر رجله بعد اللقاء.

ضحك..

ر: هذا اسمه ابتزاز عاطفي!

ن: لم أبتزك يومًا عاطفيًّا، إلا... أربع مرات في اليوم ☺ وهذا ليس ابتزازًا؛ الابتزاز يكون بشكل متواصل، من دون توقف، ليل نهار.

ضحك..

ر: كانت قصة جميلة، كانت تجربة رائعة.

ن: ما بحياتنا راح نرجع نقدر نعمل هيك علاقة ولو مع مين ما كان.

فــإذا أنْــكــرَ خِــلٌّ خِـلَّـه

وتلاقَـيـنـا لِـقــاءَ الـغُـربــاء

لا تَقُـلْ شِئنا.. فـإنَّ الحَظَّ شَـاء

فإن الحظ شاء، فإن الحظ وتلاقينا لقاء الغرباء شاااااااااااااااااااااااااء

يعني خلص

بحت بكل ما كان يجثم على قلبي ويمنعني من التنفس، كل شيء يوحي بأني لن أتراجع.

إنها مرة من المرات النادرة التي أتخذ فيها قرارًا بمفردي، من دون أي تأثيرات، نعم بعض التأثيرات الجانبية شعور نادر بالحرية والراحة.

لا يهم إذا كان القرار في محله، خطأ، صح، لا يهم. المهم أنني اتخذت قرارًا حقيقيًّا وسأدافع عنه حتى آخر دمعة من دموعي.

لن تنتهي المسألة في يومين، أعرف، أقلق عندما أقول لنفسي ربما يأتي هذا الشعور بالراحة لأن الضربة لا تزال ساخنة والألم يأتي لاحقًا.

زعلت «نينا» التي تطاردني منذ أيام، فاتها كثير من خيوط اللعبة، على الأقل نسختي أنا من الحكاية.

وجدت الشجاعة لأقول لها بهدوء إنني حريصة على صداقتنا لدرجة لا أريد لأحد هذه المرة أن يدلي بمشورته ونصائحه باسم الصداقة، راميًا كل إسقاطاته الشخصية على الموضوع.

هذه حياتي، وأنا وحدي أتحمل مسؤولية وتبعات هذا القرار.

قلت إني لست خائفة؟ هذا صحيح، لأنني بكل بساطة ميتة خوف، وبالعربي المشبرح المبتذل يصح فيَّ تعبير «عم بخرا وطمّ».

لم يصدقوا للوهلة الأولى مدى جديتي، اعتبروها نوبة وستمرُّ كغيرها.

مَن كان يتصور أنني سأتمكن من رسم الحدود، أنني سأحصل على مساحتي الخاصة المرتجاة، أنا نفسي لم أصدق.

يوم آخر يمرُّ بهدوء تامٍّ، غرفة الجلوس نفسها، جلسة حوار أخرى مبطنة بالضحك على أنفسنا.

هو يعرف أن هذه رغبته أيضًا، لكنه لا يزال يسبح في التردد.

كنا في سباق، نتنافس على كسر العلاقة، لكنني كنت أشجع، هو لا يستوعب حتى اللحظة ما جرى!

ن: سأسمعك اليوم أغنية لطالما ظننت أن من حقي وحدي إهداءها للنساء اللواتي مررن في حياتي، لكن اليوم أكتشف أن من حقك أن تهديني إياها.

ر: أتكون «للصبر حدود» مثلًا؟

ن: لم أشك يومًا في ذكائك، لكنها أغنية موجعة.. استعدي!

ر: لا. سأقفل أذني أو أغادر الغرفة.

ما تصَبَّرنِيش ما خَلاص.. أنا فاض بيَّ ومَلِّيت

صمت..

ر: أظن أنه حان وقت التخلص من أوهامك والبحث عن خلاصك، لا يفيد بشيء البكاء على النفس.

ن: أشعر برغبة في البكاء، أنا مضغوط وتعبت.

ر: أظن أنك ربما ستحتاج خلال هذه الفترة إلى معالج نفسي، لن تخسر شيئًا.

ن: معالج نفسي؟ أنا؟! بكِ شي بعقلاتك انت، أنا أحتاج إلى «فرويد» شخصيًّا!

ضحك.. صمت..

ولو ان الشُّوق مَوجود وحَنيني إليك مَوجود..

إنَّما للصبر حِدود يا حَبيبي

ن: اعترفي أنني تمكنت من جعلك تستمعين إلى أم كلثوم لأول مرة في حياتك بهذه المتعة من دون تذمر أو تأفف!

ر: أعترف الآن.

ن: لو كان لك خيار الأغنيات هذا المساء ماذا يكون؟

ر: «خلص»، هدوء نسبي.

صمت..

أكتر مِن مَرَّة عاتِبْتَك وادِّيتلَك وقت تِفكَّر

ن: لا! لا يمكن للأمور أن تنتهي بمثل هذه السهولة.

ر: ...

ن: لن يحبك أحد مثلما أحببتك!

ر: أنا على يقين.

ن: يقين الشك الخاص بك؟

ر: نعم، لا يقين إلا الشك!

أكبر مِن قوة حُبي مع كُل الماضي الغالي

ولَقتني وانا بَهواك، خَلَّصت الصَّبر معَاك...

ضَيَّعت سِنين في هَواك وهي غلطة ومش هتعود...

زوجـة أب، للصغيـرة

هي ليست ابنتي، ولم ينتابني الشعور بالأمومة تجاهها.

في الخامسة من عمرها، نادتني مرة «ماما» رافعة يديها نحوي.

حملتها، لاعبت خصلات شعرها الأشقر الملتوي بعضه على بعض، وضعَت رأسها على كتفي وإصبعها في فمها.

افترشنا حافة المسبح الشتوي، حاولت استحضار كلمات سهلة يفهمها الأطفال، أخبرتها أن للإنسان أُمًّا واحدة فقط لا غير، لا يجوز استبدالها بأي شكل من الأشكال، طلبت منها أن تناديني «رات»، وأوحيت لها بأننا سنمضي معًا أوقاتًا طويلة، وأن بإمكانها اعتباري صديقتها.

أصبحنا أصدقاء بسرعة خيالية، الأطفال لا يكذبون في عواطفهم، لا يعرفون معنى أعطني لأُعطيك، هم يحبون أو يكرهون، وعرفت بسرعة أيضًا أنها أحبتني.

هي الآن تقترب من سن الرشد!

أبحث في عينيها عن تلك الطفلة المذعورة في الفندق الإيطالي، عندما كنت أقرأ لها قصة حملَتها في حقيبتها، قبل النوم كالعادة.

لا تسعفني ذاكرتي على استرجاع تفاصيل الحكاية، باستثناء المقطع الذي بدأ فيه طفل القصة، يرتجف من الخوف عند سماعه خطوات مجهولة تنزل السلم وتتجه نحو غرفته. تشبثت بخاصرتي. أسألها إذا ما كانت خائفة لأتوقف عن القراءة، ترفض. ثوانٍ قليلة ونسمع بدورنا خطوات غريبة على السلم الخارجي للغرفة، ينظر بعضنا إلى بعض ببلاهة ودهشة، تصرخ: «لقد أتى إلى هنا، وصل إلى هنا، سيفرمنا!» أُغلق الكتاب بسرعة استعراضية، يحضن بعضنا بعضًا ونختبئ تحت غطاء السرير ومخداته، ثم نستسلم لنوبة ضحك لا يزال صداها يرن في أذني حتى الساعة.

لا يمكنني إحصاء عدد المرات التي حضنت ضحكاتنا، تحولت معها إلى طفلة ولا أنكر أنها علمتني كثيرًا.

في السابعة من عمرها حوَّلتها إلى لعبتي المفضلة؛ نخترع ألعابًا وطرقًا غريبة في الكلام لا يفهمها سوانا ونضحك. دائمًا نضحك.

هي الآن مشروع امرأة شبه مكتمل!

في المدرسة كانوا يطلبون منها مرة في السنة أن ترسم أفراد عائلتها، وكنت أسترق النظر إلى رسمها وأحزن لأنها لم ترسمني.

بكينا مرتين فقط:

الأولى: عندما عادت مرة من المدرسة مع رسم جديد لأفراد عائلتها، كنت هنا، رسمتني مع الآخرين.. أمها وأختها و«نون».

اتسعت ابتسامتي ثم سقطت دموعي فجأة، بكيت أكثر عندما التمعت دمعة على خدِّها.

الثانية: كانت عندما قرَّرَتْ شراء ألواح الشوكولاتة من مصروفها الخاص، وأهدتني نوعي المفضَّل.

كانت الدنيا حر في عز شهر آب (أغسطس)، طلبت منها وضع الألواح في الثلاجة لما بعد وجبة العَشاء. غبت عنها لحظات وعدت لأجدها غارقة في وحل الشوكولاتة الذائب بين يديها وعلى وجهها وثيابها، فانفعلت ورميت بكل الألواح في سلة المهملات.

بكَت واعتبرت أنها دفعت تحويشة عمرها لتهديني لوحي المفضَّل الفاخر، وها أنا أرميه في الزبالة، ثم بكيت أنا لأني عنَّفتها وتخلَّصت من ألواحها.

لن تكفي عشرات الصفحات لأدوِّن تاريخ هذه العلاقة التي رافقتُ فيها أسرارها الخجولة الصغيرة.. فرحها ببلوغها، بارتباكها بحبِّها الأول، بنجاحها المدرسي. وكنت شاهدة على خوفها من الطائرات، من الليل وأشباحه... من أهم سمات علاقتي بها: دفاعي المستميت عنها حتى عندما تكون على خطأ، دفاعها الشرس عني، حتى عندما يكون الذنب ذنبي.

انتهت العطلة الصيفية، ستعود إلى أمها غدًا. جافيتها هذه المرة على الرغم من أنه لا ذنب لها في شيء.

غَفَت بالأمس وإصبعها في فمها. ابتسمت. عرفت أنها لا تزال بين الطفولة والطفولة، لم أنخدع يومًا بطولها الفارع، لذا لن أقول لها بعد اليوم: «صِرتِ بطول الباب، متى تتخلين عن هذه العادة؟».

أتمت تجهيز حقيبتها، نَظَرت نحوي، لم تقل جملتها المعتادة قبل السفر: «إلى اللقاء قريبًا جدًّا»، بل اقتربت مِني واحتضنتني قائلة: «رات.. سأشتاق إليك أكثر مما تتصورين».

حدَّثها قلبها بِبُعد هذا اللقاء. اقترحت عليها قراءة حكاية قبل النوم للمرة الأخيرة، حكاية الفندق الإيطالي نفسها.. ما زلت أحتفظ بالكتاب، مع فارق بسيط: هذه المرَّة، أنا الصغيرة الخائفة، وأنا التي سأشتاق إلى حضورك البهيِّ يا قلبي.

مُر الكلام

لا أذكر من ذا الذي اشتكى وقتها من الحرارة التي يبثها «اللاب توب»؛ لأقول له يومها إننا «سنصاب بسرطان في الحضن!»

يسبق ذلك حروق من درجات مختلفة.

فكرت منذ أيام في كم الكلمات الجارحة، لا بل القاتلة، التي يسمعها الإنسان في حياته، بكم الكلمات المؤلمة التي يقولها أيضًا، عن قصد أو من دون قصد.

عندما تفوهت بجملة منذ حوالي عشر سنوات، قلتها بشكل تلقائي، لم أشعر بأنني جرحتها، ونمت بعمق من دون أزمة ضمير. عندما ذكَرَتْني صديقتي بها منذ أيام، صدمت لجهلي واستخفافي ووقاحتي. كانت في الخمسينيات من العمر حينها، خرجَت قلقة من عند الطبيب النسائي الذي أبلغها أنه قد يضطر إلى إجراء عملية استئصال لرحمها. ظنتني أهوِّن الأمر عليها عندما قلت: «وما حاجتك إليه، فأنت لم تفكري في الإنجاب قط، ولن تفكري الآن في ذلك». اليوم اعترفت لي بأن إجابتي قد جرحتها.

أعتذر لك من كل قلبي، فأنت تعرفين أنه لا صلة لي بالأرحام!

سأسافر هناك بضعة أيام أتذرع بتصفية بعض الأمور العالقة.. لست متأكدة من رغبتي في الذهاب ولا أتلهف لذلك. سأذهب إلى بيروت لأخرج منها، هذه المرَّة، بحُرِّ إرادتي وبشكل طبيعي لا هربًا من الحرب.

سأتلهى، حتى حدوث ذلك، بمراقبة العناكب الصغيرة وهي تنسج شِباكها في زوايا البيت وبعد ذلك سأمزق الشبكة كسادية صغيرة، وأستسلم لصمت القرية المهيب.

عشـرة أيـام فـي بيروت

اليوم الأول:

شعور بالغربة عن المدينة وما يحدث فيها.

اليوم الثاني:

يُحدثني الأصدقاء عن الأوضاع السياسية بأدق التفاصيل، فلا أفهم شيئًا، كالأطرش في الزفَّة، شعور بالغربة عن حياة الناس اليومية.

اليوم الثالث:

حفريات وأشغال وتحويل مسارات الطرق والمحاور الأساسية، توهان في متاهة المدينة، شعور بالغربة عن الأمكنة.

اليوم الرابع:

متابعة حثيثة لنشرات الأخبار على جميع المحطات المحلية، مسؤول يقترح تعليق جلسات التشاور للتشاور، شعور بالغربة عن لغة عقيمة.

اليوم الخامس:

اختلاط بالأصدقاء والناس والأمكنة، أغرم بلبنان واللبنانيين، دمار الحرب خلَّف رغبة في الحياة.

اليوم السادس:

رغبة في العودة والاستقرار في بيروت مُجددًا، «المشكل» أني لا أستطيع العيش في بلدي، بينما أصم أذني عن الأذى السياسي الذي يحدد مستقبل الفرد ومصيره.

اليوم السابع:

استرخاء تحت أشعة شمس افتقدتها كثيرًا.

اليوم الثامن:

أبيع سيارتي، يسبق ذلك حفلة وداع، أبوح بكلام لم أصرح لها به من قبل، يتبع ذلك حفلة بكاء لافتقادها.

اليوم التاسع:

تفكير في تأجيل العودة إلى باريس، ثم العدول عن ذلك؛ فالوضع السياسي يتأزم أكثر فأكثر.

اليوم العاشر:

أودع بيروت بحسرة كبيرة، ألتقط عن وجنتي بضع دموع، وتبقى في ذاكرتي وقلبي أجمل عشرة أيام من حياتي أمضيتها في هذا البلد.

العـرّافـة

لعن الله تلك العرّافة، لا بل لعن الله صغر عقلي.

لقد ظهرت بداية هذا العام على شاشة التلفزيون وأخذت تسرد، بثقة، مصائر البشر وتوقعات الأبراج.

قالت، عن برجي، إن هذه السنة ستكون سنتي، وإن الحظ والتوفيق سيحالفانني طوال العام.

سررت من الأمر واعتبرت أنه «ممكن تزبط معها»، أليست هي عالمة الفلك الأدرى بشؤون وتحركات النجوم والكواكب؟

وبالفعل كانت السنة سنتي.. إذ وفقت بشتى أنواع المصائب والويلات على أكثر من مستوى: مهني وعاطفي ووطني وعائلي... حالفني الحظ، بالتأكيد، لأني لم أصب بانهيار مدمر، لأن الانهيار أمام الكوارث ترف لا أسمح به لنفسي حاليًّا.

كدت ألامس القاع لكنني قاومت، لا أعرف كيف نجحت في تفادي الارتطام.

لكن شيئًا واحدًا رائعًا أصابني: اكتشاف التدوين والكتابة، وعندما أصابني شيء سيئ «أطلقت النار على مدونتي» في لحظة غضب. وافتتحت هذه، بعد مُضي فترة، لكن الأمر اختلف، لم تعد علاقتي بالتدوين وبأناس هذا العالم الافتراضي تشبه سابقتها، زال السحر والولع، صرت أكثر تكلفًا وتخلفًا.. لماذا أواصل التدوين من جديد كي لا ينقطع حبل الوصال بيني وبين متعة اكتشفتها في يوم ما؟ أحاول استرجاعها، علَّ العطار يصلح، ولو مرة، ما أفسده الدهر.

رعب في التاكسي

احتمال أضيف فئة سائقي التاكسيات للبلاك ليست بتاعتي اللي بتضم حاليًا الحلاقين وضباط الشرطة وزملاء المهنة.

سولو

لا أعرف كيف أصفه، ربما كان مريضًا نفسيًّا، لا يمكنه أن يكون شيئًا آخر.

كان هو وسيارة أجرته من نصيبي عند خروجي من مطار «شارل ديغول». صغر حجمه دفعني إلى مساعدته في حمل الحقيبة الثقيلة الآتية من بلاد عديدة الطوائف، غير أنه رفض، وكادت حقيبتي تسقط عليه، فساعدته رغم أنفه. أعطيته العنوان وانطلق في أسوأ توصيلة صادفتني في حياتي. شرع، بعد خمس دقائق، في الكلام مع نفسه، لم أفهم في البداية، لكن قلبي نفر من فعلته، ثم راح يردد جملة واحدة بـ«كريشيندو» تزايد من منخفض إلى واضح: «يا ترى هل هي قدمي أم إن العطل في السيارة؟».

رددها أكثر من عشر مرات، ثم بدأ يقول: «لا، من المؤكد أنها قدمي.. إنه حذائي»، ثم صوَّب سؤاله نحوي: «هل تشعرين بأن سرعة السيارة بطيئة؟».

نظرت إلى عداد السرعة، الذي أشار مؤشره نحو ٨٠، قال بأنه قد اشترى

حذاءً جديدًا يمنعه من التحكم في دواسات السيارة، وبأنه يخشى ألا يتمكن من الفرملة عند اللزوم، أيقنت أن تلفًا ما أصاب مخه بالعطب فاقترحت عليه القيادة حافي القدمين. بدأ يردد كلمة «حافي» كالأسطوانة المشروخة، ثم هب في وجهي ناعتًا إياي بالجاهلة لأن القانون لا يسمح بذلك، ثم اتهمني بالخبث والسخرية من الآخرين، تسرَّب الخوف إلى قلبي، ليس بوسعي أن آمره بإنزالي هنا، لأننا على الطريق السريع والدنيا ليل ولا أعرف رقم البوليس.. قلت له: «حسنًا سأمتنع عن الإدلاء بنصائحي»، واتصلت سرًّا بطريقة الـ«ميسد كول» بـ«نون»، الذي سارع إلى الاتصال بي فشرحت له بالعربية أنني مع سائق تاكسي «مش طبيعي». اتفقنا على أن يتصل بي مرَّة كل خمس دقائق، وعلى الرغم من أن المسافة بين منزلي والمطار لا تزيد على ثلاث مكالمات من «نون»، غير أني لا أعرف كيف أصل بالسيارة، وأعتمد على إلمام سائقي التاكسي، عادة، بهذه الأمور. سألت السائق المخبول عن الوقت المتبقي للوصول إلى العنوان المنشود، فراح يكرر، بهستيريا مُشغل أسطوانات تالف، كلمتين أثيرتين على نفسه: «لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف...»، فسألته هل يعرف العنوان أو المنطقة على الأقل، فتابع مقطوعته: «لا أعرف، لا أعرف...»، سألته هل يملك خارطة الطرق التي يستعين بها سائقو التاكسي عادة، فرد بالإيجاب قائلًا: «إنها في صندوق السيارة الخلفي»، هنا ارتسم في رأسي أحد أفضل أسوأ السيناريوهات: سيقف الآن في مكان ما، معزولًا على الأرجح، سيتحجج بإحضار الخارطة وسيجد طريقة يضربني بها على رأسي، وربما يفتك بي قبل قتلي، فكرت في وسائل ناجعة للذود عن نفسي دون جدوى؛ حذائي رقيق ومسطح، لا ينفع للضرب، العض ليس نافعًا (إذا عضضته وأدميته وكان مريضًا بالإيدز فقد ينقل العدوى إليَّ). لكن ذاكرتي أسعفتني بحادثة تظهر مدى قوتي، حين حاول أحد رجال العائلة ضربي، وكان ذلك في سنوات مراهقتي، واتتني قوة، لا أعرف إلى الآن مصدرها، لدفعه حتى ارتطم بالحائط وطُرح أرضًا، ربما هو عنصر المفاجأة وقتها... قلت لنفسي: في لحظة الخطر يعطينا الله دائمًا قوة غير متوقعة.

أوقف الرجل سيارته، كما توقعت، إلى جانب الطريق وخرج لفتح الصندوق، أخرجت زجاجة مشروب من حقيبة ظهري اشتريتها هدية لأحد الأصدقاء، وصرت على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسي: سأكسرها على رأسه إذا اقترب مني. تذكرت جملة من كتاب انتهيت مؤخرًا من قراءته: «إذا أشعرنا عدوَّنا بخوفنا فسينتصر علينا حتمًا». صرت مثله؛ أردد في قلبي جملة واحدة: «لست خائفة منه، لست خائفة منه...». جلب الخارطة وعاد إلى وراء مقوده. وقبل أن ينطلق زعق في وجهي ثانية وأنَّبني على تهكمي عليه قائلًا بأنه لم يسخر مرة واحدة في حياته من أي أحد ولا حتى من أصدقائه؛ لأنه صادق، ولهذا فهو بلا أصدقاء ويعيش وحيدًا ولا يكلم أحدًا. طبعًا سيقتلني، إنه مجنون، لكن يدي الممسكة بعنق زجاجة المشروب أرسلت لمخي إشارات اطمئنان... وصلت بعد ٤٥ دقيقة... ووجدت «نون» ينتظرني أمام باب بيتنا، رآه السائق واعتذر لي على الفور وحسم جزءًا من الأجرة التي تضاعفت من جراء اللف والدوران حول المنزل بحثًا عنه.

لم ينتهِ خوفي عند هذا الحد، بل قلت إنه «سايكوباتي»، وها هو الآن يعرف عنوان المنزل.. فما الذي سيمنعه من العودة؟ سيطر عليَّ هاجسه ثلاثة أيام ثم نسيته.

يبقى أظرف سائق تاكسي، للأمانة، ذلك السنغالي الذي سأل عن جنسيتي، فلما أجبته هتف فرحًا: «واو.. أنتِ من بلد حسن نصر الله؟».

أجبته، وطال النقاش، وأضاع الطريق هو الآخر، لكنني تعبت ولن أحكي الحكاية.

رغبات مؤجلة

كيف يحدث أن تفقد رغبتك في الأشياء؟

لا رغبة لي في النوم ولا في الطعام ولا في الكلام ولا في الكتابة.

ما نفع الحياة من دون رغبات؟

أحاول بشتى الطرق أن أملأ الفراغ بأنشطة مناسبة.

قلت لنفسي: فلأقم بفحوصات طبية شاملة، لأرى ما الذي يمكنه تعطيل الآلة في يوم ما.. لا أخفي أنني أصاب من حين إلى آخر بـ«الناسافوبيا» (الخوف المرضي من الأمراض) فتارة أوهِم نفسي بأعراض سرطان أو بمشكلة في الرئة أو في القلب.

حملت شجاعتي بين يدي وتوجهت قبل شروق الشمس إلى المركز الطبي... يا فتاح يا كريم، ها هي الإبرة الأولى تخترق عرق ساعدي الأيسر، والممرضة تملأ أنبوبًا، وثانيًا، وثالثًا... خلاااااص ستفرغينني من دمي.. تبتسم وتُلصق الضمادة على أثر الوخزة، تحيلني إلى الحمَّامات لأفرغ ما تجود به مثانتي، أرفع الكوب في وجه الممرضة الأخرى، فتبتسم هي الأخرى.. أغسل يديَّ على عجل وأدخل إلى فحص قوة

النظر ودقة السمع وسلامة التنفس.. لم أدخل عيادة طبيب منذ أكثر من خمس سنوات، لذا فاجأني التطور التكنولوجي للمعاينات.. نظري عشرة على عشرة، عظيم.. سمعي ممتاز.. أما نَفَسي فمقطوع.. تحتل نقاط حمراء وواحدة خضراء شاشة الكمبيوتر، عليَّ النفخ بشدة، حتى يرتسم خط يطول النقطة الخضراء في أعلى الشاشة.. باءت محاولتي الأولى بالفشل.

أقول للطبيبة: «مدخنة بعيد عنك»، تحثني على تكرار المحاولة.. أضع القطعة البلاستيكية في فمي، واحد، اثنان، ثلاثة، أنفث زفيرًا غير اعتيادي أصيب به النقطة الخضراء، نصفق معًا نحن الاثنتين لإصابة الهدف، وأكاد أطلب منها فتح الباب لاستقبال التهاني.. ثم يأتي موعد قياس ضغط الدم، آلة عصرية رقمية، أحتجُّ لأنني لا أثق في هذه الآلات، وأفضل الكلاسيكية منها، تبتسم الطبيبة وتطمئنني بأن طبيبة القلب ستستعملها بعد قليل: ضغطي ستة على عشرة؟ تنظر نحوي بدهشة وتسألني هل أشعر بالتعب؟ ما عيب الستة على عشرة؟ أليست علامة جيدة؟ بدأت الطبيبة تشعر بثقل دمي وأجابت بجفاف: «لسنا في المدرسة وهذه الأرقام تشغل البال». أقول لها بأن آلتها هي التي تشغل البال، أما أنا «فضغطي مش واطي أبدًا» فهو طوال عمره ستة على عشرة.

ثم حان دور قراءة تخطيط القلب؛ مشابك كبيرة حول المعصمين والكاحلين ثم مجسات على الصدر وطلب بالاسترخاء والانتظار.. صوت الآلة يبعد فكرة الاسترخاء، أشعر بضربات قلبي تزداد.. هل سيظهر التخطيط الجروح الملتئمة والطازجة التي أصابتك؟ أستميحك عذرًا يا قلبي العزيز، لقد أهملتك وأتعبتك وسببت لك الحزن والانقباض، وفي نهاية الأمر لا شيء يستحق أن «أفش خلقي» بك.. تعلن طبيبة القلب أن قلبي شجاع

وبألف خير.. وضغطي؟ سبعة على عشرة، ياه! يا له من تحسن ملحوظ.. لكنها تثير رعبي عندما تطلب فحصًا إضافيًّا للرئتين لأن هذا الفحص، حسب كلامها، غير متوافر في هذا المركز.. أصف لها بعض الأعراض الأخرى فتحيلني على أسوأ وأبشع طبيبين في العالم، طبيب الأسنان وطبيب أمراض النساء.. حظي حلو، كنَّ طبيبات، تريد الأولى إزالة بعض بقع الأسنان، فأشكرها طبعًا، وأعدها بذلك في مناسبة قادمة.. وأما الثانية فتطلب فحصًا إضافيًّا لا يقدمه المركز، للتأكد من سلامة كتلة صغيرة في الثدي.. ولكني أعرف هذه الكتلة وأعيش معها منذ أكثر من عشر سنوات، لكنها تصرُّ، لا بد من متابعة دورية... «هل هو سرطان؟» «لا ليس كذلك ولكن يجب إجراء الفحص». أخفيت عنها أني خضعت للسيناريو نفسه منذ خمس سنوات مضت، ووعدت طبيبتي آنذاك بإجراء الفحص ولم أفعل.. خفت أن تعلمني بسرطان ما.. هأنذي لم أمت و«ما صار لي شي». لكني لن ألعب هذه المرة، لن تغدر بي كتلتي، وهي كتلة لا علاقة لها بـ«كتلة الوفاء للمقاومة» (هي الكتلة التي تضم نواب حزب الله في البرلمان اللبناني). دلفت أخيرًا إلى الغرفة الجانبية لأرتدي ثيابي، فوقع نظري على محفظة جلدية صغيرة، تجمدت قليلًا، أمسكتها، فتحتها، بضع أوراق من فئة الخمسين يورو.. سرحت.. لن أخفي الشعور الذي راودني لوهلة: أضعها في جيبي وأعتبر أن الذي أضاعها يستحق فقدها لأنه لم ينتبه لماله، ثم قلت لنفسي: وماذا إذا كانت المحفظة ملكًا لإحدى المسنات اللواتي سبقنني إلى الفحص؟ حاججت نفسي: مَن يضمن أن تعيدها الطبيبة إلى أصحابها على الرغم من أنها تملك، بالتأكيد، سجلًا بأسماء مَن دخلوا اليوم غرفتها؟ شعرت، بصراحة، برغبة حقيقية في الاحتفاظ بها، أقفلت أزرار البنطلون وخرجت إلى الطبيبة التي اندهشت من تسليمي المحفظة لها..

خشيت أن أحتفظ بها، في اللحظة الأخيرة خجلت من نفسي وخفت أن أنظر إلى نفسي فأرى لصة.. أعدتها ولا أعرف إذا أعادتها إلى أصحابها.. لكنني أعرف أنني سأنام بهدوء بال.

أم إنه كان عليَّ الاحتفاظ بها؟

كل عام وأنتم..

من أصعب الأشياء عند حلول السنة الجديدة، كتابة كلمات التهنئة والمعايدة للأصدقاء.

ما أفظع أن تصلك بطاقات معلبة بكلمات ممجوجة: كل عام وأنت بخير.

تصلك بطاقات إلكترونية، يضعك فيها مرسلها بين لائحة طويلة من الأسماء في خانة «النَّسخ الكربوني» من دون كلمة تخصك.

أظرف البطاقات، تلك التي قالت لي فيها صديقتي إن أمنياتي لها في العام الماضي بالصحة والثروة والسعادة لم تتحقق، وإنه من الأفضل هذه المرة أن أدفع بالدولار عدًّا ونقدًا.

قرارات جديدة أتخذها عند بداية كل سنة ولا أطبق منها، ككل سنة، أي شيء.

لكن هذه السنة مصيرية، سأطوي صفحة وأبدأ بأخرى بيضاء، كطفل جديد وافد إلى الحياة.

ماذا سأقول لأصدقائي هذا العام؟

أتمنى لنفسي ولكم مزيدًا من الدهشة حتى لا نصحو من نومنا في يوم ما، على مرار في الحلق، وحسرة على تفويت فرص، واكتشافات جديدة تغاضينا عنها قائلين لأنفسنا: لدينا متسع من الوقت.

سأحاول العيش كأني سأموت غدًا، لعل هذا يعطي للحياة معنى آخر.

سأعيشها كلعبة؛ لن أعقد الأمور، سأستخف بمشاكل الحياة كما تفعل بنا تمامًا.

سأتوقف عن التدخين، هذا قرار نهائي لا رجعة فيه (يا لي من كذابة)، ودون الاستعانة بصديق.. أنا مستعدة لذلك، لن أكون، منذ اليوم، عبدة للذة وهمية.

سأطرد مخاوفي ولن أتردد في ارتكاب الحماقات الواحدة تلو الأخرى ولن أندم على ذلك.

سأقول رأيي في الذي يعجبني والذي لا يعجبني.

سألقي بترددي في نهر السين.

سأداري خيباتي المقبلة وأتعامل معها كواقع، لا كمُستحلب للحزن.

سأنظر إلى نفسي نظرة رضا، ولو مرة واحدة في هذه الحياة.

سأفعل كل ما عنَّ لي من دون شعور بالذنب، فالكفن ليس له جيوب.

سأعيش لحظتي بكل كثافتها، وسأجعله عامي المفضل، وهذه هي مرَّتي الأولى، وليذهب المستقبل إلى الجحيم.

كل عام وأنتم مجانين.

ماما

أتصل بكِ في مثل هذا اليوم ككل سنة، وأنتظر سماع الجملة السحرية، التي لو قلتِها، ولو مرَّة واحدة، لانقلبت معادلات كثيرة في حياتي.

لكنكِ، ومنذ الأبد، تنسَين.. ثم تعتذرين.. عن رفضك اللاواعي لوجودي.. (أهو فعلًا كذلك؟)

لم أيأس، وها أنا أتَّصل بك اليوم من جديد، لعلَّ المعجزة تحدث:

«ألو ماما؟»

«أهلًا تقبريني، كيفك ماما؟»

«ولِكْ لهْ، أنت الماما مش أنا.. لا تناديني ماما، أنا لست أمك، أنا ابنتك.»

تضحكين فأحاول إطالة مدة المكالمة، علك تتذكرين... لكن لا شيء.

بسيطة.. ليست خيبتي الأولى ولن تكون الأخيرة.

وتقفز الصورة نفسها، من جديد، مرة كل عام، في مثل هذا التاريخ:

طفلة في الخامسة من عمرها، يعود والدها من عمله، بينما تحمل الأمُّ قالبًا صغيرًا من الحلوى، وتقول للأب بصوت جاف:

«تفضَّل، طفِّي شموع عيد ميلاد «بنتك».»

ابنتك؟ ماذا عنكِ؟ ألست ابنتك أنت أيضًا؟

لطالما سألت نفسي عن سرٍّ نسيانك الأبدي لهذا اليوم، يوم ميلادي.

أتكرهين مجيئي ووجودي في هذا العالم لذلك ترفضين التذكر؟

أنت من أتى بي، وإذا كان الأمر بيدي لما مِلت إلى خيار المجيء.

لكنني الآن هنا، سعيدة ببقائي على قيد الحياة، سعيدة بمراكمة السنوات بحلوها ومرِّها.

وعدد الشموع؟ مخيف لكثرته! لكنني سأتغلَّب على مخاوفي، سأطوي صفحة وأفتح أخرى أكثر شبابًا.. أكثر حلمًا.

ماما، ربما أعتب عليك هذه المرة، لكن صدقيني لست زعلانة.

لن ألومك هذه المرَّة لأنني أعرف اليوم، بكل بساطة، أني أولد كلَّ صباح من جديد.

ماما: تعيشي وتنسي، ولا يهمِّك!

لذلك تطرق بابه

أذكر الآن أول لقاء لي مع المحلل النفسي، منذ أكثر من عشرين عامًا، دخلت مكتبه مدججة بأفكاري الخاطئة عن الموضوع، ومعظمها مستقى من أفلام «هيتشكوك»، وبعض القراءات السطحية في المجلات، قلت له متظاهرة بالثقة: أعاني من عقدة الشعور بالنقص وعقدة الشعور بالذنب وعقدة الإحساس بالاضطهاد... هل تظن أن الأمر يستحق أن أبدأ جلسات تحليل نفسي؟ ابتسم وحاول كتم ضحكة... تنتابني، حتى اللحظة، نوبة ضحك ممزوجة بالخجل من سذاجتي وادعائي... يشفع لي أني كنت أصغر بما يقارب العشرين عامًا ونيفًا، لكني تعلمت، منذ ذلك الحين، أن أغفر لنفسي جهلها فيما لم تتح لها فرصة الاطلاع عليه.

نارنجة

توقفت عن الذهاب لرؤيته منذ عشر سنوات، وربما لأنه جعلني أضع إصبعي في جرح موجع، فهربت.

النظرة إليه في عالمنا العربي نظرة سلبية تنقسم إلى أمرين:

أنت مجنون لذا تطرق بابه.

أو

أنت مصاب بداء الترف.

فاجأتني نارنجتي (وهي في الأصل نارنجته ـ أي نارنجة ذاك الذي أطلق عليها التسمية ـ وما الياء المضافة لاسمها سوى درب من دروب أنانيتي) وأنا أشاهدها، على إحدى القنوات الفضائية مع مذيع يُفترض أنه مثقف حاورها حول تجربتها الحياتية والمهنية الثرية. فاجأتني في عدَّة أمور، أتوقف عند أحدها: جرأتها النادرة.

تحدثت علنًا عن تردُّدها على عيادة المحلِّل النفسي سنوات طويلة. أتت مقاربتها للأمر بمنتهى السهولة على الرغم من أنها تعرف أن استيعاب الناس لهذا الأمر يبقى ملتبسًا حتى الساعة.. كلما طرح مقدِّم البرنامج سؤالًا يقول: «الطبيب النفسي» فتصحِّح خطأه: «المحلِّل النفسي». حاول تفادي تكرار الخطأ بصعوبة، وهذا يظهر الخلل في إدراكنا لمعنى التجربتين، لذا نخلط بينهما.

كثيرًا ما أصحِّح للآخرين الخطأ نفسه.. وأحزن، بيني وبين نفسي، لوقوع محدِّثي فيه.

الفارق، بحسب معلوماتي المتواضعة، بين الطبيب النفسي والمحلل النفسي، يشبه الفرق بين الأزمة النفسية ـ وكل البشر لهم أزماتهم ـ والمرض النفسي، كالفارق بين «الذهان» الذي يفقد فيه المريض الاتصال بالواقع (كانفصام الشخصية مثلًا) وبين «العصاب» الذي يتمثَّل، غالبًا، في عدم التكيُّف مع المحيط والواقع من دون فقدان الصلة به، كالاكتئاب مثلًا.

يدرس الطبيب النفسي الطب البشري أولًا، ثم يتخصَّص في الأمراض النفسية.

ويتخصص كذلك في التحليل النفسي، إذا أراد، ويمكنه بالطبع وصف الأدوية للعلاج.

أما المحلل النفسي، فليس خريجًا في كلية الطب بالضرورة، بل يتخرج في كلية علم النفس، لا ينبغي له وصف الأدوية كما أنه لا يؤمن بالدواء كعلاج للأزمة النفسية، بل بالكلام.. وهدفه مساعدة «زبونه» في فهم سلوكه اللاواعي أو عقله الباطن، ويحاول فك رموز حالاته وانفعالاته النفسية معه بهدف العلاج أو إصلاحًا للخلل الحاصل.

أحب اللقب الذي يطلقونه على «فرويد» كثيرًا، كما أحبه شخصيًّا، وأشكر ربي أن أوجده مرَّة في هذه الحياة.

«أبو التحليل النفسي» هكذا يسمونه.. أعرف، أعرف.. نظرية التحليل النفسي جاءت قبله بكثير، في الدين والفلسفة وتفسير الأحلام، لكنه يبقى أبًا لها لأنه ابتكر «التحليل النفسي الذاتي».

ترددت بانتظام حوالي خمس سنوات على عيادته (ليس على عيادة «فرويد» طبعًا ومع الأسف)، وهي أعوام قليلة مقارنة بالذين أتمُّوا تحليلهم، واستغرقوا في ذلك أكثر من عشر سنوات.

ماذا يحدث هناك؟

أتمدد، أتكلَّم وأتألَّم.. أبكي أحيانًا.. وتمضي الجلسة بصمت في أحيان أُخرى، وهو قليل الكلام عادة، هو مرآتي ورجع صدى صوتي، يستوقفني عندما أقول أشياء لا أعي أهميتها، يساعدني على إضاءة الظلمات المتراكمة على نفسي.

ويستفيض عندما يرفض وعيي القبول بحقيقة بعض الأشياء.

أعترف بفضله دائمًا، لكن الأمر برمته حدث بفضلي، أولًا: لأني وافقت على الذهاب إليه للمرة الأولى بتشجيع عنيف من نارنجتي. وثانيًا: لأني واظبت على العمل معه فتغيرت حياتي وسلوكياتي، وفككت أزماتي ونلت علامة مدهشة.

كتمت مواظبتي على زيارته فيما مضى، تلافيًا لنظرات الآخرين المتوجسة ولدرء تهمة «الجنون» عن نفسي.

غير أني أتمنى اليوم لو شهد العالم العربي انفتاحًا أسرع على التحليل النفسي وأهميته لحياة الفرد، وأن يعرف محللين نفسيين ممتازين (وهذا أمر صعب). أتمنى لو سنحت الفرصة لكل إنسان أحبه أن يدخل هذه التجربة، وألا يقتصر الأمر على الطبقات الاجتماعية القادرة دون غيرها.

المتردد على عيادة المحلل النفسي ليس مريضًا، إنه مأزوم فقط، ستتاح له الفرصة، إن رغب، في معرفة نفسه أكثر، والتعامل مع أزماته ومع البشر من حوله بمفهوم مختلف.

الآن صرت أضحك في سرِّي كثيرًا كلما سمعت أحدًا يقول لي بثقة: أعرف نفسي جيدًا.

نعرف القشور عن أنفسنا، ودون هذا الغوص العميق، والمؤلم، يبقى الإنسان أشدَّ أعداء نفسه ضراوة لأنه يجهلها حتمًا.

طرقت بابه منذ يومين مجددًا.

سلَّم عليَّ بحرارة لم أعهدها من قبل.. وقال بأني لم أتغيَّر. ففرحت!

لخصت له السنوات العشر التي مرَّت، في ساعة من الوقت.. فكرر قوله بأني لم أتغير..

حزنت.

لأني أعرف أن الدرب سيكون طويلًا..

> ادخل في نفسك، في أعماقك، وتعلَّم أولًا معرفة نفسك، لتفهم لماذا يتعين عليك أن تصبح مريضًا، وربما ستتجنَّب ذلك.
>
> سيجموند فرويد

حصريًا

وفي كتاب سيد عويس «هتاف الصامتين» حيوات أخرى عديدة مكتوبة على حوائط الحمامات وأبوابها.

العالق في ذهني الآن هي تلك العبارة التي قرأتها في حمام محطة الرمل بالإسكندرية: «خلاص، سامحيني، هابطل سجاير، ممكن نرجع لبعض؟» بكل بساطة في التعبير... الغريب بس إن الرسالة دي مكتوبة في حمَّام رجالي:))

سولو

كل شيء يوحي بأن الجرس قد دقَّ..

غادرتني نوبات الكتابة الملحَّة منذ أكثر من أربعة أشهر.. توقفت، قمت ببعض المحاولات الفاشلة، محاولة استرجاع ما ضاع مني. الرغبة الملحة في الكتابة، تشبه الرغبة الملحة في دخول بيت الراحة.. ربما هو تشبيه غير مناسب، لكن هذا ما جال في خاطري لحظة.

أقول هذا لأنني أعرف ما الذي تعنيه الرغبة المُلحَّة في دخول الحمام.. وخصوصًا أني من النوع الذي يقرف من دخول المراحيض في الأماكن

العامة، ونادرًا ما أدخل مرحاضًا عامًّا، لا في مطعم ولا مقهى ولا سينما ولا مسرح، حتى في العمل.

ربما هي فوبيا المراحيض العامة.. في الصين أكثرها ابتذالًا وبدائية، واحد من تلك المراحيض التي أعتقد أن الأتراك استعملوها؛ المرحاض عبارة عن حفرة في الأرض ودمتم، يصعب عليَّ وصفها الآن، يقتضي من مستعمله جلوس القرفصاء؛ قدم على حدود الحفرة اليمنى والثانية على الحدود اليسرى.. تتطلب هذه الوضعية توازنًا كاملًا ورشاقة وقوة احتمال، مع قدرة على إنقاذ أطراف الملابس من أي سوء في الوقت نفسه.. إذا حدث واستعملت أحد هذه المراحيض عندها ستر تاح مرتين: الأولى لأنك تخففت من حملك، والثانية لأنك نجوت بنفسك من انزلاق وخيم العواقب. الرجال يتفوقون على النساء في بعض هذه المسائل.

لن أصف لك ذلك الحمام الصيني، ماشي، فتحت الباب فاستقبلتني على الفور رائحة مميزة، ساعدتني على اتخاذ قراري في ثانية واحدة بالخروج إلى الهواء الطلق، وأوشكت أن يغمى عليَّ من السعادة.

اعتدت زيارة الحمَّام قبل الخروج من البيت وفور العودة إليه، وبين الخروج والعودة أحصر نفسي طوال النهار، وأمتنع عن شرب الماء كثيرًا، فإذا ألمت بي رغبة، أقفز على قدميَّ بضع ثوان، تكفي لتهدأ المثانة قليلًا. هكذا عشت حياتي، إضراب عن دخول المراحيض العامة. أما مراحيض المنازل، فبإمكاني القول بأني أقوم بمجهود كبير فيها.

ألا ينصح المثل أهل العريس بزيارة المرحاض في بيت العروس ليتأكدوا من مدى نظافتها.. «البنت بتنعرف من حمام بيتها»، كثيرًا ما سمعت هذه الجملة تتردد في الحي الذي تربيت فيه.

وإذا كنت أعتقد أن تنظيف مراحيض المنازل يجب أن يتم مرة يوميًّا، فينبغي تنظيف المراحيض العامة مرَّة كل عشر دقائق.. وهناك بعض الأمكنة العامة التي تعتمد ذلك.

لاحظت أن العاملات الواقفات على أبواب المراحيض في المطارات، ينظفنها كل بضع دقائق. تُرى كيف تقيِّم هذه المرأة نفسها؟ كيف ترى نفسها في عيون الآخرين؟ فمهنة التنظيف ليست مسلية بتاتًا، فكيف بتنظيف الحمامات العامة كل بضع دقائق؟ الشغل ليس عيبًا، فَهِمنا، لكن هذه الشغلة بالتحديد ليست مهنة ظريفة أبدًا.. عنَّ لي ذات مرة استجواب إحداهن، فلم أجد الكلمات المناسبة لذلك، ما عساي أقول لها؟ أأسألها كيف تقاوم غثيانها وبماذا تشعر عندما تنظف المرحاض نفسه عشرات المرات في اليوم؟

ثم إنه من بين الناس مَن يتصرفون في المراحيض العامة بتوفيق في الأداء يثير الغثيان، ولو أنهم نظَّفوا وراءهم كما يجب لما أدرجت الحمامات العامة في دليل سياحة الذباب والميكروبات بشكل عام.

لا أدَّعي أن تصرفاتي تدخل في إطار الوسوسة، لأني، مثلًا، أنظف مرحاض البيت فور مغادرة ضيوفي.

تبقى أفضل البيوت التي سكنتها، تلك التي لها دورتَيْ مياه: واحدة لي، والثانية للآخرين.

أما عندما أزور أصدقائي أو معارفي، فلا أدخل حمَّامهم عند الزيارة الأولى ولا حتى الثانية، بل أراقب عن كثب حتى يصبح بمقدوري توقع صلاحية حمامهم للاستعمال من عدمها.

اعتدت سماع سؤال: «ألا تدخلين الحمام يا بنت؟» كلما كنا في مكان عام، أو في غزوة شوبينج محدودة.. لا، سأحصر نفسي..

حدث لي ذات مرَّة أني، لفرط ما حصرت نفسي طيلة النهار، لم يعد بمقدوري الوقوف، فركضت إلى البيت ركضًا وتعذبت في العثور على المفاتيح في قعر الحقيبة، كل ذلك وأنا أشعر أن الخلاص سيبادرني أمام الباب، تعذبت في إدخال المفتاح المناسب في القفل المناسب، مضت الثواني كدهر، وللباب ثلاثة أقفال. في لحظة وقبل أن أتمكن من فتح الباب شعرت أني سأنفجر، أخذت نفسًا عميقًا واستسلمت لمثانتي، انساب عبئي هكذا أمام عتبة البيت عبر بنطالي الجديد، بينما أستند بكفيَّ على الباب، وأفرغت كل شيء «حصريًا». لا أذكر كيف كان شعوري كطفلة في لحظات مماثلة، لكن هأنذي «كالجحشة»، في اللحظات التي تخرج فيها أعضاء الإنسان عن نطاق سيطرته فيستسلم لـ«سيولة» الموقف وانسيابه على بعض خطوات من مكانه المخصص الآمن.

إلى أن جاء اليوم الذي نصحني فيه طبيب صديق بالتخلي عن هذه العادة السيئة، وألا «أحصر» نفسي طيلة النهار، وشرح لي المخاطر والأمراض الناجمة عن هذا الحصر.

صرت أتعذب قليلًا، وغالبًا ما أرسل أحدًا للكشف عن مستوى النظافة، ولم يخدعني أحد مرة في ذلك، فصرت أقوم بمجهود إضافي من حين إلى آخر، وبحوزتي دائمًا محارم مطهرة أنظف بها المرحاض قبل مس حوافه واستخدامه.

حياتي عذاب ما هيك؟ بس أحلى و«أهضم» الحمامات العامة هو حمام مطعم في منطقة الحمرا؛ حمام مختلط، لا سواه، لكنه حمام نظيف، مزين بكتابات وأشعار، خطها رواد المطعم لحظة دخولهم إليه.

أذكر عشائي الأول مع صديق فيه (المطعم لا الحمَّام طبعًا)، إذ غاب وعاد بعد لحظات قائلًا: «تركت لك رسالة صغيرة على حائط الحمام».

لم أخفِ دهشتي وذهبت إلى الحمام، لأجده قد كتب لي شيئًا رائعًا نسيته الآن، ميزت خطه بين كل الكتابات، وأجبته بالطريقة نفسها، ولا يزال ما كتبته موجودًا حتى اليوم على الحائط؛ كتبت له بيتًا للشاعر والخطاط العراقي محمد سعيد الصكار:

حبري أسود

فلا تطلبوا مني أن أرسم قوس قزح

رائحة القطن، وهم الغيم

أهي رائحة القطن حقًّا أم لونه؟ يعني مثلًا لو كان لونه أسود، فهل كنا سنجده باعثًا على الطمأنينة والأمان ورمزًا للبراءة والنعومة؟

غيدا

لو تمكن بعض الناس من قراءة أفكار بعضهم الآخر، لما تواصل أحد مع أحد!

تقول صديقة لي: «لا تنتظري انفعالاتك لتكتبي، اكتبي فحسب».

تراودني بعض الأفكار ليلًا.. أتكاسل فلا أتحرَّك من فراشي، فتذهب الأفكار كغمام صيف عابر، وسرعان ما أنساها.

أتحسس طريقي في ظلمة الغرفة، أصل إلى الحمَّام بسهولة.

أبحث عن رائحة القطن.. أجدها في قميص نوم جديد لم يُلبس بعد، أتحسسها في ثنايا شراشف نظيفة، وُضِّبت لتوِّها على السرير.. رائحة القطن تشعرني بالأمان.. بالطمأنينة.

أجد الرائحة، مصَادفةً، في سائل الاستحمام الغريب هذا، بنكهة القطن

والكتان، رغوته كثيفة تطفو كغيم أبيض على سطح مياه المغطس الدافئة، يبعثرها نزولي السريع فيها. أستقرُّ متأرجحة لحظات، أتنفس ملء رئتيَّ: مرة، اثنتين، ثلاث، وأتمنى لو أبات ليلتي هنا.. لكن الماء سيبرد وستتحوَّل الرغوة القطنية البيضاء إلى فقاعات صغيرة، تافهة، ثم إلى أشكال هلامية تتحرك بكسل بين التموُّجات التي أُحدثها في الماء حتى تضمحلَّ تمامًا.

أحب القطن لأنه يشبه الغيم، وأحبُّ الغيم لأنه يشبهني أو أنا التي تشبهه، لا فرق. نتقلَّب بالأسلوب نفسه، نرسم أشكالًا مرعبة حينًا ومفرحة في أحيان أُخرى، خيالنا وحده يسميها ويحدد صفاتها.

أصرَّ بائع الأزهار صباح اليوم أن القطن عديم الرائحة. لم أقتنع. أهداني شتلة قطن ناشفة، لا رائحة لها.. لكنني لم أقتنع.

للقطن رائحة ممتعة، ليس للغيوم رائحة..

كلُّ شيء وهْم، كل ما في رؤوسنا..

وهْم.

أنـوف..

بديهي أن يكون للأنف ذاكرة أيضًا.

مجهول

لحظات وأخرج بعدها من المصعد لأخترق الممشى المؤدِّي إلى الشقَّة والذي يفوح مرَّات بروائح أطباق لم يعهدها أنفي.. ما هذه الرائحة النفَّاذة الآن؟ أيعقل أن الجيران يطبخون (أو دي جافيل؟) أشعر أنني أتسمَّم كلَّما استنشقت رائحة سائل التنظيف هذا.

أعرف أنَّ حاسة شمِّي فقدت كثيرًا من حِدتها، أدى التدخين دورًا كبيرًا في ذلك، لكنَّ أنفي بقي قادرًا على تلمُّس بعض الروائح محتفظًا بشيء من حساسيَّته. أحبُّ اللحظات التي يكتشف أنفي فيها رائحة جديدة ويقع في غرامها.

لا أعرف، الآن، إذا أُصيب الجميع بما يحصل معي، حين أقدر في بعض المرَّات على استرجاع روائح بعض الأشخاص في رأسي.

احتفظت طويلًا برائحة أبي بعد موته في عبق قبعته الشتوية، ثم تخلَّيت عنها عندما أدركت أن رائحته محفورة في رأسي.

رائحة أمِّي في رأسي أيضًا على الرغم من تغيُّرها منذ شهر، تقريبًا. لم يكن

لديَّ الوقت الكافي للتآلف معها، فبقيت رائحتها القديمة في رأسي.. تأتيني، أحيانًا، إذا فكرت فيها، تمامًا كما يأتي طعم الحموضة للفم عندما نفكِّر في الليمون الحامض.

لا أعرف كثيرًا عن رائحة أخي، لذا لم أخزِّن رائحته عاطفيًّا في رأسي بعد.

أمَّا رائحة «نون» هو! فقد تشبَّعت بها طوال تلك السنوات، يخيَّل إليَّ مرَّات أنها أصبحت رائحتي. لم أعرف إلى الآن ما طبيعة رائحتي أصلًا...

حاولت مرَّة في العام الماضي، أيام عزلتي الطويلة عن البشر، ألا أستحم.. لم يعرف الماء طريقي أسبوعًا كاملًا.. تسبب الأمر في مشكلة مع «نون»، الذي هددني، فور معرفته بقرار الاختبار الذي أجريه عليَّ أتعرَّف على رائحتي، بالانتقال إلى غرفة النوم الأخرى.. لكنَّه لم يفعل.. كان يميل بأنفه نحو إبطيَّ ثم يسألني: «هل استحممتِ؟».

شمَّني في اليوم الثالث للتجربة، وسألني السؤال عينه، ولما أجبته بالنفي، صار يدور في الغرفة كل مساء محدِّثًا نفسه: «حدا يا عمّي يبقى دون استحمام خمسة أيام ولا تصدر عنه روائح تحت إبطه؟!». شعرت، في اليوم السادس، ببوادر رائحة لا هي بالكريهة، ولا بالزكية.. رائحة غريبة لا أعرفها.. تآلفت معها يومًا واحدًا.. بادرني في صباح اليوم السابع: «طلعت ريحتك!».

وكان محقًّا!

خزَّنت رائحتي جيِّدًا في ذاكرتي، لم تكن قاتلة، بل رائحة بشريَّة نفَّاذة.. اضطرتنا يومها، وكنا في بيروت، إلى شراء الماء بعدما أفرغتُ الخزَّان من لتراته.

غريبة هي روائح البشر، يتشابه معظمها، وتطغى عليها اختلافات البلدان التي يأتون منها وطبيعة المآكل التي يتناولونها.

هل حاول أحدكم تناول «البسطِرما» بكثرة؟ يظل الجسم يفرز رائحتها، حتى بعد مرور يومين على تناولها.

شرح أحد المتحذلقين الذين بصقهم سوء الحظ في طريقي في تلك الأمسية كم أن رائحة اليابانيين غريبة ولا يقول مقرفة. لم يتمكن من تحديد مصدر القرف.. يقصد الغرابة فيها.. لم يقتنع كثيرًا عندما أبلغته أن اليابانيين يقرفون من رائحة العِرق الأبيض، بل يجدونها غريبة ونفاذة.. بعضهم يردُّ ذلك إلى حليب البقر الذي تمتصه خلايانا منذ طفولتنا، فيما لا تعرف خلاياهم سوى رائحة حليب الصويا فقط، بعضهم يشبِّه رائحتنا بالزبدة، ويقولون إن الاعتياد عليها ليس سهلًا.. نسخر، أحيانًا، بذوبان الفروق بين ملامحهم حتى إننا لا نميز بعضهم عن بعض، وهم كذلك يجدون في أشكالنا، نحن البيض، تشابهًا يمنعهم للوهلة الأولى من التمييز بين شخص وآخر.. لم يقتنع، فماذا أفعل؟ هل أقطع له تذكرة إلى اليابان؟

في العطور؟

تذكرني بعض العطور دائمًا بأشخاص بعينهم، أو بفترات سابقة من حياتي.. أكثر عطر أمقته «ديكلاراسيون» للرجال.. ليس لأنه يذكرني بـ«نون» الحاضر دومًا، بل لأنه كان يستعمله في فترة صعبة من حياتي. تسرَّب إلى أنفي في المترو منذ أيام، لم أتردد في الابتعاد عن مصدر العطر. يليه عطر «إيف سان لوران» للرجال، إذ يذكرني بمن ظننته صديقًا «ابن أوادم» ذات مرَّة.

عطر الـ«أو سوفاج» يعود بي إلى ذلك الآخر الذي لم أكتب عنه بعد، لكنه كان ملاكًا حقيقيًّا فقد أجنحته.

أكن لعطر «جراي فلانل» معزَّة خاصة في قلبي، فهو يوحي بالصابون الذي زحلقني عليه صاحبه، وكانت أوَّل مرَّة يزحلقني فيها مخلوق.

ليس لعطور النساء ذاكرة كبيرة تربطني بصاحباتها، باستثناء هذا العطر الذي نفد من الأسواق ويذكِّرني بصديقتي النارنجة.

في العطور، لست وفية أبدًا؛ قد أتمسَّك فترة ما بعطر ما، لكنني دائمة البحث عن روائح جديدة أحبُّها.

ظننتني جرَّبتها جميعها، حتى أتى اليوم الذي كنت أتسكَّع فيه مع النارنجة، وقادتنا الخطى إلى محلِّ العطور الضخم في «الشانزيليزيه». توقفنا عند كل الأجنحة، وجرَّبنا كلَّ نماذج العطور؛ نرشُّ أينما اتفق، بدأنا برسغينا، ثم رششناها على أذرعنا، وفوق رقبتينا، وتحت أنفينا، ووراء الأذنين، وعلى الشعر، وعندما نفدت الأماكن، رششناها على ملابسنا، وبعد ذلك رششناها للأعلى في الهواء واخترقنا الرذاذ قبل هبوطه. لا أعرف بماذا أصف الرائحة الهجينة التي تلبستنا، لكن النتيجة التي طلعنا بها: الله يرحم أيام زمان عندما كانت العطور أصيلة لا يشبه أحدها الآخر.

أحَب الروائح إلى أنفي: الفلُّ، الياسمين، الجاردينيا، الـ«باتشولي»، الـ«إيلانج إيلانج»، القرفة، القطن، وغيرها كثير من الروائح التي تبعث على التفاؤل وتمنحني شعورًا بالخفَّة.

دلتني صديقتي «نوسة» على ذلك المتجر الذي يفصِّل العطر على مقاس صاحبه.. سأقصده قريبًا.. سيكون عطرًا لا يشبه أحدًا غيري، وإذا رششته عليَّ، فلن يُذكِّر بأحد سواي.

حبر على ورق

أكتب وأرمي، أكتب نصًّا أتوقف في منتصفه عاجزة عن متابعته، ثم أنساه.

أكتب ولا أعرف لماذا أكتب، ولا من أين تأتي هذه الرغبة، بإلحاح أحيانًا، وبحماس سرعان ما يفتر في أحيان أُخرى.

كانت الممثلة الشهيرة «جين بيركن» تنزل إلى سوق الأحد وتدفع ثمن مشترياتها بالشيكات. لم أفهم مغزى الحكاية في البداية حتى أضاءت الفكرة رأسي: إنها تدفع بالشيكات لأن الباعة، أو نصفهم على الأقل، لن يضعوا الشيك في المصرف لكونه مذيَّل بتوقيعها. أهي ذكية أم بخيلة في رأيك؟ هي استغلالية حقيرة ولا أطيقها على أية حال.

أكتب وأكدِّس.. أكتب وأرمي.. أكتب وأتوقف في منتصف الطريق..

متى تنتهين من كتابة ما عليك كتابته لتكتمل النواقص؟... لا إجابة...

هذه هي المحاولة الثالثة:

الأولى: رفضتها دار النشر.

الثانية: توقفت في منتصفها؛ لأنها لم تعد تعني شيئًا مع حلول الحرب الأخيرة الصيف الماضي.

والثالثة: معلَّقة بحبال جديتي ونشاطي.

لا أدري لماذا أتذكَّر في هذه اللحظة استيائي من مشاهدتي، للمرَّة الأولى، أناسًا يأكلون بمفردهم في المطاعم هنا. راعني الأمر، أحسست بنوع من الشفقة عليهم وهزَّتني وحدتهم. تراها أو تراه ساهمًا يحدِّق في الفراغ في انتظار وجبته، منهم مَن تسلَّح بكتاب أو جريدة. لم أستطع تصوُّر نفسي في موقف مشابه، أفضِّل الموت جوعًا على تناول الطعام وحيدة في مطعم.

لكن أتى ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه كيف يفتك الجوع بالإنسان أحيانًا. شعرت بذلٍّ شديد في أثناء تناولي الطعام وحدي في ذلك المطعم السخيف. اليوم اختلف الأمر، بل أصبح يشكِّل مصدر متعة في كثير من الأحيان.. كتاب وأنا والهاتف.. «بطنٌ ملآن وكيف تمام».

أخطأت، في بيروت، حساباتي عندما فعلتها ذات مرَّة. تضوَّرت جوعًا، واشتياقًا إلى الأكل اللبناني، كان مطعمًا صغيرًا و«كوزيًّا»، الساعة الرابعة بعد الظهر، وكنت الزبونة الوحيدة. ابتلعت أول لقمة، ولم أستطع المتابعة. ناديت نادلة المطعم وطلبت منها البقاء بصحبتي حتى أنتهي من تناول الطعام. فاوضت مسؤول المطعم قليلًا، فاقتنع مترددًا بوجهة نظري، فسمح لها بالبقاء بجواري حتى أنتهي من تناول الغداء الذي استمتعت به على الرغم من أن النادلة اعتبرتني مجنونة.

كم أكره تحضير الطعام وتناوله وحيدة! هذا يفسِّر أين ذهبت كيلو جراماتي الستة خلال الشهرين الأخيرين.

لا يوجد ما أتردد بشأنه حاليًّا.. فأخترع لنفسي مسرحًا للتردد. لم أسافر قَطُّ في إجازة بمفردي، باستثناء تلك التي قصدت فيها بيوت أصدقاء. تعنُّ الفكرة على بالي منذ فترة. أحتار؛ هل أذهب أو لا أذهب؟ حسنًا، سأذهب.

أرغب في الذهاب إلى نيويورك، وأرغب في الحج إلى «سان جاك دو لا كومبوستيل».

نيويورك أغلى وأسهل. وكالة السفر تتكفَّل بضمِّي إلى مجموعة من السياح أمثالي، ويتصرَّف بالمجموعة منظم أمر تنقلها كما ينبغي.

«سان جاك» بها حاجة إلى دليل يقود مجموعة لا تتعدى ستة الأشخاص، وبها حاجة إلى القدرة على المشي لمدَّة شهر كامل والنوم في ظروف غير طبيعية بالمرَّة. الفكرة مغرية لا شك وأرخص.

سأقوم، على الأرجح، بالأمرين افتراضيًّا وفي رأسي فقط كما جرت العادة.

صديقي صاحب المكتبة العربية مستاء. أتفهم استياءه، أبحث عن كتاب لا أجده، تنتهي زيارتي الخاطفة لمكتبته بتربيتةٍ على كتفه، ثم أمسك بطاقة بريدية وأخرج.

ثيابي الصيفية لا تزال عالقة في بيت أمي في بيروت، أمي لم تعد إلى البيت ولا أعرف ماذا حلَّ بحقائبي. لكم أكره التسوُّق.

ثم، أين ضاع فستاني الأسود وتنورتي الطويلة السوداء؟! كلي يقين بأنهما كانا معي هنا.

الآن كل شيء على الأرض.. أف! أسود، ومعظم الثياب سوداء.. لا أجد القطعتين.. لا بأس، لربما ضاعتا ككثير من الأشياء، وهذه مناسبة لإعادة ترتيب الخزانة.

ليضع كلٌّ منا ثيابه في خزانة، لا تخلطوا الأوراق!

لا أحب التصنع.

أنا أهترئ.. لا. جسدي يهترئ.. تختلف ملامحي في الصور عما كانت عليه منذ عدة أشهر.. حلَّ التعب عليَّ الآن وأريد أن أرتاح.. لكن روحي لا تهترئ.. أشعر بها على وشك التفتح في منتصف ربيع باريس الدافئ جدًّا.. أشعر برغبة عارمة في الذهاب صوب البشر والتحدث معهم، تعود إليَّ الرغبة في العمل من جديد وبإلحاح.. بقي أن أجد عملًا أحبه.. سأجده، أقصد وجدته وهنا تحدٍّ جديد.

أشعر بالرغبة في الذهاب إلى جبال الهيمالايا؛ لأبتعد قليلًا عن الحضارة الهمجية، وأعود قليلًا إلى طبيعة الإنسان الأولى لأعيشها بكل بدائيتها.. الهند، النيبال حيث يكمن عالم الألوان الحقيقي.. هنا تعاش الألوان على حقيقتها.

لكن «نينا» تحذرني من الأكل المقرف، سأجبر على تناول طعام لا يُعرف له في كتاب الطهي وصف.. لا بأس.. فلأذهب افتراضيًّا.

قالت مديرة المكتب إن شغلي ممتاز، لو لم أكن مسكونة بالكسل.. ربما تكوَّن الكسل في جيناتي النفسية، أو لعلَّه تركة عائلية، لكني أعرف أنه لا دخل له هنا، لأني، وبكل بساطة، لا أحب طبيعة العمل الموكل إليَّ، وملعبي أراه في مكان آخر.

المال؟ هذه حكاية مطروحة في هذه الأيام على طاولة التحليل النفسي الباريسي. لم أعد أتمدد على أريكة البوح منذ عدة جلسات، هل لذلك معنى؟ أرتدي نظارتي الشمسية وأجلس في مواجهته مباشرة. المال! هذه المسألة القديمة الجديدة. حسب المعالجة النفسية التي كنت أتردد إلى عيادتها في بيروت، أنا امرأة أساء الآخرون معاملتها ماليًّا، وتمَّ التصرُّف في أموالها منذ طفولتها.

النظرية ليست بعيدة عن الحقيقة.. كانت عمتي تقدِّم لي في الأعياد مبلغًا متواضعًا كعيدية، مرة أعطتني خمسين ليرة، كان مبلغًا «بيحكي».. وما إن انصرفت حتى صادر أبي المبلغ. لم أجرؤ على المطالبة به بالطبع، غير أني لم أعد أفرح كلما أعطتني مالًا، ففي كل الأحوال لن يدخل المبلغ جيبي. أتراني ظننت أني لا أستحق ربح المال فصرفت كل نقودي على أشياء لا تفيد؟ أم هو الخوف من أن يصادره أحد مني؛ لذا فلأبذره على الآخرين وعلى نفسي «بلا طعمة» قبل أن يأتي مَن يصادره؟ كنت كلَّما طلبت مالًا من أبي شعرت بالضيق. بدأت صغيرة جدًّا بإعطاء دروس خصوصية لبعض كسالى الحيِّ.. وكان دائمًا ما يوبخني لأني أبدد أموالي بلا طائل.

سألتني صبية، في المترو منذ أيام وأمام آلة الدخول بالبطاقات الممغنطة، إذا ما كنت سأسمح لها بالدخول معي لأنها لا تملك بطاقة. وشى وجهها بالفقر وبالثقة في آن واحد، لكن دخولها معي بالبطاقة نفسها يعني أن تلتصق بي أشد الالتصاق لنتمكن من المرور عبر البوابة الضيقة معًا. قلت لها من دون تردد وبسرعة شديدة: «لا»، وأنا أناولها إحدى بطاقات المترو التي أملكها. هل لذلك معنى؟ وكأن لسان حالي يقول: «خذوا ما تريدون لكن لا تلتصقوا بي، حلُّوا عنِّي».

أحب الهدايا كثيرًا، غير أني أشعر بالذنب كلما اشترى لي شخص عزيز هدية. أعرف كيف أعطي ولا أعرف كيف آخذ.

أتعلَّم ذلك الآن.. فالقضية ليست قضية هدية أو مال، فقط المسألة مسألة حياة بأكملها.

هذا تحدٍّ أيضًا.

سيزول السحر فور سقوط القناع، كما هو الحال مع كلِّ شيء آخر في الحياة.

يدور نقاش حول فرضية جديدة، تقترب كثيرًا من الواقع، في شأن حلِّ لغز بناء الأهرامات. أعترض، لا أريد أن أعرف كيف تم بناؤها.. دعوا اللغز راقدًا في قبره، ولا تزيلوا السحر عنه.

في الأربعاء الأول من كل شهر وعند انتصاف النهار، تصدح صفارات الإنذار في باريس.. صيانة أم ماذا؟ لا أريد أن أعرف.

امرأة مكتملة الأنوثة

طيب واللي ما فيه كتير من صفات الأنوثة
ولا صفات الرجولة شو بيكون؟ بليز ما تجاوبوا
أحسن ما تزيدوا لي إحباطي.. حاسة حالي
إي. تي هالأيام.
وبعدين دخلكن ليش «حسن صبي» مش اسم
تاني، ليه مش علي ولا حسين ولا جرجي؟
بس حبيت أسلِّم وأتساءل (نسبةً لسئيلة).

غيدا

من «حسن صبي» مرورًا بـ«أخت الرجال»، ثم وصولًا إلى «بتنفعي تكوني صبي مش بنت»، مسيرة حياة.

كيف؟ ومَن الذي قرَّر ذلك؟ بينما لا أرى نفسي سوى صورة لامرأة مكتملة الأنوثة، وهذا ما أحسه إلى الآن!

«حسن صبي» لأنني كنت طفلة تكره اللعب بالدمى، و«بيت بيوت» و«عروس وعريس». وأفضِّل عنها اللعب مع صبيان الحي لعبة «القبائل الهندية»، والركض في الأزقة وتسلُّق الأشجار، اللعب بالكلل (شيء بقدر

البندقة من زجاج ملوَّن وغيره يلعب به الصبيان)، ولعبة الحرب و«أبطال وحرامية»، وأي ألعاب تستدعي الحركة الدائمة.

قرر أهلي ذات مرَّة، كما أذكر، اصطحابنا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في مسقط رأسي الذي لم أكن أعرفه سوى من وصف والدي له.

نسرح، أخي وابن عمي وأنا، في أزقة الحيِّ القروي الضيقة في عزِّ ظهيرة شمس الصيف بالشورتات فقط.. كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري. نركض بصدورنا العارية ضاحكين.. فيستوقفنا عجوز ليستفسر عن أصلنا وفصلنا، ويتولى أخي مهمة التعريف: أنا ابن فلان وهذا ابن عمي ابن فلان وهذه أختي.

تابعنا القفز والدوران ضاربين بما يجري من حولنا عرض الحائط، إلى أن عاد العجوز حاملًا معه عودًا طويلًا من الخيزران لينهال عليَّ به طالبًا مني التستر. نلت لسعة واحدة وتمكنت من تفادي بقية الضربات.

بقيت ألعب مع صبيان الحيِّ إلى أن أصبحت لي رفيقة من عمري وبطَّلت العادات والألعاب «الصبيانية» كما أسموها.

كانت أمي دائمة الشكوى من صوتي العالي، ومن طريقة جلوسي على سلالم البيت كالصبيان: «سكِّري رجليكِ، ما هكذا تجلس الفتيات»، فأجيبها: «وما هكذا نقص شعر الفتيات»؛ إذ كانت دائمًا تريد لشعري أن يكون «ألا غارسون».

اعتقدت وقتها أنها تحبُّ أخي وتكرهني، ربما قررت لذلك التشبه بالصبيان علِّي أجذب اهتمامها.

لا يمكنني التكهن الآن بمصدر جرعة التمرد الأولى التي حُقنت في عروقي، كلُّ ما أعرفه أنني كنت متمردة منذ الأزل.

«أخت الرجال»، سمعتها للمرَّة الأولى من فم أبي، ولم يعجبني الموضوع، «أنا لست أخت الرجال، أنا أخت فادي»، فيقول ممازحًا: «أختك ع أختو». يسميني كذلك لأنه يعتقد أنني تمكنت من بناء نفسي بنفسي، لم أعتمد على أحد، حتى عليه، استغنيت عن خدماته ودخلت ميدان العمل مبكرًا حتى لا أشعر بمذلَّة طلب مصروف الجيب.

يسميني كذلك لأنه يظنني تخطيت مصاعب غربتي بطريقة جعلته فخورًا بي.. عنون إحدى رسائله ذات مرَّة: «رات يا أخت الرجال في المصاعب وست الستات في الحياة».

لست أختًا للرجال ولا نبتٌّ من ضلوعهم.. يحلو لي أحيانًا أن أعتقد أنني ابنة «ليليت»؛ تلك التي تقول الأسطورة بأنها خُلقت كآدم من تراب، قبل أن تحلَّ عليها اللعنات وتطرد من الجنة ويتم استبدالها بضلع من آدم: حوَّاء.

لم أفهم يومًا مَن هو المستبد الذي وضع قواعد تفرِّق بين طبيعة حياة البنت وحياة الصبي.. فقررت أنه لا فارق بين الحياتين، وعشت كما يحلو لي.. لم يخل الأمر من أثمان باهظة دفعتها وما زلت.. لا بأس فلم أفلس بعد!

أصلح لأن أكون صبيًّا ومش بنت.. يا الله..

لماذا وأنا سعيدة بأنوثتي، لا بل فخورة بها..

قد تكون صراحتي، ما يسميه البعض جرأة وأضعه أنا في خانة العادي، وقد يكون فضولي الذي جعلني أعيش لأكتشف الحياة بحلوها ومُرها..

لو لم أتمرد على دوري المرسوم، لكنت اليوم امرأة تعيسة، ولتزوجت في سن السابعة عشرة من ابن الجيران، ولكان عندي أولاد لا أعرف كيف أدير شؤونهم، ولبقيت في تلك القرية المظلمة، أقتات على خبز النميمة في

«صبحيات» الجارات... أغسل وأطبخ وأنفخ وأخضع لرجل يستبيح جسدي ضد رغبتي، ليوليني ظهره فور إفراغ شحناته الحيوانية ليتركني غارقة في مرارتي ودمعي. فهل أنفع كامرأة هنا؟

لا، فلأكن رجلًا إذن.. هذا أحب إلى قلبي وأهون على أعصابي..

هل أكون بنتًا، امرأة، إذا امتنعت عن تسمية الأشياء بأسمائها، إذا لم أدس أنفي في الذي يعنيني، أو لا يعنيني، من شؤون هذه الحياة؟

هل أصلح كبنت لو تميزت بقدر عال من الخبث والازدواجية والمراوغة فقط لمراعاة السيد «مجتمع»؟

هل أصلح كامرأة لو تخليت عن الإمساك بهذه الحياة من قرونها؟

هل أصلح كامرأة لو تنازلتُ عن الدخول في شعابها وحواريها الضيقة وتجنبت متعة الاكتشاف والتعرف على الذات والآخر؟

لا؟ فلأكن رجلًا إذن!

ربما أكون في طور الهذيان الآن، لكنني على قناعة بأنه يحق للمرأة أن تعيش الحياة تمامًا كالرجل.. رميت قيودي منذ زمن ولا ينفع الآن أن أضعها، كما أنه لا ينفع أن أكون رجلًا.

وحدها زهرة «الأوركيديا» قادرة على أن تكون الأنثى والذَكَر في الوقت ذاته، تلقِّح نفسها بنفسها.. وأنا لست «أوركيديا»..

أنا امرأة مكتملة الأنوثة فقط.

ذنبي على جنبي

الشخصيات السايكوباتية لا تشعر بالذنب.

سيجارة

في الشهر السادس من عمره، كان سامر بين يدي والدته التي طبعت قبلة على خدِّه استعدادًا للخروج، لم يعجبه الأمر فامتدت يده الصغيرة لتطبع صفعة على خدِّها. تظاهرت أماني بالبكاء.. وكنت الشاهدة الوحيدة التي هزَّتها في العمق تعابير وجه سامر في تلك اللحظة:

امتقع لونه فجأة، وأصبح الحزن لون عينيه الوحيد.. تعبير واضح ووحيد لا غيره طغى على قسمات وجهه وروحه: الشعور بالذنب.

لم يستوعب عقلي، حتى هذه اللحظة، كيف يمكن لطفل أن يشعر في سن مبكرة كهذه بأنه قد اقترف «جرمًا» ما؟ كيف؟ ولماذا؟

لا تكفي قواميس الدنيا لترجمة هذا الشعور البغيض الذي يتحكم في حياة كثير من البشر.

وفي كثير من الأحيان أحسد تركيبة البشر الذين لا يعرفون طعم الإحساس بالذنب.

أحاول تحديد هوية هذا الشعور، كيف أجد له تعريفًا يليق بقذارته؟

متى كانت المرَّة الأولى التي شعرت بالذنب فيها؟

هي المرَّة التي ناولت فيها حواء التفاحة إلى شريكها في الذنب.. آدم.

هو شعور وانفعال يضع البعض في خانة المذنب مهما بدا ظاهر «الجرم» بسيطًا.

هو شعور يعذِّب الإنسان وينكد عليه من دون توقف، شعور ينسبه الإنسان إلى نفسه، ويتوقع أنه يتعين عليه معاقبة هذه النفس مهما كلَّف الأمر.. هو شعور يجعلني أحيانًا أشعر بالضيق، بل بالاختناق، لا لشيء، بل لأنني أعتقد أني لا أستحق بسببه الأفراح البسيطة، تلك الحاجة الدائمة إلى اتهام الذات بأشياء لا تستحق أن تتهم بها أحيانًا..

أعرف، بفضل التحليل النفسي، أن هذا الإحساس ينبع من اللاوعي، من الأفكار التي تخرق المحظور أحيانًا، ولا ندرك أنها هنا دائمًا، في مكان ما في علبة العقل الباطن الذي لا يتوقف عن التلاعب بنا.

في تنظير لأحد المحللين النفسيين، اعتبر أن الشعور بالذنب يأتي في سن الطفولة المبكرة، عند عجز الطفل عن الإمساك بغرض يريده مثلًا فيكره نفسه ويعتقد أنه المسؤول الوحيد عن عجزه عن القيام بهذه الحركة فيشعر بالذنب ويحمِّل نفسه ما لا طاقة لها به. قد يلاحق الشعور بالعجز الإنسان على امتداد الحياة بدرجات مختلفة. يليه الشعور بالذنب الذي يتولد نتيجة الاكتشافات الجنسية الطفولية، وهنا لن أدخل في غمار التفاصيل.. تتغذى عقدة الذنب هذه أيضًا على الإنسان طوال عمره وهو غير واعٍ لها.. ثم الشعور بالذنب الناتج عما يُعرف بعقدة «أوديب»، أو عقدة «إلكترا»؛ حيث يتمنى الطفل في لاوعيه، في سن معينة، التخلص من خصمه (أحد الأبوين) للاستئثار بقلب الآخر.

العلاج أو التحليل النفسي لا يحلُّ المشكلة، بل يخفف فقط من ثقلها الجاثم على كاهل المعني بها.

لم أسمع طوال حياتي عن شخص يقول: أشعر بالذنب لأني تخليت عن رغباتي.. بل أسمعه يقول: أشعر بالذنب لأنني تجرأت على تلبية بعض رغباتي.. لماذا؟ أين هو المحلل النفسي ليجيبني الآن على هذا السؤال.. «شو المشكل؟» إذا لم تكن الرغبة في قتل أو سرقة شو المشكل؟ لماذا يتبخر تمردي في هذه اللحظات؟

أشعر بالذنب:

إن قلت كلمة جارحة أو تصرَّفت بعدائية تجاه أي إنسان أو حيوان ☺.

لأنني أراوح مكاني في العمل وأرفض التقدم على الرغم من معرفتي التامة بقدرتي على ذلك.

لأنني دائمًا ما أجد مبررات لتفادي كل ما من شأنه أن يشعرني بالأفراح والملذات الصغيرة.

أشعر بالذنب بعد نجاح ما، أو متعة ما.

عندما أفشل عن عمد في شيء خططت للمسير قُدمًا في نجاحه.

لأنني لا أجيد تقبل المديح أو تلقي الثناء على أشياء أستحق عليها ذلك.

عندما أفشل في قول «لا» عندما ينبغي عليَّ ذلك.

عند كل سيجارة جديدة أقتل بها مخزن الهواء في رئتي.

عندما لا أضحي من أجل الآخرين، أو عندما أقدم رغباتي على رغباتهم.

عندما يزعل مني أحدهم أو إحداهن.

عندما لا أتصل بأمي بانتظام.

عندما لا أبادر إلى توثيق العلاقة مع أخي للمرة المليون.

عندما أعد ولا أفي بوعدي.

عندما أكون أنا.

عندما أهمل حياتي وأضيع الوقت سدى.

عندما لا آكل بانتظام.

عندما أتمتع جسديًّا.

عندما لا أنام.

عندما أكذب.

عندما أقول ما أفكر فيه علنًا.

عندما أقفل مدونتي.

عندما أخاصم أحدهم.

عندما يخاصمني أحدهم.

عندما أغضب.

عندما أفرح.

عندما يرفضني الآخر.

عندما أغار.

عندما أقضم أظافري.

عندما أشعر أني بلا قيمة.

عندما أخذل توقعات الآخر.

عندما أحب.

عندما أكره.

عندما أكتب بعض تدويناتي.

عندما أنشر هذه التدوينة.

عندما

عندما

عندما

عندما

ليش أنا هيك؟

«إنها المرَّة الأولى. لا تنتهي المرَّات الأولى إلا بانتهاء الحياة..» كتبت هذا النص مساء يوم عيد الأمهات هذا العام. لم أفكِّر بنشره.. لكنني الآن، وبعد أن أجريت المقارنة بينه وبين نصِّ العام الماضي، قررت أنني سأنشره من أجلي ومن أجلكِ.

لطالما اتسمت النصوص التي وجهتها إليك في صفحات التدوين بالقسوة.. وأما اليوم فالأمر مختلف.

نادرًا ما عايدتك في عيد الأم، وعندما أفعل، أكون كالتي تقوم بواجب اجتماعي غصبًا عنها..

لكنني أشعر الآن ولأوَّل مرَّة بمعنى أن تكوني أمِّي، وأن أكون ابنتك..

شعرت هذه المرَّة بمحبتك ولهفتك عليَّ.. أيام عيد الأمهات في السنوات الأخيرة كنت بالكاد أتصل بك متمنية لك عيدًا سعيدًا، هذه هي المرَّة الأولى التي أخطِّط فيها للعيد.

وصلت لأجدك في ثياب النوم، وقد طلبت منك أن تجهَزي عند

العاشرة صباحًا، لكنَّك لم تصدِّقيني وظننتِ بأني سأتأخَّر كعادتي أو أنني لن آتي.. لكنني هنا.

ربَّما لمستِني لتتأكدي من وجودي.

هذه هي ثالث لمسة حانية أنالها منك خلال هذا العمر.

الأولى كانت في ذلك اليوم من عام ٨٩.. يوم رحيلي عن البلد. تسللتِ بهدوء واستلقيتِ إلى جانبي في ذلك الصباح. كنت لا أزال أغطُّ في نوم عميق عندما شعرت بيدك تتغلغل في أرجاء خصلات شعري المنكوش حينها. لم أصدِّق! حبست أنفاسي وضغطت على أجفاني لا أريد لها أن تفتح. كنت أريد الاستسلام إلى لحظة الحنان التاريخية النادرة تلك.

لكنَّك فور ما شعرتِ بيقظتي، حتى انسحبت يدك بهدوء، وكأن فعل الحنان في قاموسك خطيئة تُمارس في السرِّ حتى لا يعاقبها القانون. لا يزال ملمس يدك عالقًا بشعري حتى هذه اللحظة.

المرَّة الثانية كانت العام الماضي، في عزِّ أزمتي.. كنت أزورك بانتظام، أحمل أحزاني وآتيكِ لنصمت قليلًا أمام فنجاني قهوة.

يومها مررتِ بيدك إياها بحنوٍّ شديد على وجهي وقلتِ لي: «يا ليت يدي تقدر أن تمسح الحزن عن وجهك».. فبكيت..

المرَّة الثالثة كانت اليوم.. لمست يدك يدي، تمسَّكتِ بها قليلًا ثم ارتديتِ ملابسك وانطلقنا.

انتبهت إلى خطواتك التي أصبحت بطيئة جدًّا، وبأنك تضيعين في الأمكنة والشوارع التي احتضنت صباكِ. كنتِ صامتة كعادتك، لكن فرِحة.. جلسة تسريح شعر وتجميل وعناية بالأظافر، ثم جلسة شراء ملابس، ثم هديَّة

اخترتها بنفسك، ثم غداء، ثم نزهة على الأقدام، وأخيرًا فنجان نسكافيه في مقهى ندخل إليه للمرة الأولى.. كل ذلك وأنت صامتة، بالكاد تجيبين عن أسئلتي.. بماذا تفكِّرين؟ بماذا تسرحين في صمتك؟

«بفكَّر ليش أنا هيك؟»

أسألك: «كيف يعني هيك؟»، فتصمتين من جديد..

ماما، كل عمري ومشاعري تجاهك لم ترجح كفة الحب، كانت متأرجحة، مرَّة غضب ومرَّة لوم وعتاب، مرَّة حقد ومرَّة شعور بالذنب..

لكنني شعرت اليوم، بعد أن أمضينا نهارًا كاملًا معًا، بزوال كلِّ هذه المشاعر السلبية عنِّي، اكتشفت لحظتها أنني أحبُّك، حقًّا أحبك على الرغم من أنك هيك! وربما لو لم تكوني هيك، ما كنتُ لأكون أنا هيك.

لم تتركي يدي طوال اليوم، أحسست بدفء غريب، لا أعرفه، يجتاحني..

أشعر للمرَّة الأولى برغبة ما تجتاحني.. ليست الرغبة في إرضائك أو تحقيق إحدى أمانيك التي راحت تشحُّ مع الأيام.. إنها رغبة جديدة صارخة لا أعرف من أين أتت:

أريد طفلًا الآااان.

الآن.

كلُّ عام وأنا طفلتك..

كلُّ عام وأنتِ أمِّي..

كلُّ عام وأنتِ أنا وأنا شوي مش كتير: أنتِ.

عطر الملائكة

حلم يقظة:

مع الوقت تخفُّ وتيرة أحلام اليقظة.

مع الوقت تصغر الأحلام.

حلم يقظة واحد يراودني دائمًا: مراسم دفني.

أراقب، ميتة، ردة فعل الناس وتأففهم من خلف عينيَّ المغمضتين، حول تنفيذ وصيتي الغريبة: شكل دفني.

سيناريوهات عديدة لم أرسُ على برٍّ منها بعد.

مرة أتخيل طقس دفني حرقًا على الطريقة الهندوسية، يرمى رمادي بعدها في المحيط نكاية في ديدان الموت.

ومرَّة أطلب أن أُسجَّى جلوسًا، ببنطلون جينز وبلوزة زهرية اللون مكشوفة الأكمام أحضرتها خصيصًا لهذه المناسبة..

حذاء رياضي، مع قليل من المكياج يُخفي الاصفرار وتجمد الدم في

العروق، وربطة ذيل الحصان في شعري، بينما تستقر في يدي وردة بيضاء، ومصوِّر محترف يلتقط آخر صور لآخر خدعة اسمها الحياة!

لا رجال دين في مراسم دفني.

أحيانًا أتخيل مراسم دفني على شاطئ البحر، «ديث بارتي» وأخرى في مسرح صغير جدًّا تحت الأرض، مسرح بيروت لا يشكو من شيء.. مرَّة على متن طائرة، وأخرى في حقل قمح شاسع.

مرَّات أتخيل مراسم دفني في مكتبة عامة، حددت بنفسي بطاقات الدعوة إلى هذا الحفل، لا أريد لكل من هبَّ ودبَّ أن يأتي ليشهد على ذهابي. عدد المدعوين في المكتبة العامة محدود، سيتلو كلٌّ واحد منهم بضعة أسطر من كتب أحبها، بينها بعض مقاطع من كتب الأدب العالمي الخالي من الكوليسترول والابتذال.

أحيانًا أستسلم لمراسم دفن كلاسيكية.. مسجاة بفستان أحمر على فراش أبيض وشراشف مطرزة بالأحمر.

لهذا الفراش ميزتان: الأولى: موضوع على الأرض. والثانية: أنه مزود بأحدث صرعات التكنولوجيا، قادر على أداء عمل السخَّان، فتسري في جثتي سخونة اصطناعية، فقط من أجل من سيطبعون قبلتهم الأخيرة على خدي، فلا يفاجئهم جمودي وبرودتي، ولا تسري قشعريرة الموت في أجسادهم.

أحلم كثيرًا بمراسم دفني، ربما هي الطريقة الوحيدة لأتأكد من وجودي على قيد الحياة.

حلم نوم:

رأيت في منامي أنني مستغرقة في نوم عميق على سرير مصنوع من نثار الورد الأحمر.. يأتي ملاك ليقرأ فوق رأسي تعويذة سحرية ويرشني بماء الزهر، فتمطر السماء نجومًا تصهرني وتحوِّلني إلى عطر محدود الكمية، عطر الملائكة.

التحـام

نقلًا عن إعلان الحفاضات: الأولاد ما في أحلى منهم.. بس وهم نايمين.

مهى

تغيرت «كارمن» كثيرًا، أصبحت أكثر إنسانية.. أعرفها منذ عام، لم تكن مرة رقيقة ومتوهجة كما هي اليوم.. تحمِل بطنها أمامها ويزداد نشاطها. امرأة تعيش حَملهَا ببالغ السعادة. تحرص على تدليلي. تشكرني لجهدي غير المدفوع، وتخبرني أن زيادة في الراتب ستصلني قريبًا. أتلمَّس بطنها بناء على طلبها، وأنتظر رفسة ما من قدم غير مرئية.. أندهش ونضحك..

تُصرُّ على مرافقتي حتى محطة القطار، وتطرح عليَّ في الطريق سؤالًا أربكني، لأننا لم نكن وحدنا في السيارة: «وأنتِ ألا ترغبين في طفل؟».

«لا، ربما، لا أعرف، لست متأكدة..»

ترفع حاجبيها دهشة من إجاباتي المتتالية وتسحب سؤالًا آخر: «لماذا؟».

تربكني.

«لماذا ماذا؟»

كررت ما أقوله دائمًا لنفسي: إن لم تكن هناك رغبة حقيقية في طفل فلا أجد داعيًا لإنجابه.. لكنني مؤخرًا بدأت تزورني رغبة عكسية عاجلة سرعان ما تغادرني.. أقول لنفسي: قد أفعلها.. ثم استلَمت «كارمن» دفة الحديث: نادرًا ما صادفت حاملًا تعتبر أنها حققت هدفًا من أهدافها في إنجاب طفل.. نادرًا ما التقيت بحامل لا تتذمر ولا يصيبها غثيان أو تعب. وفي تقديري سيكون لها طفل سعيد، لأن أمه رغبت فيه بشدة.

وأنا!

ما زلت أراوح مكاني، بين الخوف والرعب من الفكرة، وتارة أستسلم لها وتارة أُخرى أعاديها.

أنظر من نافذة القطار، ليفاجئني وجه في منتهى التعاسة، ينفطر قلبي لحزنه، فأكاد أسأله إن كنت أستطيع فعل شيء من أجله، لأكتشف أن الوجه انعكاس لوجهي على النافذة القريبة.

أعمد إلى تسطيح ملامحي، أرسم طيف ابتسامة، فوجهي لا يستحق كل هذا الحزن..

تصلني في القطار هدية غير متوقعة.. فلأول مرة في حياتي أرى رأي العين شيئًا كهذا على الطبيعة: حقول شاسعة من أزهار دوار الشمس.

يا إلهي! كم هو رائع هذا المنظر الممتد بطول الطريق.. في المرَّة المقبلة لن أكتفي بمشاهدتها عن بُعد، بل سأقترب وألتحم بدورانها حتى أدوخ ولا يبقى مَن يخبر عني..

دمـاء

يصطدم لساني فجأة بحرارة سائل يصعب وصف طعمه. دم!

النتيجة الحتمية لتقشير الشفاه بالأسنان.. حركة لا إرادية، غير منطقية كقضم أظافر القدم مثلًا.

حُشرت طاولة المقهى في زاوية ضيقة جدًّا، أجد معها صعوبة في الوصول إلى الكرسي على الرغم من نحولي.

ضاق متن الطاولة بأغراضي، وحقيبة يدي كبيرة على غير عادة، أضعها هي الأخرى على الطاولة، فيحار النادل ويفتش يائسًا عن مكان يضع فيه كأسي والمكسرات. يقترح وضع الحقيبة على الأرض.

لأ!

حقيبة اليد على الأرض تجلب الفقر ـ موروث قديم ـ يضحك.

وضعي، حاليًّا، يقارب وضع الفقر فلأضعها على الأرض إذن.. لا أحد يموت من الجوع. لكن نظرية طازجة تنفي جملتي الأخيرة.

ماذا يحدث في هذه المدينة؟ صرت لا أستطيع الخروج من دون التعرض لمضايقات، أو ثمة شيء ما في شكلي اليوم يجذب المزعجين تجاهي!

تلقفتني شابة على باب المترو فور خروجي منذ ساعات، خمنت بأنها تقصدني بالحديث فرفعت السماعة عن أذني ونظرت إلى بلوزتها المطبوع عليها: معًا لمكافحة الجوع! تسألني هل أرغب في المشاركة في حملة إنقاذ جياع العالم. لأ، شكرًا لا أرغب في ذلك.. في أي شقوق الحائط اختفت جمعيتك عندما جعت ذات مرَّة؟

ثم إنني ساهمت البارحة في إرسال بعض أكياس الأرز والمعكرونة إلى جياع العالم. الأحرى بك أن تقفي أمام قصر الإليزيه أو تجولي بشعار البلوزة في أحياء الثراء الفاحش؛ إذ ربما تجدين ركَّابًا ينضمون إلى حملتك وأشك في ذلك.

أعيد السماعة إلى مكانها الطبيعي: الأذن.

أستقر في عربة المترو.. أسنان تقضم الشفاه بحركة غير واعية لم تصل إلى حد الألم بعد. أضع رِجلًا على رِجل، وأتابع حركة اهتزاز القدم التلقائية على وقع الموسيقى: «أعط حياتك وسيتركونك دون شيء»...

(Give your life And invariably they leave you with Nothing)

يدخل شاب العربة متوسلًا شيئًا يأكله أو بطاقة مترو. أرفع صوت الموسيقى، لا أريد رؤيته ولا استنشاق رائحته التي سبقته بعدة أمتار.. الفرنسيون أقل شعوب العالم استعمالًا للصابون وفُرش الأسنان: شو هالقرف هيدا!

في متجر الأفلام الضخم أتقدم من البائعة بلائحة أسماء لفيلمين ناطقين باللغة الإنجليزية، تعجز عن إيجاد المعادل الفرنسي لهما، فأعود خائبة حاملة فيلمًا لم يكن في الحسبان عن التحرش الجنسي بالأطفال.. لا أرغب في مشاهدته، غير أن الرغبة في اقتنائه طاردتني.

أجلس في هذه الزاوية الضيقة في المقهى وأسأل نفسي الجاهلة: لماذا تنتابنا رغبة في البكاء أحيانًا، هكذا بلا سبب معلن، يستعد الدمع للتدفق كنبع.. فيتدفق.. لماذا لا تراودنا رغبة مماثلة في الضحك، فنفعل بالمثل؟ لا نستطيع الضحك من دون سبب، حتى وإن ألقينا على أنفسنا بعض النكات كهذه مثلًا.

سُئل رئيس لبناني في نهاية عهده عن الكلمة التي سيودع بها اللبنانيين، فنظر إلى الصحافيين بدهشة وقال: «يه! ليش لوين رايحين؟».

في طريق العودة أستقل الباص تجنبًا لمترو وقت الذروة.. أُشعل سيجارة وأمشي نحو موقف الباص.. يستوقفني شاب غريب المنظر والأطوار ليطلب سيجارة.. لو لبَّيت كل الطلبات من هذا النوع في الطريق لعدت خالية الوفاض. أجيبه بأنني لا أدخن وأنفث دخان سيجارتي في الهواء مشيرة بسبابتي إلى متجر التبغ القريب. يشتم أمي وأصلي وفصلي ويخرج كل ما في جعبته من بذاءات يرتجف لها قلبي من فرط فظاعتها لكنني أتابع سيري وكأني لم أسمع شيئًا.

يقفز ثمن علبة الدخان من خمسة يوروهات إلى خمسة يوروهات وثلاثين سنتًا.. وسيرتفع السعر كل شهرين لعجز الضمان الاجتماعي عن تحمل عبء علاج أمراض التدخين. وبحسبة سريعة: إن توقفت عن التدخين سيصبح بإمكاني إضافة عشرين فيلمًا جديدًا إلى مكتبتي شهريًا.

أمام باب المقهى رجل ضخم يجثم على الأرض حاملًا يافطة عريضة: أنا جائع!

على بعد خطوات منه تعزف فرقة موسيقية بيروفية موسيقاي المفضلة.. أضع بعض القطع المعدنية في سلتهم وأدخل إلى الزاوية الضيقة.. أسرح.. أكاد لا أصدق أنني تعلقت مجددًا بحبال الهواء متدلية من مظلة في الفراغ

العظيم صارخة بأعلى صوتي لعله يصل. أسناني تقشر شفاهي، طعم الدم لذيذ، شهي. أنهي كأسي وما تبقى من دماء فوق شفتي، وأركض تحت مطرٍ مفاجئ بأقصى سرعتي، أتمنى لو كان بحوزتي عبوة شامبو.. وألوم نفسي لأنها نسيت أن تطلب من السماء أن تجعل منها مصاصة دماء في حياة مقبلة.

(But she knows where her ticket takes her. She will find her place in the sun. And she'll fly, fly, fly...)

بـراءة

أجواؤك غريبة الفترة دي يا رات.
كأنه فيه شيء عم بيصير! لا أعلم.
بس بتكتبي من جواكي بهدوء شديد ومقلق في
نفس الوقت.
وتلك ليست ببراءة.

سولو

عشنا معًا، منذ عشر سنوات، في ذلك المكان النائي.

في تلك الفترة أهداني أحدهم ذات صباح كتاب شعر لـ«مارجريت دوراس».. أشعار بالإيطالية مرفقة بترجمته الفرنسية.

سرى وقتها تيار بيني وبين هذا «الأحدهم»، تيار من هذا النوع الذي يفاجئنا على حين غرة، من النوع الذي لا تذهب به أو يذهب بك إلى أي مكان وينتهي.

لا أعرف بمساعدة من تمكن هذا «الأحدهم» من رصِّ جملة كتبها بالفرنسية بقلم رصاص في الصفحة الأولى من الكتاب، وهو الذي لا يتقن سوى لغته التي بدأت في تعلمها.

كتب: Nous sommes tous les deux innocents

(نحن الاثنان بريئان.)

قرأت الكتاب، وقتها، مساءً وركنته فوق الطاولة جوار السرير.

في صباح اليوم التالي وبينما كنت مسترخية في ماء الحمام الدافئ دخل عليَّ رجُلي فجأة ليسألني: Qui est le deuxieme innocent?

(من هو البريء الثاني؟)

باغتني سؤاله المفاجئ، وجعلني أغوص بكامل رأسي تحت الماء، كاتمة السؤال مع أنفاسي مدة دقيقة تقريبًا.

لم أكن قد أجبته حتى مساء اليوم على السؤال الذي حرص على طرحه خلال السنوات العشر الأخيرة كلما تذكر.

اعترفت له مساء اليوم بتلقائية تليق بتلقائية سؤاله المكتوم تحت الماء منذ عشر سنوات من دون جواب:

«من هو البريء الثاني؟»

«البريء الثاني هو «فلان!».»

«هل حصل شيء بينكما؟»

«أبدًا.»

«كيف انتهت الحكاية إذن؟»

«كيف تنتهي الحكاية وهي لم تبدأ أصلًا؟»

شرد قليلًا ثم أضاف:

«قيل لي بأنه ودَّعك في المطار عندما غادرتِ نهائيًّا.»

«نعم، تكبد عناء ثلاث ساعات طريق، فقط ليودعني.. ضمني وطبع قبلة على وجنتي، فكدت أمسح دمعة عن خدِّه.. والآن جاء دورك لتعترف!»

قبل النوم

تغلغلت بين كتفه وصدره على الفِراش الدافئ، مستعيدة لحظات نادرة من الشعور بالأمان.

«قص عليَّ قصة لأنام، أريد هذه المرَّة قصة جديدة، قصة لا أعرفها!»

خُيِّل إليَّ أني رأيت طيف ابتسامة تضيء وجه «نون» في ظلمة الغرفة.

صمتَ قليلًا ثم هدهدني على أرجوحة من أحباله الصوتية:

«كان يا ما كان في قديم الزمان كانت هناك فتاة صغيرة مسالمة وحقيقية، أول ما وقع نظري عليها قلت لنفسي سيكون لي مع هذه الفتاة قصة جميلة، وعقدت العزم في سري.

ذهبت إلى عملي الجديد على الرغم من ارتفاع حرارتي وإعيائي كي لا أترك انطباعًا سيئًا عني في أول أيام دوامي. أعطوني مكتبًا كبيرًا في غرفة ضيقة، قبل أن يُفرغ شاغلها السابق محتوياته منها. ثم أشاروا نحو صندوق فارغ وقالوا: «ضع أغراضه هنا». وهي لم تكن بالكثيرة؛ كتب وأوراق وأقلام ودبدوب مضحك معلق على الحائط. ولحسن سوء حظي لم تكن في الغرفة أي نوافذ، فشعرت بالاختناق لندرة فادحة في الهواء وغياب تام لضوء الشمس. وبعد مرور ساعة

دخلت الفتاة المسالمة والحقيقية بثقة إلى المكتب وتجمدت مكانها ثواني، ثم ألقت التحية وسألتني مَن أكون وما الذي أفعله هنا؟ أشارت بسبابتها وقالت: «هذا مكتبي، ولم يبلغني أحد بأنك ستحتله». ثم راحت، وكأنها تعيد تركيب قطع بازل تم تفكيكها، راحت تُفرغ أغراضها من الصندوق وتعلق الدبدوب، كالحزن، في مكانه. أربكتني عيناها، بحر هائل من الزعل حاولَت تغطيته بابتسامة لامبالية وخرجَت. كنت متوعكًا جدًّا، دخلت إلى الحمَّام وأفرغت ما في أمعائي، ثم غسلت وجهي وانتظرت ربع ساعة مرَّت كدهر آملًا أن يفارق الاحمرار عيني.

عادت الفتاة المسالمة قرب فترة الظهيرة، أمعنت النظر إليَّ وسألتني إن كنت بخير، شعرت أنني بخير فور عودتها وبأني لا أرغب في أن تغادر.»

«وبعدين شو صار؟»

«أدمنتُ الفتاة الجميلة المسالمة والتي بقيت قادرة على إثارة دهشتي كل دقيقة، تعلقت بها واحتلت تفكيري أربعًا وعشرين ساعة في اليوم فقط، تعلقت بها حتى صار لحياتي في وجودها معنى مختلف. أصبحت صديقها المقرب، ومستودع أسرارها العاطفية. سافرَت ذات مرة في إجازة لا أعرف كيف مرَّت الأيام حتى ذهبت لاستقبالها في المطار بلهفة وشوق، تأخرت طائرتها الآتية من عمان ثلاث ساعات، فعدت إلى بيتي واكتفيت بالاتصال بمنزلها كل نصف دقيقة حتى أجابت أخيرًا. ذهبت إليها، استمعت إلى أحدث قصص خيباتها العاطفية، وددت الاقتراب منها وضمها وشمها وتقبيلها، لكنني لم أفعل، كل ما فعلته هو أنني وضعت يدي بحنو فوق ركبتها، فأزاحتها برفق قائلة نحن أصدقاء ومن الأفضل أن نبقى أصدقاء فقط، وجرتني إلى عشاء مع زميلة سخيفة لنا، لكنني لم أمانع، كنت فقط أريد أن أكون معها.»

«وبعدين شو صار؟»

«فتنتني الفتاة المسالمة الحقيقية، وأُغرمت بها في سري، حتى دعوتها ذات يوم إلى بيتي، أتت وعقدتُ العزم ألا أدعها ترحل. اقترحت عليها مشروبًا قويًّا، لكنها رفضت، وأمضت الوقت أمام رفوف المكتبة، ثم قالت بأنها تخاف النوم وحيدة و... قاطعتها قائلًا بأن هناك غرفة نوم إضافية وبإمكانها المبيت هنا لو أرادت، لكنها استطردت كمن لم يسمع شيئًا: «لذلك أنام في بيت صديقتي هذه الأيام وعليَّ أن أذهب، لا أريد أن أتأخر». وقفتُ أمام النافذة أراقبها تبتعد في الشارع وقلت بيني وبين نفسي: إذا التفتت، فذلك معناه أنها ستعود.»

«وبعدين؟»

«لم تلتفت، لم تتوقف، لم تتلكأ، واختفت بسرعة. ولم تذق جفوني طعم النوم ليلتها ولا في اليوم التالي، بكيت بكاءً مريرًا طويلًا أمام الجميع، بكاء متيم أضاع قلبه في صدر حبيبته من دون أن يعرف كيف يملأ مكانه. أفرغت ما بداخلي من حزن واستسلمت.»

«و.. ب.. عـ.. د.. يـ..ـــن.... شو.. ص.. ا.. ر.»

«......»

«ززززززز!»

غفوت قبل أن أسمع التتمة، غفوت لأنني خفت من سماعها.. غفوت قبل أن أقول له تصبح على خير، ومن دون أن أقول له إنها حدوتة جديدة لا أعرفها، غير أني، وفي المقابل، أعرف خاتمتها.

تدوينة معذلة جينيثا

أفتقد أشياء كثيرة الآن.. لأنني، كعادتي، أحطم أقربها إلى قلبي.. أحطمها من دون رغبة حقيقية في البناء من جديد ثم أعود فأفتقدها.

سحابة كآبة معتمة تعبر سمائي، سرعان ما ستزول بدورها ككل الأشياء.

أطرد الأفكار السوداء من رأسي.. كلما تخلصت من واحدة، كمسؤول فاسد، تداهمني اثنتان مكانها.. ما هذه الموهبة الرائعة في فبركة المنغصات.. من أين ورثتها؟

تتسرب طاقتي الإيجابية التي حملتها معي من شقوق النوافذ والأبواب.. ثقب أسود ما يمتصها في الخارج.

أرى نفسي واقفة أمام السرير، جسمي مفكك ومهمتي الآن إعادة ترتيب الأعضاء بنسق منطقي.

أعبث قليلًا.. أضع الرأس جانبًا على طاولة مجاورة، سأتركه ريثما أقرر إن كنت سأعيد تركيبه في مكانه أو سأختار له مكانًا آخر.. أفكر في وضعه مكان البطن، أو مكان القدمين.. ليتني أستطيع الرسم لكانت المهمة أسهل..

سأجرب وضع ذراعي اليمنى مكان اليسرى، سأفعل المثل مع الساقين.. لا أعرف النتيجة، فجسمي، حتى هذه اللحظة، مفكك عاجز عن الحركة. أستعيد سؤالًا طفوليًّا: ما الذي سيسقط لو فككنا السرَّة من مكانها؟ ماذا عن النهدين، ماذا لو أبقيت على واحد فقط، أضعه في منتصف الصدر.. لأقوم بتفصيل حمالات تناسب جسمي الجديد.. فقد يجعلني هذا جديرة بالانتماء لسكان المريخ أو كواكب أخرى.

ذكَّرت نفسي بقناعتي القديمة: لسنا وحدنا في هذا الكون، «جودي فوستر» قالت لي ذلك شخصيًا في نهاية فيلم «كونتاكت»: «هل يعقل أن يكون الكون كبيرًا إلى هذا الحد ومصنوعًا للإنسان فقط؟». طبعًا لا يعقل!

أحاول وضع أصابع اليدين مكان أصابع القدمين.. تعود فكرة طفولية جديدة إلى بالي:

إذا كان شكل الإنسان يتطور عبر العصور، ولأزعم أنني أصدق هذه النظرية، إذن لا بدَّ أن أصابع القدمين ستختفي من جسم الإنسان مع الوقت.. ما حاجته إليها؟ التوازن في المشي؟ لا أظن.. ربما كانت أعانته قديمًا على تسلق الأشجار.. أحاول أن أجد لها دورًا أساسيًّا في جسمي الجديد من دون جدوى.. لا بأس، فلتختفِ إذن.. سأكون أول نموذج لإنسان من دون أصابع قدمين. سأوفر على نفسي عناء الاهتمام بشكلها ونظافتها وأناقتها.. سأرمي الأصابع العشرة في سلة فرم الأوراق لأعيد تدويرها كقطعة احتياطية في سفري لكوكبي الجديد. أعيد أصابع اليدين إلى مكانها. هنا أجمل!

تحولت، على ذكر السيرة، إلى نملة صغيرة مجتهدة ومسالمة.. روتينية حياة النمل، لكنه لا يشعر بذلك ولا مكان في حياته للضجر.. لكن النمل يخاف وعدو النمل الأول: الأصابع..

صرت نملة تكره الأصابع وتتجنبها!

والإصبع ليس بالضرورة عدوًّا شريرًا، فقد تربى على هذه الحركة التلقائية عندما يصادف نملة.. ضغطة بسيطة، سيسحقها كأنها لم تكن.

صادفت، في صباح اليوم التالي، جيشًا من النمل على شرفة البيت. أسحب نفسًا عميقًا من سيجارتي المشتعلة، أنفث دخانها على طابور الخطوط السوداء التي تشبه رسمًا متقطعًا في كتاب الأطفال، وأمر فوقها بسبابتي كأني أصلها لتكوين شكل ما. قضيت على عدد لا بأس به منها ولم أصب بأزمة ضمير.

ينشغل بالي كثيرًا عندما لا أصاب بأزمة ضمير.. أشعر وكأن عطلًا ما رهيبًا قد أصاب محركاتي الداخلية. لا شك أنها خامدة في مكان ما..

عرفت أين سأضع رأسي..

أرغب في وضعه على صدرها، أرغب في أن تضمه إلى قلبها، وتقول: لا بأس يا ابنتي، كلنا نسلك هذا الطريق، لكن لا تموتي مِثلي.. عيشي، معه أو بدونه، معه أو ضده، عيشي فقط.

هي لن تقول ذلك، فماذا أفعل برأسي؟

عرفت أين سأضع رأسي..

في مكانه المعتاد، غير أني سأركِّبه في الاتجاه المعاكس.. سأحلق عنه الشعر وسأجعل فيه عينًا واحدة، حتى إذا أخطأت سأقول: أستميحكم عذرًا، فأنا، كما ترون، لا أرى الأمور بنفس منظاركم فإن لي عينًا واحدة!

اختراع

أفرغت الآن علبة لبان الـ«بابل جام» كاملة في فمي، فانتفخت خدودي، وأحاول المضغ بصعوبة كبيرة وسأحاول ألا تقتلع أسناني.. سأمضغها حتى يذوي سكرها، ثم أنفخها كبالونات كبيرة، كبيرة جدًّا لدرجة أنها ستغطي وجهي، وسأغمض عيني وأنتظر أن يأتي أخ لي من زمن آخر، ويفقأ البالون بإصبعه فيلتصق بوجهي، لأحاول إزالة ما استقر منه حول فمي، بلساني، فتراني أمي، وتطلع صرختها وتقول إنني صرت بطول الباب ولا زلت ألعب هذه الألعاب المقرفة، ثم أفتح عيني، فلا أجد أحدًا، سوى بالون منفوخ في فمي لأقصى مداه، فأُعمل سبابتي فيه حتى ينفجر، ثم أضحك وحدي بصوت عالٍ، عالٍ جدًّا، عالٍ لدرجة ستُسمع أمي في الجهة الثانية من الأرض وتعرف أنني أحاول اختراع السعادة!

خارطة من لحم ودم

لم أتعمد النظر إليها، أعني إلى ساقيها.. لكن هذا حدث من قبيل الصدفة إذ جلستُ على المقعد المقابل لها على بعد ساق ونصف عنها.. لم أتمكن من إشاحة نظري، هذه أول مرة تقع فيها عيني على سيقان هكذا. أنزلت نظارتي المرفوعة على شعري، غطيت عينيَّ ومحيطهما، علمًا بأن أشعة الشمس لا تدخل القاعة، مجرد لمبات نيون من تلك التي تستعمل في غرف الانتظار في عيادات الأطباء.. (وأنا، بالمناسبة، أكره الانتظار والأطباء فما بالكم باجتماعهما). لم تلتفت إليَّ أصلًا، بل راحت تلتهم في نهم أُذن امرأة تجلس بجانبها.. لا أنكر جاذبية وجهها وبالتحديد عينيها اليقظتين.. غير أن عينيَّ تسمرتا على ساقيها.. تحميني نظارتي السوداء الآن وأنا، للأمانة، أجيد هذا النوع من الخداع؛ أدير رأسي دورة خفيفة إلى جانب اليمين مثلًا وأتابع التحديق بطرف عيني إلى الأمام.. كانت نحيلة صغيرة القامة.. ترتدي فستانًا أحمر مرشوشًا ببعض النقاط البيضاء، ينسدل واصلًا إلى ما تحت الركبة بقليل ثم تظهر الساقان.

نحيلة لدرجة جعلت جلدها يلتصق بالعظم مباشرة. أراهن أنه لا يوجد لحم تحت جلدها شاهق البياض كمن لم ير الشمس منذ أكثر من عشر

سنوات.. بيضاء لدرجة أعطت عروقها الزرقاء وشرايين ساقيها قيمة لونية أكبر مما ينبغي.. حتى كدت أجزم بأنها من ذوات الدم الأزرق لا يشوبه وجود الأحمر أبدًا.. ساقاها، كيف أصفهما لك.. كيف؟ عصاٍ «بايسبول»؟ (أتكلَّم هنا عن عصا نحيلة، تسمن من أسفلها قليلًا وتضرب بها الكرة التي يتلقفها آخرون بأيدٍ ترتدي قفازات غريبة عجيبة تشبه صدفة من الجلد مرنة وضخمة).

نظرت مطوَّلًا إلى هاتين الساقين، ثم قفزت إلى ذهني صورة لخارطة العالم.. خطوط تذهب في كل الاتجاهات.. منها الرفيع ومنها السميك ومنها النافر.. هكذا كانت شرايين ساقيها، شبكة أخطبوطية من الخطوط الزرقاء.

ضغطت هاتفي المحمول، إذ تنتابني رغبة عارمة في التقاط صورة لأروع خارطة شاهدتها في حياتي.. لكنني تراجعت، فقد كانت ترمقني بين جملة وأخرى بنظرات وكأنَّما أحست باهتمامي الجغرافي بها. ازداد فضولي لمعرفة ملمس الساقين.. رحت أتخيَّل الملمس خشنًا ويدي تلحق بتعرجات الشرايين.. (خصوصًا الرفيعة منها). ثم نظرت إلى ساقيَّ تلقائيًّا، مدَّدتهما إلى الأمام في جلسة صبيانية ورحت أتأمَّلهما.. ثم اعتدلت في جلستي، مرَّرت يدي بتأنٍّ على ساقي اليمنى، لا شرايين ولا خشونة حتى الآن.. ينادي الطبيب باسمها، فتتحرك بأناقة وثبات، تلقي بوزنها الريشة على ساقيها وتغادر القاعة ونحن نتبادل الابتسام الاجتماعي المهذَّب.. غابت المرأة الثمانينيَّة وراء الباب.. نظرت إلى ساعتي، وخرجت بعجل إلى أقرب صيدلية.

أسئلة وجودية

بماذا ستفيدني هذه الأسئلة الوجودية التي أكسر رأسي بها منذ أكثر من سنتين؟

لن يكون لها أي نفع باستثناء أمر واحد: الرغبة في الذهاب والاستقرار في مستشفى للمجانين!

مَن أنا؟ من أين أتيت؟ أين أذهب بعد موتي؟ ما معنى الحياة؟ ما معنى الموت؟ هل هناك حياة بعد الموت؟ كيف خلق الله الكون؟... سؤال واحد من هذه الأسئلة كافٍ لأصاب بانفصام حاد بالشخصية..

لست وحدي مَن يكسر رأسه بهذه المتاهات، كل البشر يفعلون.

لكنني انتبهت اليوم، إلى وجود أسئلة عويصة لا علاقة لها بالوجود من قريب أو بعيد، أسئلة صعبة لا إجابات لها، كتلك الأسئلة التي وصلتني مرة بالبريد الإلكتروني، تدعو للضحك لكنها حقيقية، وهذه عينة منها:

ـ لماذا نرفع أكتافنا إلى الأعلى عندما نمشي تحت المطر من دون مظلة؟

ـ لماذا نقول «هدية مجانية»، وهل توجد هدية غير مجانية؟

- لماذا نخفض صوت المسجل أو الراديو بالسيارة عندما نشعر بأننا قد أضعنا الطريق؟

- لماذا نضغط بقوة على أزرار الـ«ريموت كونترول» عندما تضعف بطارياته؟ هل سيساهم هذا في شحن البطارية مثلًا؟

- لماذا نسأل عندما تمطر السماء ونحن داخل المنزل: هل السماء تمطر في الخارج؟ وهل أمطر سقف المنزل في الداخل من قبل؟

- لماذا عندما نقرأ التحذير على الحائط «احترس من الدهان» لا نصدق ونمر بأصابعنا عليه زيادة في التأكيد بلمس الأثر؟ أتريد من داهن الحائط أن يقسم لك بقبر أمه لتصدق؟

- لماذا نضغط عدة مرات على زر استدعاء المصعد إذا تأخر؟ هل نظنه سيسرع لنقراتنا الهستيرية وكأنه ذراع الـ«بلاي ستيشان»؟

- لماذا نفتح فمنا في أثناء إطعام طفل صغير؟ هل نهدده بأكل طعامه إذا تقاعس عن فتح فمه؟

- لماذا نشعر دومًا بحاجتنا إلى ١٠ دقائق نوم إضافية كلما استيقظنا صباحًا؟

من البطل الذي سيجيب عن هذه الأسئلة؟

هناك بطل من نوع آخر، اسمه «فيليب نيسمان» (صحافي وكاتب يدير مجموعة من المطبوعات العلمية للأطفال) كرَّس كثيرًا من وقته للبحث عن أجوبة لا يطرحها الإنسان على نفسه عادة.. كهذا السؤال الذي طرحته على نفسي صباح اليوم بسبب إهمالي الشديد:

- قبل اختراع محارم دورات المياه الورقية كيف كان الناس يمسحون... (إحم).. أنفسهم؟

أو هذا السؤال:

- لماذا يقود الإنجليز سياراتهم من الجانب الأيمن؟

- كم وزن الغيمة؟

- لماذا يرتدي «سانتا كلوز» ثيابًا حمراء وبيضاء؟

- طالما أن «كولومبوس» اكتشف أمريكا، فلماذا لم تسمَّ كولومبيا؟

- كم شعرة توجد على (أو في) جسم الإنسان؟

وكثير غيرها من الأسئلة التي لا نطرحها على أنفسنا أبدًا..

جاءت إجابته عن سؤال المحارم الورقية على شكل بحث تاريخي صغير: يُنسب الفضل في ابتكارها عام ١٨٥٧ للأمريكي «جوزيف كايتي»، الذي يستحق أن نضع له تمثالًا صغيرًا في كل حمام.. كان الناس قبل الاختراع «يدبرون أنفسهم» بالتي هي أحسن أو بالذي تطاله يدهم، وأما الاختلاف الوحيد عبر العصور كان في خامة التعامل مع الموقف ويحددها مدى ثراء أو فقر الـ... دعونا نقل المتخفف. الرومان مثلًا كانوا ينظفون أنفسهم بإسفنجات أو بالحشائش، بالشعير، بالأقمشة، بحجر، وأحيانًا بالرمل أو بورق الجرائد، وهذه الأخيرة شهدت رواجًا كبيرًا في القرن الثامن عشر.. (هل لهذا علاقة بمصطلح «الصحافة الصفراء»؟).

بس يا بنات، هذه معلومات تاريخية موثقة، والمصدر موثوق بشرفي.

كانت محارم الحمامات الورقية، في بداية ظهورها، حكرًا على مؤخرات الطبقات الغنية، وكانت شيئًا «دولوكس»!

شهدت نهاية القرن التاسع عشر شكل المحارم اللولبية المقطعة كما

نعرفها حاليًّا، ولم تصبح المحارم مزدوجة السُّمك سوى عام ١٩٤٢.. مؤخرًا لفتت انتباهي محارم حمامات ورقية بألوان عجيبة: أحمر قانٍ، أزرق حاد وأسود.. نعم أسود.

«لكنَّ الألمان يفضلون النوع المنقوش بالأزهار، أما الفرنسيون فيفضلون عنها اللون الزهري، بينما يفضل اليابانييون تلك المنقوش عليها دروس لغة إنجليزية، ما يوفر الوقت ويجعلهم أكثر انفتاحًا على ثقافة الآخر.»

هذا الشيء

هذا الشيء الذي يُدعى «أنا».

جملة تلح في رأسي منذ يوم أمس.. هذا الشيء الذي اسمه أنا. أرددها في قلبي مرات عديدة علِّي أتخلص منها.

زارني أبي في المنام بإلحاح مماثل في الليالي الثلاث الماضيات.. لم يتكلم. كان صموتًا ومستعدًّا لرحيل آخر، حاولت استبقاءه قليلًا، لأنني مشتاقة إليه كثيرًا، لكنه نظر إليَّ ومضى.

عدت فتذكرت مناسبة اليوم أنه ومنذ تسع سنوات في مثل هذا اليوم، اتصل بي وسط الأسبوع وكان يتصل بي عادة في أيام السبت، لكنه اتصل كاسرًا ديدنه قائلًا إنه قد افتقدني، وإنه ربما حان الوقت لأفكر في العودة لأن الحياة بدوني لا تطاق، ثم رجاني أن أنتبه إلى نفسي..

ومات.

قلَّ تفكيري فيه مع مرور السنوات، ولم أعد أتكلم عنه باستمرار، أخبرت نفسي أنه مات.

وعلى الرغم من ذلك يهاجمني حنين جارف إليه مرَّة في السنة، وأفتقده افتقاد الكفيف للبصر، فأصور لنفسي أنه هنا، وأتخيل طبيعة العلاقة التي كانت ستكون مع تقدمنا، هو وأنا، في السن..

نعم، أفتقد أبي كثيرًا، وتعود إلى ذاكرتي صور مبعثرة؛ حين كان يأخذ بيدي أيام طفولتي في نزهتنا المسائية اليومية بين أشجار الصنوبر، عندما يهدهدني بالحكايات لأنام القيلولة، لمَّا شالني فوق كتفيه في عيد الشعانين. وأما مراهقتي فقد توترت العلاقة بيننا في أثنائها، وعشت في التباس خوفي منه وتمردي عليه. إذ تعرضت في مراهقتي المتأخرة للضرب على يديه حتى طفح بي الكيل ذات مرَّة وعرفت كيف أحسم مسألة الضرب نهائيًّا.

صور كثيرة، تعجز التدوينة عن استيعابها. أحتفظ بكل رسائله، لأنه لم يكن الهاتف الجوال ولا الإنترنت قد زحفا على حياتنا عندما تركت البيت.

كان يكتب، بانتظام، رسائل تصلح لأن تكون رسائل عاشق. غير أني لن أتصفحها الآن، فأتركها تتخمر في قعر صندوق دفنته عند إحدى صديقاتي. ولكم أفتقده الآن بشدة.

كان بمقدوره دائمًا أن يجد الحلول السحرية الناجعة لمشاكلي الصغيرة والكبيرة على حد سواء، شعرت في وجوده بأن هناك من يحميني ويذود عني وعن مصالحي. لا أعرف لماذا أوحى إلى الآخرين، إلى الرجال خصوصًا، أنني شيء كائن تجب حمايته.

ثم أفقت من غفلتي وتعلمت أنه لن يحميني أحد سوى نفسي، وإن لم يمنع هذا الآخرين من متابعة التعامل معي ككائن يستحق الحماية.

لا أظنني سأضيء له شمعة هذا العام. لا أظن أنني سأزور قبره مرة أخرى. لكن حضوره هذه الأيام كثيف، فهل يكون في مكان قريب؟

هذا الشيء الذي اسمه «أنا» مُرهَق وتعبان.. أثبت لنفسه ولوالده الذي طالما ردد «لن يطلع من أمرك شيء»، بأنه قادر على تحمل المسؤوليات حين يلزم.

أعترف الآن بأنني لم أتمكن من حمل خمس بطيخات في يد واحدة، لكنني حملت ثلاثة.

لن أعيد الكرَّة ثانية، أعرف الآن حدودي، أعرف أنني قادرة على التحكم في انفعالاتي أفضل من ذي قبل، واكتشفت أني طويلة البال حين أريد ذلك.

بقي أن يتعلم هذا الشيء الذي اسمه «أنا» أنه ليس شيئًا، بل كائن حي يستحق الحياة والمحبة، وما عدا ذلك بلا قيمة.

في فيلم «سينما باراديزو» يقول «توتو» للعجوز «ألفريدو»: «سمعت أنك لم تعد تَخرُج ولم تعد تكلم أحدًا». يرد العجوز: «هناك مراحل في الحياة يستوي فيها الكلام وعدمه».

عشرة على عشرة

أحببت كثيرًا الصورة التي وضعها عمِّي «جوجل» على صفحته الأولى بمناسبة عيد الودِّ. أفضل تسميته عيد الودِّ، لأن شكوكًا كبيرة تعشش في رأسي حول واقعية وجود الحب.

أحببت الصورة لأن «جوجل» لم يختر عاشقين فتيين، بل هرمين وعلى حافة قبرهما. لكنهما يتصرفان كالأطفال. فتحمل معشوقته بالونات حمراء ممسكة بيده، بينما يرفع هو عكازه في الهواء كأنهما يرقصان الدبكة. ولتكمل أنت حروف «جوجل» بشكليهما الذي أزاح حروف الـ«O» والـ«G» والـ«L»، «OGL» ربما اختصارًا لجملة «Only great love».

يخطر ببالي قول كثير عن هذه الصورة وما تولده في رأسي من أفكار. وأحيي عمي «جوجل» على هذا النشاط وابتكار الصور والألوان التي يفاجئني بها دائمًا في المناسبات وعند المغيب وعند حلول الليل. أحب الكيفية التي تتبدَّل بها ألوان صفحته الأولى كسماء افتراضية معلنةً الوقت بشكل غير مباشر.

لكنني سأتوقف عند هذه الصورة وحدها.

تزوجنا ـ «نون» وأنا ـ في مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات بالتمام والكمال بعد معرفة وعِشرة دامت ست سنوات.

اقتصر حفل الزفاف على أصدقائنا المقربين، الذين صاروا مبعدين اليوم، وعلى البنتين الصغيرتين وصورهما تشي بحالتهما النفسية في ذلك اليوم. لماذا تزوجنا؟ صديقتي تظن لأنني كنت أخشى النوم وحدي، وهو يظن لأنني أردت التخلص من همِّ سطوة أخي عليٍّ بعد وفاة والدي، وأظنها مسألة الانتقال للعيش في بلد عربي، وربما تكمن الحقيقة في كل هذه الأمور مجتمعة.

لم نحتفل اليوم. لا لسبب، واكتفينا بتهنئة بعضنا بعضًا بالسلامة بما أن الأضرار كانت حتى الساعة مقدورًا عليها، وتبدو الرغبة واضحة لدى الطرفين بالاستمرار. عندما عدت بعد أول مرة غادرت البيت فيها، عدت بقناعة أنني أريد أن أشيخ مع هذا الرجل، هو ولا أحد سواه. اليوم، وعلى الرغم من اللحظات الدافئة الكثيرة التي تجمعنا في هذه الفترة، لم أعد متأكدة إن كنت سأشيخ معه، أو مع غيره، أو وحدي، أو أبدًا بالمرَّة لأني أكره أن أشيخ، وربما انتحرت قبل ذلك بكثير توفيرًا للنفقات وتفاديًا للحيرة.

لكن صورة عمي «جوجل» أغوتني بكل صراحة، وقد أغير رأيي ولا أنتحر، بل أنتظر العمر ليمر، وبحلول عمر الستين أو السبعين وربما في مثل هذا اليوم، سنتشاجر على مسألة «البوالين» الحمراء التي سيرفض أن يبتاعها لي، زاعمًا أن رجلي في القبر أو على حافته تقريبًا، لكنني سأصر وأُلح فيشتريها لي ليخلص من لساني وزنِّي، فأمشي إلى جانبه سعيدة بهذا العمر الذي أمضيناه يدًا بيد، وبـ«بواليني» الحمراء طبعًا.

ولا شي

أتعبني هذا الكتاب، شيء ما يمنعني من تركه كما أفعل، عادة، مع الكتب المرهقة. أبقيه إلى جانب السرير وأقرأ عشرات الصفحات يوميًّا، وأعد الصفحات التي تفصلني عن نهايته ذات الأربعمائة صفحة. أما ترجمته فهي، والحق يقال رديئة، وعلى الرغم من ذلك لم أتمكن من هجره، وأجهل الدافع الذي يجعل رغبتي تتقد في مواصلة قراءته حتى النهاية.

لم أتمكن، وقد بقيت ٧٠ صفحة على انتهائه، من الحكم على مدى جودته.

تذهلنيَ قدرة الكاتب على الدخول في أدق وأتفه التفاصيل. وهو رائع في ذلك بغض النظر عن الضجر الذي تحدثه هذه التفاصيل في نفسي، أنا التي أبادر كل من يدخلني في تفاصيل من أي نوع، وأشهر في وجهه عبارتيَّ القاتلتين: «وصلت الفكرة»، أو «اختصر» تتدليان على جانبي خصري في غمديهما وقد تصاعد منهما الدخان كأي كاوبوي محترم.

كلما سألني أحدهم ماذا فعلت اليوم!

السؤال يحتمل إجابتين:

جواب رقم ١:

ـ ولا شي!

ولو فكرت قليلًا لوجدت أنه ليس بإمكان أحد، باستثناء الموتى، ألا يفعل شيئًا، وهذه إجابة غير مؤكدة طالما لم يعد أحد من العالم الآخر ليسرد لنا تفاصيل يومه. ولكم تمنيت حدوث ذلك ولو مرَّة واحدة.

جواب رقم ٢:

ـ ولا شي، استيقظت عند السادسة صباحًا بعد ليلة نوم عميق جدًّا، نظرت إلى الساعة ثم عدت وحاولت النوم مجددًا فلم أفلح، ونهضت من دون أدنى شعور بالنقمة على فراشي، وحضرت لنفسي قهوتي الأولى.

تأكدت من وجود سجائر تكفيني لفنجانَيْ قهوة، ثم عدت إلى الفراش، مخترقة قانون عدم تناول القهوة في السرير وعدم التدخين في غرفة النوم. طز.. مش فارقة معي، سأقوم «بتهوية» الغرفة كما يجب بعد شوي. وضعت وسادة فوق فخذي واستندت إلى اثنتين وراء ظهري، ثم احتضنت الحاسوب، وجعلت علبة الـ«مارلبورو لايت» والولاعة وكوب النسكافيه عن يساري، والهاتف عن يميني وبدأت طقسي الصباحي. يخترق النافذة شعاع شمس نادر وعظيم. رفعت الحاسوب والوسادة عني ونهضت لأفتح النافذة على مصراعيها، فاندفع إلى الداخل هواء منعش، وصنعت من خيوط الشمس يومي، من دون أن تعكر صفو سمائه اليوم أي غيمة. نظرت إلى الشرفات المواجهة، ثم انتبهت إلى قميص نومي القصير والمحتشم في آن، والذي قلت لنفسي: ربما يشبه قمصان نوم «ماري أنطوانيت». قبل أن أتوقع تلصصًا محتملًا من قبل بعض الجيران العاطلين عن العمل كحالي هذه الأيام. لا بأس. لطالما تمنيت العيش

في منزل بلا ستائر، وهذا ما أعتمده عندما نعيش في أوربا.. فمن سيأبه لنا؟ سيلقون نظرة عابرة غير متفحصة ثم ينصرفون إلى شؤونهم. ليس هذا هو الحال في بيروت أبدًا. عدت ذات مرَّة للعيش فيها وحرصت على اختيار سكن يكاد يطل على اللاشيء، تجنبًا للستائر التي أكرهها. عشت فيما مضى في بيت مقابل حديقة الصنائع، كان المتلصصون من فئة الطيور بأنواعها فقط. وانتقلنا بعد بيت الصنائع إلى آخر في مواجهة مبنى إداري يضم مكاتب فقط، تقفل أبوابها عند السادسة مساءً لنتمكن بعدها من أن نحيا حياتنا بلا ستائر كما يحلو لنا، أو هكذا كنت أظن من شدة طيبة قلبي.

وقعت حادثتان في المنزل المطل على المكاتب؛ عدنا في أولاهما لتونا من البحر، وحدث نقاش صغير بيني وبين البنات على من يأخذ الحمام أولًا. خاسرتان كبيرتان في المعركة، «الصغيرة» وأنا. كان الجو حارًّا، تشير الساعة يومها، يوم الأحد، إلى السادسة مساءً.

بعدما خلعت ملابسي وبقيت بلباس البحر على أساس أنني سأستحم فورًا، لكن رياح «الكبيرة» لم تجر بما تشتهيه سفني. فبقيت بلباس البحر في انتظار دوري. جلست «الصغيرة» إلى الكمبيوتر، وطرحت عليَّ سؤالًا تقنيًّا، فقمت حاملة فهلوتي التكنولوجية لحل مشكلتها، حيث تستقر طاولة الكمبيوتر بمحاذاة شباك مطل على شجرة مشمش تقع عند زاوية مبنى المكاتب. ملت على شاشة الكمبيوتر، ويبدو أن شكلي بالنسبة إلى ناظر محتمل من الخارج يشبه شكل نعامة تدفن رأسها في رمل الحاسوب. تأكدت من ذلك عندما سمعت صيحة مبتذلة مدوية من الخارج:

- يا لها من مؤخرة!

لم أفهم، على الأرجح، ما حدث في الثواني الأولى التي تلت الصيحة، وما كنت لأعتبر أن الأمر يعنيني لولا أن انطلقت صيحة امتنانه المبتذل ثانية:

ـ انظر يا صاحبي لملكة جمال المؤخرات تلك!

نظرت الصغيرة، التي لا تفهم العربية، من النافذة وسألتني:

«ماذا يقولان؟»

«يقولان؟ مَن؟»

حدَّقت خارج النافذة فرأيت عاملين يقفان على حافة أحد الطوابق لتصليح عطل مبرد الهواء استدعى وصولهما على جناح السرعة. تراجعت إلى الخلف قليلًا، وصعد الدم إلى يافوخي. ليس خجلًا، بل غضبًا. سحبت منشفة قريبة بسرعة وتدثَّرت بها واقتربت من النافذة وكلت لهما الشتائم من عيار «جو جو» وعاد لساني لفمي بسلامة الله.

ثم أغلقت النافذة وانسحبنا من الغرفة.

الحادثة الثانية حدثت قرب العاشرة ليلًا. الوقت، والجو، صيف. ونحن في الصالة، هو يشاهد التلفزيون وأنا أقرأ. هذه المرة كنت محتشمة؛ تي شيرت وشورت أسودان. نوافذ الصالة واجهة زجاجية طويلة عريضة. والنوافذ مفتوحة، لأتجنب هواء المكيف الصناعي بقدر الإمكان. مددت ساقيَّ على الحائط وقلبت رأسي على حافة الأريكة كعادتي ليسري الدم بشكل أفضل إلى دماغي كما أعتقد. وبينما أقرأ بهذه الطريقة العجيبة لمحت في ظلمة الخارج شبحين على سطح المبنى إياه. ظننت في بادئ الأمر أني أتوهم، حتى ركزت نظري كهر يتلمس طريقه في العتمة محافظة على هدوء رأسي المقلوب، رأيت على السطح ظلين منكفئين على سوره. عمَّ تتلصصون؟

على العالم في وقت لا يحق لكما التواجد فيه من الأساس؟ ماذا تفعلان هنا؟ ولماذا هذا الخبث في العتمة؟ ذكَّراني بجارين من جيراننا وأنا صغيرة في بيت أهلي الجبلي. كانا يتلصصان على الجيران من زوايا الشرفات ليلًا. وكنت أكرههما للغاية، وأتجنبهما إذا زارانا وعندما ألتقي بهما في الطريق. أعترف الآن بأنني أعشق التلصص، لكنني لا أختبئ في العتمة عندما أقوم بذلك، بل أعلن عن وجودي إذا تسنى لي الأمر. أعرف متعة التلصص، ولكني أتلصص بشرف، اعتبرتني «روبين هود» التلصص. أتلصص وأوزع محصول القصص هنا على جميع القراء بالتساوي! المهم، تلكأت قليلًا قبل أن أعدل من جلستي وانسحبت تكتيكيًّا إلى غرفة النوم التي تطل نافذتها على حائط مسدود وعشت حياتي. وفي صباح اليوم التالي، كنت على موعد مع خياط الستائر وعيناته التي تحولت من شرانق عينات إلى ستائر مكتملة سدت الضوء بعد أسبوع عن كل النوافذ في كل البيت بما فيها المطلة على الحائط المسدود.

ماذا كنت أقول قبل هذه الحكاية؟ آه.. كنت أخبركم عن تفاصيل يومي المملة، محاولة بذلك تقليد ذلك الكاتب وكأنني نسخة مشوهة لكاتب حقيقي وموهوب.

فتحت النافذة وقررت ألا أعير الجيران بالًا، ربما يضفي على يومهم شيئًا من البهجة منظر «ماري أنطوانيت» وهي تتصفح الإنترنت وتشرب القهوة بينما تدخن.

طز في الجيران.

تصفحت بريدي الإلكتروني الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، عدت فأغلقت الرابع، ثم ذهبت إلى «كتاب الوجه» رددت على بعض الرسائل

التي فاجأتني إحداها، فاحترت هل أضم صاحبها إلى لائحة «أصدقائي» أم لا. أجلت التفكير في هذا الموضوع، ثم قرأت الصحف التي أكتفي منها بصفحات المنوعات والثقافة والصفحة الأخيرة وبعض المواضيع التي تهمني تكنولوجيًا وعلميًا وطبيًا ونفسيًا، لا أقترب من السياسة إلا إذا حدث أمر جلل أتحول عندها إلى أخرى، كما يحدث في بيروت حاليًا. أو رأيت نفسي، فجأة، أهتم بأمور الاقتصاد لأفهم لماذا يعاني العالم من أزمة غذاء وقد فهمت.

«فليأكلوا البسكويت» كما تقول «ماري أنطوانيت» الحقيقية هذا إبان الثورة الفرنسية (أم إنني مخطئة؟) إن كانت هي فسأقول: يا للصدفة السعيدة، إن استرسالي في الأفكار جعلها تحط رحالها مرتين في تدوينتي هذه. لم يكن الفيلم الذي شاهدته عنها منذ سنة أو أكثر سيئًا.

انتهيت من تصفح الجرائد وفكرت في ضرورة تسجيل عناوين بُرُدي الإلكترونية (جمع بريد)، وكلمات سرها في دفتر صغير لأنني أنسى وقد يحدث لي ذلك فلا أعرف كيف «أدخل في الوطن».

فتحت علبة سجائري، هممم.. جيد لا تزال هناك أربع سجائر تكفيني لفنجان القهوة الثاني بعدما دخنت عددًا مماثلًا.

أعرف أني أدخن كثيرًا، وأقول لنفسي: سأموت، كجدِّي، بسرطان الرئة. عزائي الوحيد أنه مات في عمر الثمانين. فاجأت نفسي بالأمس أقلده دونما قصد: أشعل السيجارة بجذوة السيجارة. لأصل إلى حالة كهذه، فهذا يعني أنني مأزومة ومش منتبهة. لا بأس، ها قد انتبهت الآن.

تحركت من سريري في تمام التاسعة والنصف؛ نظفت أسناني وغسلت وجهي وقمت بالحركة الصباحية المعتادة أمام المرآة: ابتسامة قوية ومفتعلة

أقيس بها حدة التجاعيد. هممم اليوم وجهي ناشف، لم أستعمل كريمات منذ عدة أيام، فجف وجهي بمعنى الكلمة وامتد خط التجعيدة قليلًا لأبعد من الحد المعقول. لا بأس أنا أحب تجاعيدي، أو حتى أكون أكثر دقة سأحبها لما تستقر فعليًا، هي الآن تلوح في الأفق. صرت أشتاق لرؤية امرأة بتجاعيد، إنهن في طور الانقراض، مَن سيحافظ على هذا الصنف من النساء غيري؟ ها؟ مَن؟ هذا إن لم أغيِّر رأيي لاحقًا.

اهتممت، بأناقة البيت بعض الشيء، ورتَّبته كما ينبغي، ثم عدت وتذكرت أن الرجل توحَّم على طبخة «مجدرة» ولا يجوز، وقد وعدته، ألا أفي بوعدي. ارتديت ملابسي وتعطرت ونقلت بعض الأغراض من حقيبتي الكبيرة إلى حقيبتي الصغيرة، تأكدت من وضع المفاتيح وتوجهت أولًا إلى دكان التبغ، اشتريت حاجتي ثم توجهت إلى السمان، واشتريت العدس، عدت وتجولت قليلًا في السوبر ماركت القريب الذي اشتريت منه ست علب صغيرة من الحليب وعلبة كورن فليكس بالألياف، تجولت بعدها قليلًا في الحي، وشربت قهوة في مقهى يطل على الشمس وعدت أدراجي.

اتصل بي «نون» عدة مرات لأسباب تافهة، وكنت في كل مرة أردُّ. تابعت القراءة قليلًا في الكتاب الذي أتعبني، عدت وتفقدت بريدي، وبعض المدونات، وكتاب الوجه، حللت قطعتين من البازل الافتراضي في كتاب الوجه، ثم تفقدت بريدي علمًا بأني لا أنتظر شيئًا من أحد.. ثم عقدت العزم على الانتهاء من المهمة الصعبة: الطبخ. سلقت العدس، وقليت البصل، ريثما ينضج العدس، ثم عدت إلى الحاسوب، وتجولت على عدد من المواقع المهتمة بتنظيم رحلات فردية إلى الصحارى. اكتشفت أن الوقت فات.. يتعين عليَّ الانتظار حتى شهر أكتوبر أو نوفمبر. أسعدتني رحلة مراكش، لكنني هذه المرة أرغب في القيام برحلة وحدي، أتوق إلى الذهاب

إلى مكان لا أعرف أحدًا فيه ولا أحد يعرفني. جربت «أيسلندا» وحفظت الصفحة الخاصة بالرحلة. منذ أكثر من سنة وأنا أحلم بالسفر وحيدة إلى أرض معزولة ومهجورة من دون أن أنقل الحلم إلى حيز التنفيذ؛ لأنني جبانة، أخاف من مواجهة مجهولين في أرض مجهولة وحدي.

من جهة ثانية، قلت لنفسي: إن تمكنت من القيام بهذه الخطوة وكسر حاجز الرعب، فلا بد أن كثيرًا من مخاوفي الأخرى ستتحطم بدورها. عليَّ قبول وحدتي خارج هذه الجدران الأربعة، وتكريسها مع الغرباء بعدما كرستها مع الأقرباء.

فاح عبير العدس المسلوق، فكرت، هل أطحنه بالمطحنة الكهربائية أم التقليدية؟ ثم اعتمدت التقليدية، لأن استعمالها سيقوي عضلات ذراعي. طحنت العدس بغِلٍّ، بل أفرغت كل طاقتي في طحن العدس، حتى صار حساءً ممتازًا، لدرجة أنه لم يبقَ منه قشور في المطحنة. نجحت طبختي. دلعت نفسي بمغطس متوسط الحرارة. حملت زجاجة مشروبي وسجائري وأدرت موسيقى «ليلي بونيش» المتوفَّى حديثًا كما أظن، وغرقت في دخاني وأفكاري. لم أتأخر، تكثف البخار على قلبي فخرجت. كم هو جميل ذلك الشعور بالنظافة، يعطيك إحساسًا بالخفة وبالقبول. ثم شاهدت فيلمًا نسيت اسمه، لكنه حاصل على جائزة في «كان»، جميل لكن نهايته كارثية، كما أحب النهايات تمامًا، لكن كارثيته فاجأتني حقًّا، لم يحدث أن فعلها معي مخرج ما لتلك الدرجة. ينتهي الفيلم بغتة في الوقت الذي يوهمك المخرج أن الحل بات وشيكًا، وهنا ينتهي الفيلم ويترك المشاهد هو وشطارته. لكنني لم أصدع رأسي كثيرًا بتعداد الاحتمالات وهي لا تُعد أو تُحصى، وبما أن المخرج أتاح لنا تخمين النهاية، اخترت بدوري نهاية شنيعة لم يخترها كأقل تقدير له.

ثم وصل الرجل إلى البيت، فنزلنا وتمشينا في الحديقة القريبة، تحدثنًا قليلًا عن لا شيء. عدنا وتناولنا العشاء مع أحاديث متقطعة حول صغائر الأمور. اقترحت مشاهدة فيلم.. شاهدنا فيلم الساعات، فاكتأبت، وتذكرت أنني، أيضًا، أشعر بفقد مكاني ولا أفعل شيئًا للبحث عنه. تراودني فكرة الرحيل. أتناول مجلة أواظب على قراءتها. ملف الشهر: أحدث أمراض العصر: الحاجة الدائمة إلى الهرب، إلى الرحيل، أغلقت المجلة من دون قراءة. فتحت مجلة أخرى: صحافي يحكي، في أربع صفحات، رحلته المنفردة إلى الصحراء!

أليست هذه علامة؟ أرتدي ثياب النوم، لا حاجة لي بقميص «ماري أنطوانيت»، أرتدي بيجامة، أندس في السرير في محاولة لقراءة بعض السطور من الكتاب الذي أتعبتني تفاصيله. أضجر، أكتب هذه التدوينة التي يبدو أنها طالت كثيرًا، حان وقت النوم، سأنام ككيس البطاطا.

يندس إلى جانبي في السرير، يسأل:

«بالمناسبة، ماذا فعلتِ اليوم؟»

«اليوم؟ ولا شي!»

هنـاك

إن طلبتَ مني أن أروي لك قصة يومًا ما، سأروي لك قصتنا، لأني أعرف كيف أتصرف بها، فأنا البطلة فيها.. ثم إنك لا تهتم باقتراحي: نكتب قصتنا، كل منا حسب وجهة نظره، أظنها قصة جميلة، شائكة ومعقدة شأنها في ذلك شأن جميع القصص الجيدة، لكنها جميلة على الرغم من تعقيد خيوط حبكتها، ولكم أحبها مثلما أحب القصص التي ترويها لي قبل النوم، أحبها مثلما أحبك.. اليوم أكثر...

دعك من القصة الآن.

سأعود إلى الكاتب الذي يرهقني.. كتاب آخر في حدود الـ٧٠٠ صفحة، ما إن أتركه لتأدية عمل ما، حتى ينتابني شعور بأن حدثًا مهمًّا ينتظرني.. أحمله معي، في الطريق، في الباص، في المقهى، في السرير.. كتاب لا ينتهي.. يسعدني دائمًا الشعور الوهمي بأن الأشياء لا تنتهي.

تجتاحني، عندما أقرأ لهذا الكاتب، رغبة في التدوين عن مواضيع كثيرة وعن لا شيء..

لم أعتد على المكان الجديد بعد، وكلما عدت أدراجي إلى البيت أسلك طريق البيت القديم، ثم أنتبه لخطئي في العنوان.

لا أعرف متى بدأت هذه التدوينة، بالأمس، أم أول أمس؟ لم أعد أذكر، أعرف أنني لم أكملها وتركتها بين المسودات ونسيت الآن ما كنت سأقول عندما بدأتها. لا يهم، ماذا سيكون؟ كلام فارغ في الهواء. والهواء الذي يحيط بي ثقيل.. كظلي هذه الأيام.

كيف يكون الظل ثقيلًا، ما علاقة الثقل بالظل أصلًا، ولماذا تسيطر عليَّ فكرة الظل؟

ربما لأنها وردت في أكثر من موضع في الكتاب الذي أرهقني حتى انتهيت من قراءته منذ بضع ساعات. أنهيته وما زلت أقرؤه ثانية في رأسي، لا يريد أن يتركني وشأني.. ظننتني الوحيدة التي أصابها هذا الشيء، بعدما انتهيت منه، زرت عمي «جوجل» وبحثت فيه عن مقالات تناولت الكتاب لأفاجأ بأن الذين كتبوا عنه، شعروا بما شعرت به.. أرغب في قراءته ثانية، لكن لا قِبل لي بذلك، لن يخطفني كما فعل في القراءة الأولى.. شعرت بأسى بالغ فور فراغي منه. لم أكن أريد له أن ينتهي.. لكن صفحاته نفدت وتركني في حيرة كبيرة، لا أعرف مصدرها.. أعتقد أنه من أروع الكتب التي قرأتها.

وددت دخول الكتاب، لأتحول إلى بطلة من بطلاته، أعيش خارج الزمن وأكون شيئًا هلاميًّا غير موجود، وغير ملموس، وغير واقعي.. مستحيل.. أعرف، هذا لا يحدث إلا في الروايات.. أتحفت نفسي قبل هذا الكتاب بنظرية مفادها أن العيش مع الكتب أمر سيئ يجعل الناس تغوص في وحدتها لتنعزل شيئًا فشيئًا عن الدنيا، مع الاعتذار لعمي المتنبي، بينما أدحض زعمه بأن: «خير جليس في الأنام كتاب».

وبما أن كل نظرية «بها حاجة إلى برهان يدحضها».. فقد دحض كتاب

«موراكامي» نظريتي الحديثة.. انتابني شعور غريب لم أعرفه مع حبيب أو عشيق أو أحد.. إحساسك بأن شيئًا مهمًّا، وممتعًا، وساحرًا في انتظارك وحدك.. أعرف أنه في نهاية المطاف مجرد كتاب، لكنني انسطلت وانسحرت به ولم أعرف كيف التهمته التهامًا في يومين أو ثلاثة على الأكثر.

رجعت الحياة إلى روتينها المعتاد. بيت جديد، لا أصوات مقلقة من حوله، بل صمت يشغل البال. تشغلني عند انتقالي إلى بيوت جديدة مسألة الأصوات المحيطة، ولا أرتاح إلا بعد تحديدها ومعرفة مصدرها.. هنا لا أصوات.. باستثناء العاصفة التي هبت ليلة الأمس، والرياح القوية لا يمكن احتسابها كأصوات.. كنت في أول نومي عندما هبت الريح، لم أعرف أين أنا بالضبط، ولم أكلف نفسي عناء فتح عيني لمعرفة مكاني. كان صوتها يشبه تمامًا صفير الرياح التي كانت تهب شتاءً في قريتي الجبلية. غرقت أكثر تحت اللحاف وانتقلت إلى هناك.

لم تكن التدفئة هناك حديثة، مجرد موقد حطب في غرفة الجلوس، يشعله أبي عند الصباح الباكر في انتظار استيقاظنا من النوم، ونطفئه قبل النوم بقليل. أما بقية أرجاء المنزل فكانت باردة.. نستعين أحيانًا بمدفئة كهربائية إذا انخفضت درجات الحرارة إلى حد غير معقول.. أذكر أيام غرفة النوم الباردة التي لا ندخلها إلا للضرورة القصوى: النوم..

كانت أمي تضع غطاءً صوفيًّا فوق ملاءة الفراش، وآخر مثله تحت اللحاف ثم اللحاف ويأتي فوقه غطاء صوفيٌّ ثالث.. متوهمين أننا نقضي بذلك على البرد القارس.. المرحلة الأصعب كانت لحظة الدخول في الفراش، وكنا نرجو بعضنا بعضًا أن يسبق أحدنا الآخر ويندس في أحد الأسرة لتدفئته.. ندخل في الفراش متكومين كالأجنة على أنفسنا، تصطك أسناننا قليلًا، إلى أن يبدأ الجسم في بث الحرارة في المحيط القريب..

ولو أبعدت رجلك بضعة سنتيمترات عن موضعها الدافئ لتخلل البرد عظمك مما يجعلك تعيدها في لمح البرق إلى مكانها الأساسي.

في الغرفة سريران عريضان، والغرفة برمتها هدية زواج من جدي النجار لأمي، صنعها بيديه، كانت العادات تفرض على العروس إحضار غرفة نومها معها إلى بيت الزوجية.. لا يزال أثاثها صامدًا حتى اليوم، كأنه صنع كي يبقى إلى الأبد.. أما الخزانة فكانت بأربع درفات: واحدة لملابس أبي وأغراضه يقفلها دائمًا بمفتاح لا نعرف مكانه، ودرفتان عريضتان، تعلق أمي فيهما ثيابها، وأرضها محشوة بالملاءات النظيفة، أما رفها الوحيد فكانت تضع عليه جهاز عرسها.. تنقسم الدرفة الأخيرة إلى أربعة رفوف وأربعة أدراج. الكنزات والمناشف على الرفوف. أما الأدراج فكان أولها لها تغلقه بمفتاح، نعرف مخبأه، والدرج الثاني لملابسي الداخلية، والثالث لأخي، والرابع لأبي.. لما كبرنا ولم تعد الخزانة تتسع لكل هذه الزحمة، أتوا بخزانة ثانية احتلت أغراضي الجزء الأكبر منها.

كنت وما زلت أكره ترتيب الخزائن، وهذا هو صُلب معاركي معها على الدوام، فهي لا تحب جبال الملابس التي أكومها فوق الأسرَّة، وأنا أعشق الجبال بطبعي، كرهت كذلك نشر الغسيل، وإذا طالبتني بذلك لنشرته كيفما اتفق، فتغضب وتؤنبني لأنني افتتحت لتوي معرضًا يعرض ملابسنا الداخلية على أبناء الحي، وتعلمني طريقة مضحكة في النشر: الملابس الداخلية تنشر على الحبال في الوسط والمناشف والشراشف تحيط بها على الحبال الخلفية والأمامية، «هيك لا مين شاف ولا مين دري.» حتى يئست وكفَّت عن مطالبتي بنشر الغسيل.. لماذا أتحدث عن الخزائن؟ ربما لأنني لم أرتب خزانتي في البيت الجديد كما ينبغي عليَّ بعد.. وربما لأن هزيز العاصفة قبل الأمس أعادني متوهمة إلى بيت أهلي الجبلي.. كل شيء يعلوه الغبار هناك

الآن.. لا تزال الطاقة الصغيرة في أعلى السقف، والمفتوحة صيفًا وشتاءً، على حالها، تأتي الدبابير أحيانا وتبني أعشاشها فيها.. قبل أن تهجرها بعد فترة تاركة وراءها بيوتًا طينية صغيرة بعشرات الفتحات..

يقول الكاتب الياباني «هاروكي موراكامي» إن طبيعة المكان الذي ولدنا ونشأنا فيه تلاحقنا مهما ارتحلنا، وإنه من الأفضل لنا أن نموت حيث وُلدنا.. لكنني لست سمكة سلمون ولا فيل لأفعل ذلك.

أستمتع بصفير الرياح إياها، يمنحني شعورًا بالدفء والأمان تحت اللحاف، لأشعر أني بمنأى عن كل ما يحيط بي في زمهرير الخارج، أتعلق أكثر بالداخل إلى حد المتعة وأغفو.

حياة واحدة لا تكفي

«حياة واحدة لا تكفي لأمشي وأسبح وأطير في الوقت نفسه».. تلزمني حياة أخرى حتمًا.

ماذا أفعل في هذه المدونة؟ ماذا كنت أفعل فيما سبقها من مدونات؟ أفعل ما يفعله المئات، بل الألوف وحتى الملايين مثلي حول العالم. يفرغون حياتهم اليومية وبعضًا من ماضيهم وأحلام مستقبل غير مضمون على الشبكة.. «تمارين الحمية العامة»، كما يسميها أحد المحللين النفسيين هنا، معتبرًا المدونة وسيلة لمعرفة الذات وأحد سبل تطورها وارتقائها.

لا يمكنني الجزم بأن التدوين في مراحله الأولى، منذ عامين، قد غيَّر حياتي، هذه مقولة كبيرة.. لكن لا بد أنه ترك أثرًا ما، لا يمكنني تحديده بدقة في هذه اللحظات.

تصبح المدونة كحيوان أليف عليك إطعامه مرة، على الأقل، في اليوم، طبقه المفضل: البوح.

حيوانان؛ المدونة: حيوان افتراضي، وأنا: حيوان بشري على موعد منتظم،

معظم الأحيان، مع ذاتي. أفرغ شحناتي السلبية التي تلوث أيامي وأحيانا شحناتي الإيجابية التي تلون هذه الأيام. وشحناتي اليوم ملونة زاهية.

خزانة انفعالاتي، هذه هي مدونتي.. خزانة سبق أن ساهمت في تغيير نظرتي إلى نفسي لما كانت مفتوحة للعموم تتلقى التعليقات على اختلافها من كل حدب وصوب (حدب وصوب؟).

هنا، وفي تلك التي ماتت، كنت أقول أمام الغرباء بما أعجز عن قوله لأقرب المقربين، وحتى لنفسي، وكأن حياتي تتخذ طابعًا مُهمًّا (بالنسبة إليَّ على الأقل) عندما أشعر بأنني أجيد سرد القصص، وكأن حياتي تصاب بعلامة تعجب عندما تكتشف ماذا يفكر الآخرون بها..

ما علينا...

دودة

أصعق كلما فكرت في كمِّ الأشياء التي لا أعرفها في هذا العالم.

تمنيت أن يبدأ يومي بمزاج جيد، المؤشرات، حتى الساعة، لا توحي بذلك.. صحوت مبكرًا عند السادسة والنصف لإنهاء تقرير يتعين عليَّ تسليمه مساء اليوم.. أوشكت، تقريبًا، على الانتهاء منه، وبقيت اللمسات الأخيرة وبعض التعديلات التي خطرت على بالي في أثناء النوم.

شغَّلت الحاسوب كالعادة، وتركته يبدأ مهامه بينما دلفت إلى الحمام، مسألة تنظيف أسنان وأشياء أخرى، حضَّرت قهوتي، ولبست ثيابًا رياضية سوداء، واستقر بي المقام في زاويتي.. لكن الحاسوب اللعين رفض أمر التشغيل.. لا باللين ولا بالعنف.. دبَّ الهم في رُكبي.. ماذا أفعل؟! أمسكت فورًا بقائمة الأرقام الهاتفية، أبحث فيها عن صديق أو عدو يملك جهازًا يطبع الأحرف العربية، أولًا.. أجد اثنين، لكن لا يمكنني الاتصال بهما في السابعة صباحًا، عليَّ الانتظار حتى العاشرة.. ثم ندبت سوء حظي على جهدي المضني الذي بذلته طوال الأمس في إعداد التقرير وها قد ذهب سُدى.. ثم حاولت تهدئة نفسي قائلة: لا داعي للهلع، حادثة وقعت ولأتأقلم معها لأجد حلًا لها، الندب لن ينفعني وإلا أكون أهدرت ما تبقى لي من طاقة،

هباء.. فكرت في أخرى.. بما أني أحتفظ بمسودة التقرير المبدئية في بريدي الإلكتروني، وأحفظ في رأسي ما كتبت، يمكنني إعادة كتابة التقرير من جديد حتى لو استغرق الأمر اليوم بأكمله.. لكنني لا أريد أن أكون مدينة بالجميل للصديقين مالكَي الحاسوب العربي في يوم أحد جميل كهذا.. سأنزل إلى أقرب «إنترنت كافيه»، لأطبع المسودات، وأعيد الكتابة بخط اليد، وأتصل بالمسؤول أبلغه بالعطل التقني، وبأنني سأقدم المخطوطة بخط اليد استثنائيًّا للسبب سالف الذِكر.. منذ متى لم أكتب شيئًا على ورق، منذ عصور ربما.. يا ربي وعليَّ أن أعتني بأناقة خطي، لا يجوز تسليم أوراق بخط يشبه خط الطبيب أو «تخربش الدجاج» (تخربش الدجاج: مصطلح محلي يدلُّ على رداءة الخط كنا نسمعه صغارًا).

أعجبني الحل الأخير، وودعت مشاريعي إلى يوم الأحد هذا، وجلست أرشف القهوة وأدخن بانتظار الساعة العاشرة.. وفي لحظة غضب سددت لكمة قوية إلى طابعة الحاسوب، فإذا به يدور ويشتغل.. هكذا هو مثل بعض البشر: ما بيمشوا إلا والجزمة على رأسهم، أو بتعبير أدق ما بيمشوا إلا بالصرماية..

لا يمنع أنني شكرت ربي مائة مرة لما اشتغل، ثم حقدت عليه وقررت استبداله في أقرب فرصة ممكنة.. هكذا يكون تكدس في بيتي حاسوبان عاطلان عن العمل، لا أعرف لماذا، ولا ما الذي سأفعله بهما.

ظننت أن مزاجي سيعتدل، فبدأت العمل بهمة ونشاط، آملة أن أنتهي خلال ساعتين على الأكثر، لكنني تجمدت، عندما وقع نظري على الحائط.. هي مرة أخرى! فانخرطت في نوبة بكاء مرير طالت نصف ساعة، غصب عني.. كتبت له أخبره بضيقي، فأنا لا أحب الاتصال به في مقر عمله، لأنني طالما سخرت من زوجات زملائي اللواتي يتصلن بهم في مقر العمل مائة مرة في اليوم، (منشان إيه ومنشان لأ..)

تأكدت أن وساوسي تزيد، وأن الأمر خارج عن إرادتي، وصار لي أعداء غير مرئيين، ألمح بعضهم من حين إلى آخر فأشعر أنني أتآكل..

كيف بدأت الحكاية وأين؟

في البيت القديم.. عندما كنت مرة أقضم تفاحة، فوقع نظري على غطاء الأريكة الصوفي، لأجد حشرة صغيرة لا يتعدى طولها الملليمترين، شبيهة بالدودة، تتحرك ببطء.. ظننت لوهلة، من شدة سذاجتي، أنها من فصيلة دود التفاح الذي كنت أراه في القصص المصورة والرسوم المتحركة، ظننتها سقطت من التفاحة.. مهبولة أنا طبعًا! أزلتها بمحرمة ورقية، ورميت التفاحة، ولا زلت ممتنعة حتى اليوم عن أكل التفاح..

نسيت أمرها تمامًا، سافرت وعدت، ثم سافرت وعدت، ثم سافرت إلى بيروت.. كان ذلك في شهر تموز (يوليو) الفائت.. نزلت عند رغبة صديقة لي في النزول بضعة أيام في بيتها، فنقلت أغراضي من الفندق واستقررت أنا وحقيبتي (الدبابة) في غرفة الضيوف..

استيقظت ذات صباح ولم أتحرك من فراشي، بل استلقيت على جنبي أفكر في أمر ما، أعرفها هذه النظرة، لقد ورثتها من أبي.. أذكر جيدًا كيف كان يتناول كل يوم قهوته الصباحية جالسًا على كرسيه المفضل، وكيف كنت أشاركه هذه الجلسة التي كان دائمًا ما يشرد فيها لدقائق.. أذكر كيف كنت أراقب شروده، يحدق في اتجاه النافذة بعينين مفتوحتين جيدًا لكنه لا يرى، كمن ينظر إلى الداخل، إلى داخله، وكنت في هذه اللحظات عندما أقول له شيئًا، لا يسمع، فألوح له بيدي أمام عينيه: إيه أوه، فيعود إلى الواقع.. لم أسأله مرة بماذا يفكر أو أين سرح بأفكاره، لم تكن شؤونه تعنيني كثيرًا.. السؤال الوحيد الذي كنت أطرحه عليه دائمًا في هذه الجلسات، لم يكن

يملك إجابة عليه ولا مرة.. كنت أسأله لماذا كان يصرخ في الليل وهو نائم.. بماذا كان يحلم، ودائمًا يقول لي نسيت.. لكن أنا لا يمكن لي أن أنسى صوت صراخه هذا والذي كان يتكرر على الأقل ثلاث مرات في الشهر.. لا أذكر بالطبع ما كانت ردة فعلي عندما سمعته يصرخ لأول مرة، لا بد أنني كنت صغيرة جدًّا، وكبرت وأصبح هذا الصراخ جزءًا من طقوس النوم في بيتنا ولم يعد يخيفنا، بل يزعجنا فقط.. لا بد أنني ارتعبت أول مرة سمعته.. وبيتنا كان مؤلفًا من غرفة نوم واحدة، وصالة وغرفة جلوس تضم مائدة خاصة بالطعام أيضًا.. عندما كنا صغارًا كنت أنام إلى جانب أمي وكان أخي ينام إلى جانب أبي.. كانت الأسرَّة التي صنعها جدي عريضة ما فيه الكفاية، وبإمكانها أن تسع شخصًا ونصف بكل راحة.. لما كبرنا صار أبي ينام على أريكة في غرفة الجلوس، بقيت أنا أنام إلى جانب أمي، واحتل أخي السرير الثاني الذي لم يكن لي نصيب منه إلا حين ينام هذا الأخير خارج البيت..

تطل غرفة النوم مباشرة على أريكة أبي في غرفة الجلوس، حيث كان بإمكاني مراقبته بيسر وهو نائم، بل كان بإمكاني سماع صوت أنفاسه.. تنفسه هذا شغلني فترة طويلة عندما مررت بمرحلة كنت أخاف عليه فيها أن يموت ويتركني، أظنها مرحلة تصيب كثيرًا من المراهقين، الخوف من فقدان أحد ذويهم، خوف قد يصل حد الرعب أحيانًا.. هذا الرعب كان يدفعني أحيانًا في الليل، وعندما لا أتمكن من سماع صوت تنفسه، إلى التسلل مع مرآة صغيرة إلى جانبه، أضعها أمام أنفه، ليثبت لي البخار الذي يعلق بسطحها أنه بخير.. مرة وكنت أتفحصه مع مرآتي قفز مذعورًا.. طبيعي.. لأ؟ لم يفهم ماذا أفعل هنا في منتصف الليل.. لم أعد أذكر كيف انتهت السيرة.. كان عندما يصرخ يظهر ذعر ما في صوته، وأحيانًا كنا نصحو، أمي وأنا، على صراخه فينظر بعضنا إلى بعض في عتمة بددها مصباح الشارع، ونقول:

«هه بلّش..» تنادي أمي عليه مرة أو مرتين، فيصحو ويعاود النوم كأن شيئًا لم يكن.. مع الوقت لم يعد يصحو عندما نناديه، صار كابوسه أعنف، وكأنه كابوس يصيبه بالصمم، فكان علينا أن نترك السرير ونذهب لنهز كتفه برفق، فيصحو.. «قومي إنتِ»، «لأ قومي إنتِ»، وبينما نأخذ وقتنا في اتخاذ قرار والتوصل إلى صيغة من التي ستتحرك منا لإيقاظه، كان صراخه يعلو أكثر فتتحرك إحدانا للقيام بالمهمة الإلزامية والتي لا مفر منها.. مرة صحونا وقررنا أن نتركه يصرخ لنرى إن كانت نوبة الصراخ ستنتهي من تلقاء نفسها، ويعود الكابوس من حيث أتى، لكن بعد نصف دقيقة تقريبًا، صار الصراخ يتعالى كـ«الكريشندو»، فخفنا أن يوقظ الجيران، وفشلت مهمتنا في تركه يصرخ أقصى وقت ممكن.. بعد ذلك بفترة وكنت قد أصبحت في أواخر مراهقتي، صار صراخه مصحوبًا بشيء آخر.. صار يصرخ ويستنجد بي، يناديني باسمي، بصوت لا يشبه الصوت الذي يخرج من حلقه في صحوه.. صوت مثير للرعب، صوت إنسان على وشك الاختناق: يا راااااات... يا رااااات يا بنتي.

ينظر بعضنا إلى بعض مجددًا، هي وأنا، وغالبًا ما كنا نفتح عيوننا في اللحظة نفسها، تنظر إليَّ وتقول مع ابتسامة خبيثة: «قومي إنه يناديكِ أنت..» فأقوم على مضض، فهذا الصوت يرعبني، أشعر كأنني أمام مخلوق لا أعرفه ولا يشبه أبي البتة، مخلوق ليلي غريب الأطوار، يوحي كأنه يتقلى في حفلة شواء على نار (جهنم)، يخيل إليَّ وأنا أتجه صوبه أنه محاط بالشياطين والأبالسة، وأعرف أنه عليَّ إنقاذه، لماذا؟ لأنه، بكل بساطة، يناديني باسمي.. لم يستنجد بها ولا مرة.. أبداااا.

مرة وأمام قهوتنا الصباحية وهو مستقر في كرسيه المفضل، شرد شروده المعتاد دقائق، ثم سألته بماذا كان يحلم ولماذا لا يتذكر، لماذا كان يصرخ في الليل، وهل يصرخ دائمًا لنفس السبب أم ماذا؟

قال إنه لا يذكر شيئا البتة عن كوابيسه، لا بل إنه لا يذكر ولا يدرك أنه كان فعلًا يصرخ، ولولا أننا نخبره نحن بذلك، من أين له أن يعرف؟ وكنت أقول بيني وبين نفسي إنه يكذب ولا يريد البوح.. ربما ليس من شيم الأب أن يعبر عن مخاوفه وكوابيسه، وما يقلق نومه وصحوه أمام أفراد عائلته، وإلا سقطت هيبته وجبروته.. نادرًا ما رأيته ضعيفًا إلى هذه الدرجة.. مرة قال إنه كان يشعر وكأن أفعى تلتف حول عنقه تريد خنقه («هاي هي» أقول في نفسي، إنه يذهب ليلًا إلى جهنم).. ومرة قال لي إن أمه أخبرته أن له «قرينة» تهاجمه ليلًا باستمرار.. وصفت لهم إحدى الجارات أن يضع مقصًا مفتوحًا تحت الوسادة، ففعلوا، وغادرته القرينة إلى حين، لكن يبدو أنه، ولسبب ما، جرح نفسه مرة بالمقص المفتوح في أثناء نومه، ففضلت أمه الإبقاء على القرينة والتخلص من المقص.. وهكذا بقي يصرخ إلى أن مات.. بعد سنوات طبعًا..

كانت حالته هذه تربكني جدًّا وأتساءل عن أسرار هذه الظاهرة، وكنت أحيانًا ما أصدق الخرافات التي تقول إن الأرواح تغادر أجسادها في أثناء الكوابيس، ولكنها تبقى على اتصال مع هذه الأجساد، لذا لا يجوز إيقاظ النائم في أثناء الكابوس، فقد تضل الروح طريقها ولا تتمكن من العودة إلى الجسد.. أما روحه فقد غادرته نهائيًا، وربما تكون قد وجدت طريق عودتها، لكن فات الأوان فقد تحلل الجسد..

لماذا أصبحت هنا؟ لا أعرف.. هي الأفكار التي تمسك بزمام أمري وأنا ألحق بها كطفلة مطيعة تخشى العقاب. والآن عليَّ أن أجد همزة الوصل بين ما بدأت به وما وصلت إليه.

نعم، تحلل جسده.. لم يبقَ من أثره شيء كثير.. بعد دفنه أعطينا ثيابه إلى مؤسسة خيرية، أوراقه ومستنداته وعلبة الصفيح التي كانت تضم أشياء

كثيرة، أخذها أخي، بينما احتفظتُ بسلسلته الذهبية والصليب المعلق فيها ولبستها فترة.. كنت مرة في صف اليوجا عندما لمحت المعلمة، الصليب الغريب الشكل المعلق في رقبتي.. كان غريبًا فعلًا، تصميم حديث جدًّا، على الناظر أن يحدق جيدًا ليتبين ملامح مسيح عصري.. سألتني عنه، أخبرتها أنه يكاد يكون الشيء الوحيد الذي احتفظت به من أغراض أبي.. سألتني إن كنت قد غسلته قبل أن أعلقه على صدري، نفيت.. فثارت ثائرتها.. قالت أشياء كثيرة أرهقتني بفلسفتها، لكنني أذكر أنها قالت إن كل أمراضه الجسدية وأمراض روحه عالقة في هذه القطعة، ولا يجوز أن ألبس أمراض الآخرين.. ليلتها وضعت السلسلة والصليب في الماء المغلي المملح، تركته يتخمر طوال الليل ثم ركنته إلى الأبد في علبة المجوهرات التي سرقت فيما بعد.

احتفظت أيضًا بقبعته الشتوية، وفيها كثير من رائحته، وهكذا كلما اشتقت إليه أذهب وأستنشقها عميقًا، فأستعيد، ولو لحظات، جزءًا من ذاتي.. لكنني كنت أفكر في أنني سأرميها مثلما رميت بقية أغراضه.. لا يفيد الاحتفاظ بأغراض الموتى بشيء.. ليست بنا حاجة إلى أغراضهم، ولا حتى صورهم لنتذكرهم، فهم الذين يتذكروننا ويزوروننا عندما لا نتوقع ذلك، سواءٌ أكان ذلك في الحلم أم في الصحو عبر فكرة طارئة.. ولا بد أنه يقوم بزيارة لي الآن وإلا ما لزوم هذه الأطروحة عن هذا الموضوع والتي لا أعرف كيف أوقفها لأعود إلى الفكرة الأساسية التي بدأت بها التدوينة..

نعم أعرف كيف سأعود..

كنت قد احتفظت أيضًا بعباءة تشيلية (نسبة إلى تشيلي) حيث هاجر أخوه إليها ومات فيها.. أرسل له مرة عباءة صوفية ناعمة (رميتها منذ فترة)، تذكر بالهنود الحمر، لم يكن يلبسها، وكنت دائمًا في صغري أستحليها وأحب ارتداءها، لكنني ولصغر قامتي كنت أبدو كمن يرتدي خيمة على أكتافه..

فلما كبرت قليلًا صرت ألبسها من حين إلى آخر.. ومرة لاحظت فيها بعض الثقوب الصغيرة التي لم أفهم سببًا لوجودها، فعرضت الموضوع عليه، وتبين لنا لاحقًا أن العث قضم أجزاءً منها..

نعم.. العث هو الذي سيقودني إلى بداية التدوينة ولو أنني لا أقصده بالذات..

كنت مستلقية على جنبي في بيت صديقتي في بيروت شاردة شردة من شردات أبي، عندما لوحت لي الدودة ذات المليمترات بقرونها.. كانت تزحف على الأرض، وكانت هذه ثاني مرة أرى دودة مثلها في حياتي.. ياه، لا تفاح هنا، وأنا أعرف هذا الشكل، أنظر إليها بتمعن، ألوِّح لها بيدي قائلة: هل التقينا من قبل؟ يبدو أنني تعرفت منذ عدة أشهر على قريبتك.. لكنها صماء لم تبالِ بوجودي، ولا تعرف أساسًا أن لي وجودًا.. سحقتها بحقد بحذائي.. ثم رأيت أخريات في الصالة، تساءلت ماذا تكون ولماذا تحتفظ صديقتي في بيتها بديدان مماثلة لتلك التي رأيتها في بيتي؟ في اليوم الثاني خرجت إلى الشرفة ورأيت صفًّا طويلًا منها.. يمتد حتى غرفتي.. سحقتها جميعها، واتصلت بصديقتي قائلة: يبدو أن العث يجتاح بيتك.. لم أخبرها شيئًا عن دودة بيتي علمًا أنني فكرت بأن حقيبتي (الدبابة) هي التي قامت بتصدير الديدان إلى هنا.. لكنني في بيتي رأيت واحدة فقط، ولا أعرف لماذا قررت أنه عث، على الرغم من أنني أعرف شكل العث تمامًا، فهو بلون بيج فاتح وهذه بنية، إضافة إلى مواصفات أخرى لا يمتلكها العث.. بعد ذهابي استدعت صديقتي عامل رش حشرات، فطهر لها البيت كما يجب..

عدت إلى بيتي، في أواخر شهر آب (أغسطس).. وبيتي القديم مفروش وأرضه مغطاة بالموكيت.. كنت جالسة ذات مرَّة في سريري، حين لمحت واحدة منها تسرح على مزاجها في طيات الشرشف الأبيض.. جن جنوني

واتصلت به أقول إن الحشرات تجتاحنا، بل الديدان.. لم يعر الأمر أهمية.. فاغتظت، أفرغت محتويات وأثاث غرفة النوم، وضعت كل شيء على الشرفة بما فيه الفراش، وأقمت حفلة تنظيف كان للمكنسة الكهربائية دور البطولة فيها، ثم اشتريت موادَّ ضد العث زرعتها في الفراش وتحته وفي زوايا الغرفة، بعد ذلك تفرغت لتنظيف الكتب ووضعت كثيرًا من مواد قاتلة للعث على رفوف المكتبة، وحدث نفس الشيء في خزانة الملابس، ونمت مطمئنة على الرغم من آلام الظهر العنيفة التي داهمتني من فرط الحركة وحمل الأثاث.. وكان كل شيء على ما يرام..

قبل أسبوع من انتقالنا إلى البيت الجديد، قمت بحملة توضيب وتنظيف، وتحت شرشف الفِراش ظهرت لي دودة أخرى تخيلتها تنظر إليَّ ساخرة بلسان ممدود.. غضبت وتناولت آلة التصوير والتقطت لها صورًا عدة من زوايا مختلفة.. ثم دخلت إلى الإنترنت باحثة عن أصلها وفصلها، لم أجد شيئًا كثيرًا، وجدت أقارب لها، لكنني لم أجدها على الرغم من بحثي في مواقع متعددة مختصة بالعث والحشرات المنزلية.. حملت الصور وتوجهت إلى الصيدلية، أريتهم الصور، فقال الصيدلي إنها من فصيلة العث الذي يتحول مع الوقت إلى فراشات، وهي الآن قد انتقلت من حشرة غير مرئية إلى مرحلة التدود.. ما الحلُّ؟ عبوتان ناسفتان: واحدة للبيت وأخرى للثياب.. لكن علينا البقاء خارج البيت يومين بعد الرشِّ.. وعلينا غسل الملابس جميعها من دون استثناء بعد الرش.. حدث.. وارتحنا وانتقلنا إلى البيت الجديد على نظافة.. لكن وساوسي لم تنته، كنت أفكر بما أن الست تبيض ما باعرف كم مليون بيضة في الشهر، وتتكاثر بشكل غير معقول، لا بد أن بعض البيض بقي عالقًا ببعض الكتب أو الملابس.. فأقمت حفلة رش ثانية في البيت الجديد، ودائمًا ما يلاحقني وسواس بأنني لن أتمكن من القضاء

عليها.. ملايين منها، لا نراها، موجودة في أغلب البيوت، تقتات من خلايانا وجلدنا الميت، من الشعر الذي نفقده يوميًّا من رؤوسنا، من الغبار، من الكتب، من الصوف والقماش، من الخشب، من كل شيء وهي نهمة جدًّا، لكنها لا تؤذي الإنسان.. هذا ما توصلت إليه عبر أبحاث مضنية قمت بها.. أرى في منامي فيلقًا منها يزحف باتجاهي وأنا نائمة، فأصحو مصابة بالحكة، أحيانًا أراها تدخل من فمي ولا تعود تعرف إلى الخروج سبيلًا، أعيش في هاجس وجودها، أسميها الديدان المدمرة.. هذا الصباح وبعد أن ظننت أن مزاجي سيعتدل، لمحتها على الحائط، لم أصدق، أصبت بنوبة استياء وهلع، كتبت له قائلة، راجية إياه أن يتفهم أسباب ضيقي، ولكنني عاجزة عن المكث في هذا البيت، وأرغب في رمي كل شيء، حتى الملابس، رجوته أن يجد حلًّا.. وانتظرت، قتلت انتظار اتصاله ببحث آخر على الإنترنت مستخدمة مصطلحات بحث أخرى، فوقعت على منتدى فرنسي تشرح فيه سيدة ما مشكلتها، التي هي مشكلتي، وتعطي وصفًا دقيقًا للدودة التي هي دودتي، تصفها وكأنها تصف منظرًا طبيعيًّا خلابًا مع أدق التفاصيل، وتضع روابط لمواقع خاصة بهذا الصنف من الدود وتسأل عن حلول.. أخيرًا تمكنت من تحديد نوع دودتي:

«Dermestidae..Larves de dermetes: coleoptera»

اتصل منذ قليل متعاطفًا، قائلًا إنه سيبحث غدًا عن شركة مختصة بإبادة هذا النوع من العدو، وإنه عليَّ تهدئة نفسي، وأقاوم هذه الهلوسات، فلن يأكلنا الدود، وإنه سيحاول ترك العمل مبكرًا، لأنني لا أريد البقاء وحيدة..

عالم الحشرات! قادني بحثي وفضولي إلى معلومات شتى أغرقت بها قُرصي البشري الصلب.. أكثر من خمسين مليون نوع حشرة تعيش على الكرة الأرضية، المكان الوحيد الذي لا نجدها فيه: البحر! شو باعمل.. بانتحر؟

لأ، بل يجب أن أفكر في طريقة، لا تشعرني بأنني أجهل كثيرًا من الأمور في هذا العالم، شريطة ألا أدع نفسي تنجر وراء فضولها، ففي هذا مضيعة كبيرة للوقت.. كأن أمضي مثلًا زهاء ساعتين، وبسبب كلمة لم أفهمها، وفتشت عن معناها عند السيد «جوجل»، في بحر كلمات ومعاني عدد من أسماء وتعريفات الانحرافات الجنسية، والتي أصابني بعضها بصدمة حقيقية، أنا التي كنت أظن نفسي على اطلاع شامل فيما يخص هذه الانحرافات.. وهذا موضوع آخر حتمًا.. عليَّ الآن التفرغ إلى ما تبقى من تقريري، وبعده سأسخر نفسي من أجل القضاء على دودتي وعائلتها، وأفكر في طريقة تمكنني من النوم بهدوء وسكينة اليوم.

عـادي

عادي، يوم عادي.. فلنقل كانت بدايته عادية تقريبًا..

دخلت في الفِراش عند الثالثة صباحًا، بعد جلسة حوار منشرح مع «نون».. لا أعرف كيف أصبح لدينا فجأة كثير وكثير لنقوله، بعضنا لبعض.. كثير وجديد.. أحسست في هذه الجلسة أننا استعدنا بعضًا من أجواء الزمن الماضي، حيث كنا نمضي ساعات وساعات في التحدث.. وكان أكثر ما يعجبني في أحاديثنا هذه طريقتنا في تحليل شخصياتنا وانفعالاتنا والأسئلة التي يطرحها بعضنا على بعض، والتي يستفيض كل منا في الإجابة عنها.. ليلة أمس أحسست وكأن عجلة الزمن تدور إلى الوراء، مع فارق بسيط: أننا تطرقنا إلى مواضيع لم يسبق لنا أن غرقنا فيها.. حتى طريقة الجلوس عرفنا كيف نستعيدها.. يلقي بظهره على طرف الأريكة مادًّا رجليه في اتجاهي وأفعل بالمثل على الطرف الآخر.. يدلك بعضنا أقدام بعض، ونتحدث كأننا نحيك الصوف.. «آي آي..» تخرج من فم أحدنا عندما يضغط الآخر بشكل قاس على باطن القدم، أو ضحك مكتوم، تليه عبارة «خلص بلا سآلة»، عندما يفاجئ أحدنا الآخر بدغدغة غير متوقعة في باطن القدم.. مسكينة هذه القدم.. نحمِّلها ثقل أوزاننا طوال اليوم ولا نمن عليها بنظرة.. أذكر خلافًا

دب مرة بيني وبينه عندما اكتشفت أنه لا يغسل باطن قدمه عندما يستحم.. كيف بإمكانك أن تكون مهووسًا بالنظافة، تستحم مرَّة كل يوم شتاء وثلاث مرات في اليوم صيفًا ولا تغسل باطن قدمك؟! يظن أن باطن القدم ينظف من تلقاء نفسه بمجرد وجوده في الماء.. «لوك لأ يا عمي..» وقتها حققت حلمًا مضحكًا يعبر أغنى تعبير عن أمهاتنا وجداتنا المسحوقات، حيث جرت العادة في القرى أن تحضر ربة البيت «طشت» ماء ساخن قبيل عودة زوجها من العمل (وغالبًا ما كانوا يعملون في الفلاحة) يصل سي السيد فتنقع له قدميه في الماء الفاتر، ثم تغسلهما وتجففهما، وتنصرف بعد ذلك إلى إعداد عشائه.. قائلة ربما في سرها: مطرح ما يسري يهري..

لكن نظرتي إلى «الطشت» كانت رومانسية.. وكان يرفض دائمًا أن أقوم بذلك.. إلى أن دبَّت الخناقة، وصرت أسأله كل يوم بعد خروجه من تحت الدش: هل غسلت باطن قدميك؟ كان في البداية يجيب بنعم كاذبة، لكنني تيقنت مع مرور الوقت بأنه صار يغسلهما جيدًا، لا لشيء؛ فقط لأنه لم يعد سؤالي يفارقه وهو يستحم، فقال أشتري راحة ضميري وأغسلهما.. المهم بعد هذه الواقعة اقترحت عليه مرة أن أغسل قدميه بالطشت، فقط لأريه محاسن غسل باطن القدمين، وكيف أن الجسم يشعر براحة لا مثيل لها بعد «التُّمْطيلة» (هكذا يسمونها في بعلبك).

وافق على مضض.. أعطيته موعدًا للتمطيلة في اليوم الثاني، كي أتمكن من إعداد العدة.. لم أجد «طشتًا» معدنيًّا كالذي كانوا يستعملونه في السابق، فأتيت بواحد بلاستيكي أبيض، وذهبت إلى بائع الزهور واشتريت منه دزينة ورود متنوعة الألوان، ثم عرجت على الصيدلية، واشتريت ملحًا خاصًّا، وزيت اللافندر المريح للأعصاب.. بعد «تمطيلتي» العجيبة وما تلاها من تدليك لباطن القدمين، استحلى الأخ الموضوع وصار كل

يوم والثاني يسألني عن موعد «التمطيلة» المقبلة.. لكنني طنشت، ولا زلت مطنشة حتى اليوم.. إنما حدث أن تعرفنا على مدلكة صينية، نصحتنا مرة نصيحة مفادها أن على الأزواج تدليك قدمي بعضهما بعضًا على الأقل مرة في الأسبوع، فهذا من شأنه أن يريح القدمين ويعمق أصول التواصل بينهما (بين الزوجين طبعًا). صدقناها وصرنا نعتمد هذه الطريقة من حين إلى آخر.. وبالأمس كان دهرًا قد مضى من دون أن نمارس هذه العادة.. وأنا، بلا شك، أحب كثيرًا فكرة العناية بالأقدام، وأفرح عندما تقول لي اختصاصية القدمين بأن قدمي تشبهان أقدام الأطفال.. كيف لا وأنا أوليها عناية أكثر مما أولي وجهي..

إنها العاشرة من مساء يوم عادي.. تقريبًا عادي، وعليَّ أن أقوم وأغسل الصحون، قبل أن يصل، كثيرة هي الصحون هذا المساء فقد مرت ابنتنا الصغيرة بي وتعشينا معًا.. اقترحت عليها باستا بصلصة الباذنجان والفليفلة (جاهزة).. لم تشأ تناول الباستا لأنها على حد قولها طلعت من مناخيرها.. اقترحت عليها دليفري ياباني، وافقت.. ثم تذكرت أنني لا أملك في جيبي سوى عشرين يورو، فأنا لم أتوجه إلى آلة سحب المال منذ وصولي.. والياباني هذا لا يملك آلة لندفع بـ«الكريديت كارد»، ومن غير الوارد أن أجعلها تدفع.. فرضخت للباستا، لكنها وجعت لي قلبي، اقترحت عليها أن نخرج ونتعشى في المطعم، رفضت بسبب البرد القارس.. ثم تذكرت أنها تكره جميع المأكولات العربية باستثناء الفول.. وكان ربك رحيمًا بها، إذ وجدت علبة في خزانة المؤونة..

ماذا فعلتُ أيضًا في يومي العادي.. اشتغلت كثيرًا.. واكتأبت..

آه.. لكنني نسيت أن أقول إنه، وفي صباح يومي العادي هذا، وكانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا ربعًا، وجدت في بريدي على الفيس بوك، رسالة

عبارة عن كلمة واحدة، علامات تعجب وابتسامة.. انصدمت، لم أكن أتوقعه أبدًا، بل إنني نسيته.. (شو ذكرك فيي.. ترارام).

كنت قد تساءلت منذ فترة عندما وجدته وأضفته إلى لائحة أصدقائي إذا كان يذكرني، وقلت لنفسي وقتها سأفكر قبل إضافتي، دخلت طبعًا إلى صفحته تفرجت قليلًا على صوره، وبدا لي أنه عضو غير ناشط في الفيس بوك، وصرت أفكر يوميًّا: أترك له كلمة أم لا.. ثم اعتمدت أن لا.. واكتفيت «بنخزه».. فرد لي «النخزة» بالمثل.. وتوقفت الأمور عند هذا الحد..

أرسل لي صباح اليوم رسالة من كلمة واحدة: «راااات!!!:)» هيك بس.. ياه كيف يناديني «رات»؟ كيف يعرف؟ يبدو أنني أنا التي نسيت...

شعرت بموجة سرور دافئة.. فابتسمت، لقد تذكرني إذن! والآن ماذا أفعل وكيف أرد؟ شاورت عقلي طوال اليوم، ثم دخلت منذ قليل لأرد عليه.. كتبت له جملة كان مرة قد خطها على كتاب أهداه إليَّ: «نحن الاثنان بريثان.. كيف حالك؟»

فات الأوان ذهبت الرسالة إليه ولم يعد بإمكاني التراجع.. لشو الهبل؟ ماذا تريدين منه؟

أنا؟ لا شيء، فقط كنت أريد أن أبرهن لنفسي أنه بإمكاننا أن نعثر على إبرة في كومة قش.. كذابة أنتِ!

أنا؟ باعرف باعرف..

أمنية عمرها ثلاثون عامًا

معهم حق «الختايرة» (كبار السن).. وهو لم يمهلني ولم يعطني خير ضحكات البارحة ليلًا، والتي كان من المفترض لو بقي تسلسل الأحداث التي تلتها منطقيًّا، أن تجعل من يومي يومًا عاديًّا، ولا أقول يومًا سعيدًا..

صحوت وعشت اليوم بكامله كمن خرج من حفلة ضرب مبرح..

والذي حدث خارج عن منطق الأشياء في رأسي.. نمت عند منتصف الليل أو بعده بقليل.. غفوت بسرعة على غير عادة.. ونومي خفيف معظم الأحيان، وكما يقال فإن دبيب النملة بإمكانه أن يصحيني..

أنا متأكدة أنه لم يكن كابوسًا.. واثقة من ذلك، أو كنت كذلك حتى وجدت بعض المبررات لأتمكن من النوم هذه الليلة، فلم أعد واثقة من شيء..

قد يتهمني قراء هذه السطور بالجنون، أو بالمبالغة في التعاطي مع الأشياء التي أعجز عن فهمها، خصوصًا حين تصبح الأمور خارج نطاق فهمي وسيطرتي.. حادثة ليل أمس دفعتني إلى التفكير، والبحث والتذكر.. لأنني خفت أن أنام ثانيةً.

سلسلة الحوادث التي أرعبتني فعلًا في حياتي لم تكن كثيرة.. وأنا أدرك اليوم تمامًا أنه لا شيء خارجنا مخيف، بل إن الخوف يأتي من داخلنا فقط.. لكنني بالأمس نسيت هذا وارتجف جسمي بشكل مرعب، وكاد الجيران يسمعون ضربات قلبي المتسارعة قبل أن أدخل في نوبة بكاء صاخبة.. وكنت واثقة أنه لم يكن كابوسًا..

مرَّة في طفولتنا كان لنا قريب شقي، نحبه لكن كنا نخاف منه ومن مقالبه وعدوانيته.. جاء مرَّة يُمضي عطلة نهاية الأسبوع عندنا برفقة أخيه الأصغر منه سنًّا.. كانت أعمارنا لم تتجاوز العاشرة أو الثانية عشرة على أبعد تقدير.. والبيوت في حيِّنا كانت متلاصقة إلى درجة تجعلك تسمع تثاؤب الجارة أو عطسة الجار..

ليلتها قررت أمي أن تخرج مع رفيقاتها إلى السينما، ربما كانت أول مرة تتركنا فيها مساءً وحدنا، ويبدو أنها اطمأنت إلى كثرة عددنا، وإلى حرص جارتنا، وبيتها ملاصق لبيتنا، علينا فغامرت بالخروج.. أذكرها تمامًا، أذكر أنها كانت ترتدي بنطلونًا من المخمل الزيتي وكنزة مضلعة باللونين الزيتي والأبيض.. قالت قبل أن تقفل الباب: «اقعدوا عاقلين وإذا احتجتم إلى أي شيء «تانت» «م» سهرانة فلا تقلقوا». كان عرض الفيلم يبدأ عند الثامنة وينتهي عند العاشرة، وكانت صالة العرض تبعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام عن بيتنا.. قرية عصرية.. فيها صالة سينما بدائية..

أما نحن فكنا سعداء، أحسسنا بأنها تثق فينا، ولذا قررت أن تتركنا وحدنا، صرنا كبارًا!.. لا أذكر تسلسل الأحداث في تلك السهرة.. كل ما أذكره أننا اجتمعنا في غرفة الجلوس عندما غاب قريبنا الشقي ولم ننتبه إلى غيابه، ظننا أنه دخل الحمام أو شيء من هذا القبيل.. كان لغرفة النوم شرفة طويلة تتصل في نهايتها بباب يطل على غرفة الجلوس.. التي كنا

فيها حين وقع نظرنا على زجاج الباب المؤدي إلى الشرفة ونلمح من خلفه في العتمة شبحًا أبيض يتحرك ويرقص.. علا صراخنا وعويلنا نحن الثلاثة، ثوان قليلة وكانت «تانت» «م» تدق على بابنا، تعنف قريبنا الشقي وتأخذنا إلى بيتها ننتظر عودة أمي.. أبي طبعًا، وكعادته كل ليلة، مفقود من الأسواق..

كانت المرة الأخيرة التي يمضي فيها قريبنا هذا عطلة نهاية الأسبوع في بيتنا..

حكاية كنت قد نسيتها، عادت إليَّ يوم أمس.. ثم إنني تذكرت أنني لما كبرت قليلًا، كنت أخاف الكلاب ولا أؤمن بوجود الأشباح، وبالتالي لا أخافها.. لا أخاف.. مراهقة كنت أواظب على مشاهدة أفلام الرعب في بيت جيراننا الذين كانوا يملكون فيديو ـ أحدث تقنيات العصر في ذلك الوقت ـ وأكثر الأفلام التي كانت تستهويني هي أفلام الزومبي.. وكنت أتباهى أمام رفيقاتي بذلك.. ثم لا أعرف ما الذي حدث بالضبط فصرت أخاف لما كبرت.. عندما وصلت إلى باريس وبعد فترة تشرد، عشت في بيت وحدي ولم أكن أخاف بتاتًا.. ربما تكون حادثة وقعت في ممر الطابق الأرضي الذي كنت أقطنه هي التي جعلتني أخاف عندما أكون وحدي.. مرة صار عراك بين جيراني الفلبينيين، وعلا صوتهم بشكل غير مألوف في ممر الطابق.. اتصلت بالناطورة وأبلغتها أن الأمر خطير فهناك أصوات لشخص يتألم ويبدو أن عراكًا بالأيدي قد وقع، فقالت إنها ستبلغ البوليس.. خفت قليلًا وقررت التسلل ومحاولة مراقبة ما يجري في الممر من العين السحرية للباب.. وضعت عيني على العين، رأيت شبانًا يمرون ويصيحون، ثم مر شاب بيده سكين كبير نسبيًّا غرزه في الحائط المواجه لبابي، ثم بلفتة واحدة وكأنه حدس أنني أقف وأراقب من خلف بابي وجه ضربة سكينه

إلى الباب.. تراجعت عدة سنتيمترات من هول المفاجأة ودخلت فورًا إلى الحمام حتى لا أفعلها في ثيابي..

منذ ذلك الوقت صرت أحمل هم النوم وحدي في هذا البيت.. وصرت أنام كثيرًا عند رفيقتي.. كنت أعود من حين إلى آخر لأنام في بيتي.. وفي إحدى المرات، ولم أكن متأكدة إن كنت نائمة أم صاحية، لكنني سمعت صوتًا في الغرفة يندهني هامسًا باسمي.. «رات».. «رات».. لم أتبين أن كان صوت رجل أم صوت امرأة.. كنت متأكدة أنني سمعت اسمي.. أضأت الضوء، تجولت في الغرفة الصغيرة، تأكدت أن لا أحد في الجوار، قررت أنني كنت أحلم ثم عدت ونمت من جديد.. مرت سنوات على هذه الحادثة.. توفي أبي وأصبت بهاجس أن روحه ترافقني وتراقبني.. وجاءت حادثة السرير الذي يهتز والتي كثيرًا ما نتندر بها.. كنا في تلك القرية النائية عندما صحوت مرة أولى على شعور بأن السرير يهتز.. كنت وحدي ليلتها، صحوت وبقي السرير يهتز.. نشف الدم في عروقي من الخوف، واستدعيت الله وقديسيه وأنبيائه ليلتها؛ لأنني خجلت من الاتصال بأي أحد في الثالثة صباحًا لأقول له إن السرير يهتز.. دام الأمر ثواني..

أعرف أنني هلعت ليلتها.. بعد أسبوع وكان «نون» عاد من السفر، وكنا نائمين صحوت مرة أخرى عند الثالثة صباحًا وكان السرير يهتز.. أيقظته بسرعة من النوم، أخبرته بالأمر فاتهمني بالجنون، ثم رضخ إلى إرادتي بتفتيش البيت والنظر تحت السرير، وأكد لي أن لا أحد في الجوار وحضنني ونمنا من جديد.. في اليوم التالي كان قد ذهب إلى العمل وكنت دعوت صديقين إلى ترويقة فول.. لم أجرؤ على إخبارهما حتى لا يسخرا مني.. وفي معرض الحديث سألاني إن كنا قد شعرنا بالهزة الأرضية ليلة أمس.. هزة أرضية؟! أسأل بتعجب شديد، يخبراني أن المنطقة تعتبر منطقة زلازل وهي تتعرض

بشكل دائم إلى هزات أرضية خفيفة.. فما كان مني إلا أن صحت بفرح: «نشكر الله، هزة، نشكر الله..» اعتذر «نون» لي في ذلك اليوم، ووعد أن يصدقني إذا قلت له ثانية إن السرير يهتز..

حضرت بعدها هزتين في وضح النهار، واحدة في تلك القرية وواحدة في بيروت.. كان الأمر مذهلًا.. كيف تموج الأرض والأثاث.. لكنني لم أخف.. وحدها الأرواح الهائمة تخيفني..

إن وُجِدَت!

من وقتها صرت مصابة برعب البقاء وحيدة، مع الوقت تعلمت التغلب على مخاوفي، حتى إنني منذ سنتين أو ثلاثة، صرت لما أكون وحيدة، أطفئ الأنوار والتلفزيون والراديو، أحيانًا أغفو في الليل، وأحيانا أُلهي نفسي بأشياء إلى حين طلوع الفجر فأنام..

لكن الذي حصل ليلة أمس لم يكن كابوسًا..

نمت بعد منتصف الليل بقليل.. كان «نون» إلى جانبي.. صحوت عند الثانية والنصف، سمعت صوت يد تخبط على خشب السرير، ثلاث خبطات، لكن نومي كان عميقًا، فقلت لنفسي لا بد أنني أحلم، ولا بد أن أحد الجيران يخبط على الحائط ليخفت ضجة آتية من مكان ما.. مرت ثوان، كنت قد صحوت تمامًا، عندما سمعت وشعرت بالخبطات الثلاث على سريرنا نحن.. والله كنت صاحية، ربما بقي بي أثر من نوم لكنني كنت صاحية، وسمعت وشعرت بالخبطات الثلاث من جديد على خشب السرير لكنني لم أتمكن من تحديد أي ناحية فيه.. صرخت لا إراديًا.. فاستيقظ «نون» على الفور.. جلست مرتجفة في السرير، أخبرته، قال لا تكوني سخيفة هذا حلم والحلم يبدو أحيانًا واقعيًا لدرجة يصعب أن نصدق أنه

كان حلمًا.. لكنني كنت خائفة، بل مذعورة، فصرت أبكي وصرت عاجزة عن الحركة، ثم رجوته ألا يسخر مني و«عمول معروف الله يخليك، الله يخليلك ولادك، تطلع تحت التخت إذا في شي..».

اتكل على ربه ونظر تحت السرير ثم جال في البيت، وأكد لي أن لا أحد في الجوار، لكنني تابعت البكاء والتمتمة بأنني متأكدة أن هناك يدًا خبطت ثلاث خبطات على جانب السرير.. أحسست بالعجز التام.. كنت أريد أن أفهم، وخرجت الأمور عن نطاق فهمي وسيطرتي فانهارت أعصابي.. عاد يحاول النوم، لكنني لم أتمكن من التمدد ثانية وبقيت جالسة أرتجف في السرير.. أحسست وكأن يدًا امتدت إلى رأس معدتي وراحت تعصرها بقوة فتألمت.. لما انتبه إلى أن رعبي وبكائي جديين، قام وأضاء الأنوار واستجوبني، وخرج ليدخن سيجارة، فلحقت به على الفور، دخنت أنا الأخرى وأنا أبكي بمرارة.. هو ليس الخوف بقدر ما هو هذا الشعور بالعجز عن فهم شيء حدث ومن غير المفترض، منطقيًّا، أن يحدث وفقًا لهذا السيناريو.. كنت تعبة ونعسانة موت.. حاولنا أن نجد تفسيرًا منطقيًّا للأمر بعد إصراري على أنني كنت مستيقظة وواثقة من الذي سمعته.. قال «نون» إنه ربما يكون هو من خبط على السرير في أثناء نومه.. لسبب ما.. كيف لا وهو يفعلها أحيانًا من دون سبب على الحائط عندما يكون في عز صحوه.. لكنني لم أقتنع.. بعد نصف ساعة دخلنا مجددًا إلى السرير، أكد لي مرارًا أنه لا تفسير سوى الذي أعطاني إياه، ثم مسح دموعي واحتضنني بقوة إلى أن غفوت وبقيت بين ذراعيه حتى التاسعة صباحًا.. صحوت!

صحوت بمزاج عكر وحزين.. أعددت قهوتي ونظرت من النافذة.. بساط ثلجي رقيق يغطي الدرابزين والأرض، وندف الثلج تسقط من السماء.. بقي مزاجي متعكرًا، ولم أفرح بالمنظر، بل أحسست ببرودة قاتمة

تسري في بدني.. تدثرت بعباءته البقاعية السوداء السميكة.. وجلست أقاوم النوم.. وأفكر في الذي حدث.. لازمني شعور بالانقباض طوال اليوم.. أخرجت حاسوبي الجديد من علبته أخيرًا، ونصَّبت عليه مضاد الفيروسات و«مايكروسوفت أوفيس» الأصلي، وجلت قليلًا فيه وقررت أنني سأبدأ بنقل ملفاتي إليه شيئًا فشيئًا.. عندي عمل متراكم لم أقوَ عليه.. وكان علينا النزول إلى السوق للتبضع؛ فهو يحتاج إلى بعض الملابس وحذاء مضاد للبرد.. تجولنا قليلًا وكنت صامتة معظم الوقت، أفتح السيرة من جديد وأهم بالبكاء.. إلى أن أقنعت نفسي أخيرًا وبعد أن زال الأثر نوعًا ما من ذاكرتي، أقنعت نفسي أنه قد يكون حلمًا من تلك الأحلام التي تكدر علينا صفو يومنا بكامله.. فتشنا طويلًا عن حذاء يرغب فيه من عند عمي «تيمبرلاند».. لكننا لم نجد المقاس المطلوب في المتجر فقررنا التوجه إلى منطقة أخرى، فيها متجر للمذكور أعلاه.. وصلنا إلى المنطقة، لكننا لم نجد المتجر، أخبرونا أنه انتقل إلى منطقة أخرى.. كان البرد قد اشتد فقررنا تأجيل موضوع الحذاء إلى يوم غد، كنا نهم بالعودة عندما طلع أمامنا محل أحذية آخر.. «كيكرز!»

دخلنا وعثر على حذاء جميل جدًّا، وفيما كان يجربه تجولت قليلًا في المحل، فوقع نظري على فردة حذاء أعادتني ثلاثين عامًا إلى الوراء، فتسمرت في مكاني.. كان أولاد الحي الأثرياء يرتدون أحذية من ماركة «كيكرز».. أبي لم يكن قادرًا على شرائها لنا ويعتبرها ترفًا لا معنى له.. لكننا كنا ننظر إلى أحذية أولاد الجيران ونحلم باقتناء واحد منها في يوم ما.. إلى أن طلب أخي مرة في عيد ميلاده ربما من أبي أن يشتري له حذاء من «كيكرز».. فجمعت أمي بعض ما وفرته من عملها في الخياطة، وزاد أبي فوقهم شوية واشتروا له الحذاء.. يا ربي كم حسدته على هذا الحذاء..

لم يكن بمقدورهم دفع ثمن حذاءين.. كانت قدمي أكبر من قدم أخي على الأقل بنمرة.. وكنت أحاول سرًّا أن أجرب حذاءه هذا، كان يدخل في قدمي بصعوبة شديدة، تنحشر معها القدم بشدة داخله ويصعب المشي فيه بسبب الألم الذي يتسبب به ضيق الحذاء..

«ليش المسطول بيحب يلبس صباط ضيق؟ حتى بس يشلحو يرتاح..» كهكهكهكه!

نكتة بايخة كنا نضحك لها صغارًا.. وحدث أن كنت أفاوض أحيانًا مع أخي ليعيرني حذاءه، لم أقل له إنه كان ضيقًا.. فكنت أقتصد من مصروف الجيب وأدفع له فيؤجره لي يومًا كاملًا.. مرة ذهبت به إلى المدرسة، ودخلت الصف مزهوة مختالة بحذائي (ئه) الجديد.. لكنني عانيت الأمرَّين، وتجنبت التحرك أو النزول إلى فسحة الساعة العاشرة كي لا تزداد آلامي.. بعد ذلك وددت لو أكون مسطولة فأنزعه وأرتاح.. بقي الـ«كيكرز» في عيني وقتًا طويلًا.. ثم كبرت ونسيته.. وصرت كلما شاهدت ولدًا يلبس حذاء من هذه الماركة أغبطه وأتذكر معاناتي تلك الأيام..

اليوم حققت أمنية عمرها ثلاثون عامًا.. أريد هذا.. الأزرق.. ثلاث درجات من الأزرق وشريط بلونين.. لبسته وخرجت به من المتجر.. كانت أول ابتسامة أرسمها على وجهي اليوم.. صرت أمشي محدقة في حذائي فلم أتمكن من تفادي الارتطام ببعض الأشياء والأشخاص في الشارع.. هذا حذاء أدخل السعادة إلى قلبي اليوم ولست مستعدة للتفريط فيه بأي شكل من الأشكال، اللهم إلا في حالة واحدة فقط.. إذا طلع بوجهي بوش.. كهكهكه.

فكرت أن أتصل بأخي وأسأله عن مقاس قدمه، أن أعد له مفاجأة نستعيد

فيها حكايا الـ«كيكرز».. في طريق عودتنا، وكنت أمشي بحذائي الجديد الذي لا يؤلم قدمي، توقفت عند كشك لبيع الصحف، اشتريت مجلة علم النفس التي أواظب على قراءتها منذ أكثر من عشر سنوات.. مع المجلة ملحق يستعرض مواقع مفيدة على الإنترنت.. تسمرت أمام إحدى الصفحات.. ثم قرأتها له بصوت عالٍ فأصابته الدهشة:

«الشيطان يلاحقني، سريري يهتز، هناك طيف في الغرفة.. جمل تثير الذعر في القلوب ولكن ما هي إلا أحلام سيئة وكوابيس.. بإمكانكم إيداع أحلامكم هذه في مصرف الأحلام، فتتحرروا من هذه الظلمة المحيطة بأحلامكم ولياليكم، تتحرروا من هذه الصور البشعة التي تبدو أنها واقعية إلى درجة كبيرة ولا تتوقف عن ملاحقتكم في أثناء النهار، نافذة مفتوحة على ما يحويه العقل الباطن للمشتركين الذين يزداد عددهم يومًا بعد يوم على دبليو دبليو دبليو (لأ مش بوش) دوت بلابلابلا دوت كوم..»

هذا كوم وما جرى لي بالأمس كوم آخر..

لم أدخل الموقع بعد.. وأقاوم النوم مع أنني تلفانة.. وفي أحداث كهذه أشعر أنني أحتاج إلى مرجع يحميني ويطمئنني ويقنعني أن كل شيء على خير ما يُرام.. مرجع ذي قوة هائلة وجبارة قادر على كل شيء أبحث عنه دائمًا فأجده مرة وأضيعه مرات.. وأنا الآن خائفة ومستحية أقول.. وكلما تذكرت هذا الشعور وهذا الصوت يرتعد قلبي.. هل من معين يضخ فيَّ الإيمان؟ هل من معين يؤكد لي أنه لن يصيبني سوء هذه الليلة وأن الله معي؟!

جوف الأرض

مرَّ الصيف بسلام، أو تقريبًا بسلام. أعود إلى هذا الركن، أشعر بالغرابة والغربة معًا ويبدو لي أنني فقدت القدرة على التدوين، وحدها الجملة الأولى استغرقت مني خمس دقائق تفكير.. وهذا أمر لا يشبهني ولا يشبه عاداتي القديمة في مسألة الإسهاب الشفهي.. لا بد من تكرار المحاولة.. أتذكر أنه كلما توقفنا عن ممارسة ما نحبه ونتحكم فيه.. نفقد أدواتنا مع مرور الزمن، وسنحتاج إلى وقت طويل لإعادة ترتيب ما تبعثر، واستعادة مهارات علاها غبار الأيام.

مرَّ الصيف بسلام تقريبًا. كنت صباح أمس أحسب عدد المرات التي استقللت فيها الطائرة منذ شهر حزيران (يونيو) الماضي.. خمس مرات.. هذا إذا حسبنا رحلات الذهاب فقط واستثنينا بعض الرحلات التي استدعت توقفًا في المطارات من أجل «الترانزيت».

أربع منها رحلات عمل وواحدة خاصة بالإجازة.. من قال إن القرارات الجديدة تُتخذ عند بداية كل عام؟ خطأ شائع.. فلقد اتخذت قرارات في أثناء الإجازة التي لو أردت أن أعطيها عنوانًا لقلت إنها إجازة: «أعطني شمسًا وخذ تنابل».

مخيفان نحن.. وصلنا إلى المطار وعند تسجيل الحقائب لم نكن نعرف أي مدينة نقصد في تلك الجزيرة، إلى أن تعطف علينا الموظف وأخبرنا بالوجهة الصحيحة.. غبيان نحن.. لم نكن نعرف أن الرحلة من مطار الجزيرة إلى المنتجع تستغرق ساعتين.. وأن المنتجع يقع في أرض موحشة أقرب قرية منه تبعد مسافة نصف ساعة في السيارة، وإذا خطر لأحدنا أن يحاول التوجه إلى الباب الرئيس للمنتجع سيجد نفسه مباشرة على الطريق السريع! أعطوا لكل منا سوارًا مشبوكًا بإحكام في اليد، رقَّمونا وقالوا تفضلوا اسرحوا وامرحوا فالمنتجع بين أيديكم. مجرد فكرة أنك لا تستطيع الخروج حينما تشاء وكيفما تشاء أعطتنا فورًا الشعور بأننا في سجن «كلاس».. المسبح من أمامنا، وغابة الصنوبر يليها البحر من ورائنا.. احتجنا إلى يومين فقط لنعتاد الفكرة ونستسلم بخدر لذيذ إلى طقوس جديدة رافقتنا خمسة عشر يومًا.

نستيقظ عند السابعة صباحًا، نتناول القهوة وندخن ما تيسَّر، ثم ننزل عند الثامنة لتناول الفطور. عند الثامنة والنصف نصل البحر قبل السمك والناس، نفرش المناشف ونبعثر الكتب التي أتينا بها، ونحتمي في ظل مظلة نقرأ ونشرب القهوة ثانية حتى التاسعة والنصف موعد الغطسة الأولى. سباحة ذهابًا وإيابًا أربع مرات. نصعد بعدها لاهثين من المسبح الكبير. عند العاشرة يكون البار قد فتح أبوابه فنبدأ في تناول المرطبات والعصائر حتى الحادية عشرة موعد درس الجمباز المائي. أذهب وحدي إلى الدرس الذي تقصده النساء فقط. ساعة يوميًا أيقظت عضلاتي من سباتها العميق. بعدها أرتاح نصف ساعة ونقصد المطعم، نتناول الغداء.. (عدت مع كيلوين اثنين لا أعرف كيف أتخلص منهما). عند الواحدة والنصف نعود إلى المسبح، أستسلم لقيلولة لذيذة مدة ساعة، بعد ذلك يحين موعد الغطسة الثانية، أربع مرات ذهابًا وإيابًا. عند الرابعة درس الرماية بالقوس. عند الخامسة

درس «الإستريتشينج». عند السادسة مشروب الشعير المحلي، وبعدها نصف ساعة من المشي على شاطئ البحر، ثم نلتحق مباشرة بالغرفة.. نغتسل ونرتاح قليلًا، قبل أن أرتدي لباس السهرة وننزل إلى سطيحة البار الآخر نشرب كوكتيلًا آخر، ونستمتع بغناء العجوز الذي يعزف وينشد كل يوم، ونراقب الناس ونعلق عليهم ونضع سيناريوهات مختلفة للعلاقات الغريبة التي تجمع بينهم، ويخبر كل واحد فينا حصيلة مراقبته خلال اليوم، وقد كنت سعيدة جدًّا بنظارتي الـ«ري بان» (المرآة)؛ حيث يستحيل على أي يكون أن يعرف في أي اتجاه أنظر. حملة استنتاجات: من نظر إليَّ ومن نظرت إليه...إلخ إلخ إلخ. نعطي الناس أسماء، فهذه عائلة القتلة، وهذه عائلة الصخرة، وهذا الدولفين...إلخ إلخ إلخ. ونبقى على هذا الحال إلى أن يحين موعد العشاء. نحتل طاولة لها موقع جميل، نحرص أن نتواجد مبكرًا حتى لا يسبقنا أحد إليها. المشروب الذي يقدمه المطعم مجاني، ولكنه سخيف وله طعم صدفة متعفنة على الرمال. نحرص دائمًا على طلب زجاجة من لائحة المشروبات مهما كان ثمنها فيحترمنا مدير المطعم «المافيوزو» أكثر، يعتقد أننا لسنا بخلاء كبقية المجموعات التي أمت المنتجع. وصار إن تأخرنا يحجز لنا الطاولة سلفًا فنبادله ابتسامات امتنان. استعدت بفضله وبفضل مجموعة الشباب المنشطين السياحيين ما كنت أظن أنني نسيته من اللغة الإيطالية، وكان دائمًا ما يحرص على تفسير وصفات الأطباق المقترحة لنتأكد أنها خالية من البيض. حسنًا، فشلت محاولته اليتيمة في التحرش المهذب بي. وكاد «نون» يتخلى عن امتياز الطاولة ذات الموقع الجميل لولا أن ربك عاد وعدَّلها. بعد العشاء نتوجه إلى سطيحة البار مرة أخرى نتبادل أحاديث عن حياتنا وواقعنا وأحلامنا وبعض ذكرياتنا، ثم نرفض بتهذيب (كل يوم) دعوات المنشطين لنا للانضمام إلى «ديسكو» المنتجع.

فشمس النهار القوية لا تسمح لي بالصمود ليلًا ولا بالسهر. نغادر إلى الغرفة، نستعد للنوم ببعض القراءات، ونغفو كالأطفال حتى السابعة من صباح اليوم التالي. حدث لـ«نون» أن استيقظ عدة مرات ليلًا لينظر من الشرفة ويطمئن أن البحر لم يهرب، فأطمئنه قائلة بأنني تعثرت بموجة قوية اليوم، وهذا خير دليل على أن البحر باق هنا ثم ننام من جديد.

طقوس لولاها لما كنا احتملنا هذا الشعور بالعزلة عن العالم الخارجي. طقوس بفضلها صرت سوداء رغم المظلة والكريمات الواقية من أشعة الشمس، وسوادي لا يليق بهذه العاصمة الباردة إطلاقًا، بل بجزيرة كتلك التي أمضيت فيها واحدة من أمتع إجازات الاسترخاء والتنبلة.. هناك نسيت العمل وهمومه وغلظة الزملاء، ودموعي التي لم يكن يجب أن أذرفها، نسيت الضغط الذي وقعت تحته بسبب حملي لثلاث بطيخات في يد واحدة.. نسيتهم جميعًا وغرقت في داخلي، ثم خرجت راضية عن نفسي، فلقد تبين لي في نهاية الأمر أنه ورغم كل عيوبي، أبقى إنسانة شديدة الطيبة وهذا أمر نادر في أيامنا هذه.. *متواضعة البنت*.

لا شك أننا كسرنا الطقس اليومي أربع مرات ربما عندما خرجنا في رحلات منظمة إلى بعض القرى التي يجب زيارتها، وكدنا نأخذ الباخرة إلى جزيرة مالطا لقضاء يوم واحد فيها ونلتقي صديقًا قديمًا لنا هناك، لكنني عدلت عن الفكرة لأنني أخاف من الإبحار ليلًا.

كان كل شيء يسير على خير ما يرام إلى أن خرجنا في تلك الرحلة التاريخية. لم أكن أتوقع أن أنفعل بهذا الشكل أمامه. أنا التي كنت أعتقد أنه لا شيء قادر على سحب أنفاسي وقطعها كما فعل. أصبت بذهول تام وبكيت، ومن شدة انفعالي نسيت أن ألتقط له الصورة التي أريد. أمام ما خلفه شعرت أنني حشرة صغيرة غير ذات نفع تقف على سطح القمر. هذا القمر

الذي كلما سألوني صغيرة ماذا ستفعلين حين تكبرين؟ أقول أريد أن أصعد إلى القمر.. لكن والدي شمت بي مرة وقال إنني إذا كنت أريد فعلًا أن أصعد إلى القمر، فعلى علاماتي في مادة الرياضيات أن ترتفع عن مستوى اثنين تحت الصفر.. جلب مدرسًا كريهًا ليعطيني دروسًا خصوصية، لكنني كنت خير مثال على مقولة: فالج لا تعالج، وفضلت أن أتخلى عن فكرة الصعود إلى القمر على أن أجتهد في مادة كان عقلي يرفضها ولا يزال حتى اليوم.

لكن الذي لم يقله لي والدي إن هناك قمرًا على الأرض.. ولقد وقعت في غرامه.. بقيت أسبوعًا كاملًا أهجس به بعد أن رأيت ما رأيت. عن جد انقطعت أنفاسي. حدث ذلك عند سفوح بركان الـ«إتنا»؛ أكبر براكين أوربا الناشطة. ليس البركان الذي أثار انفعالي بقدر ما فعل ذلك الخراب الذي خلفه وراءه على كل الطريق الممتد من السفح إلى القمة. الحجارة المتجمدة السوداء التي كانت منذ زمن قريب جدًّا حممًا سائلة وحمراء، كلسان الأرض، بل هي ألسنة الأرض، تثير قشعريرة طويلة الأمد في الجسم. ألسنة الحمم لها ألف قصة وقصة.. يشير الدليل في أثناء صعود الباص إلى منزل توقفت الحمم عند أحد شبابيكه ولم تتابع رحلتها لسبب مجهول اعتبره أهل القرية معجزة من معجزات الرب. لكن المعجزات توقفت عند بقية القرى التي دمرها البركان تدميرًا كاملًا.. ثم عادوا وبنوها واستقروا فيها ثانية غير آبهين بنشاط البركان الدائم، ولا بساعة غضبه التي لا يعرف أحد متى تأتي. على ارتفاع ثلاثة آلاف متر تقريبًا شممنا رائحة تشبه رائحة حطب المواقد في شتاء القرى، واقتربنا من عدة فوهات تتنفس على شكل دخان وغازات، ودفأت يدي بالقرب من إحدى فوهاته الصغيرة، وذبت في هذا العالم الذي لم أكن أريد الخروج منه.

الآن أعرف أمرًا مؤكدًا: إذا صممت في يوم من الأيام على الكتابة (الكتابة الحقيقية) سأتوجه إلى قرية «نيكولوزي» وأبقى هناك إلى أن أنهي ما أتيت

من أجله، سأكتب رواية من على سطح القمر البركان. في طريق العودة لممت حممًا متجمدة سوداء وضعتها في حقيبتي؛ لأنني اعتبرت أنها منذ تلك اللحظة ستكون تلك هي الطاقة التي سيمدني بها جوف الأرض يوميًّا، واشتريت أساور مصنوعة من تلك الحمم لا تفارق يدي، وشربت مشروبًا قاتلًا اسمه «نار البركان» جعلني في حالة من الانفلاش والانشراح لم يسبق لي أن عشتها، واشتريت فيلمًا عن تاريخه وحياته وحاضره، انتظرت العودة بفارغ الصبر لمشاهدته.. لكنه ضاع مع الحقيبة. منذ يومين عدت ولا خبر، وأبدأ يوم غد رحلة البحث عن الحقيبة الضائعة في أحد مطارات العالم، رحلة البحث عن البركان الضائع. ومن يعلم، إن وجدته، قد تبدأ روايتي الأولى (حسب اقتراح صديق افتراضي) من هناك!

الحياة الثانية

يسأل «شاندرا مان»: «ماذا تريدين أن تكوني في حياتك الثانية؟».

أنظر عن يساري وأقول: «أريد أن أكون هذا النهر الهادر».

ثم أنظر إلى جذور الشجرة التي انشقت من أرض جبال الهيمالايا وأقول: «أو ربما هذه الشجرة، وماذا عنك؟».

يرد «شاندرا مان»: «عندما أرى الذي سأكونه سأجيبك».

كنا قد مشينا ساعة وربع الساعة عندما وجدته يدعوني بإشارة متباطئة من يده لالتزام الهدوء.

أشار بإصبعه قائلًا: «في حياتي الثانية سأكون هذا العصفور الكحلي».

ثم طار.

تصفية حسابات ودية

في ساعات معينة، مثل الآن، تهجم عليَّ الهواجس والمخاوف وأسأل نفسي: ترى لماذا اخترت رحلة سير في الجبال؟ ألم يكن من الأفضل لو أنني اخترت رحلة عادية كسائحة تقليدية تستكشف التيبيت والنيبال من دون مشي وصعود ومرتفعات وهيمالايا وانقطاع الأكسجين ورفة القلب ودوار الجبال إلى آخر هذا الهراء؟ ألم يكن من الأفضل لو أنني اخترت البقاء في الأسفل مع صورة تظهر فيها جبال الهيمالايا بهية من خلفي؟ لماذا دخلت في هذا المشروع؟ لماذا أحوِّل الموضوع برمته إلى عقاب؟ أين ذهب حماس الأيام الأولى وفرحتي بهذا القرار التاريخي؟ أين؟ لماذا اخترت هذا لنفسي؟

تقول صديقتي القديمة جدًّا، وقد تكون أقدم واحدة أعرفها وأحبها وتعيش في باريس، بأنني لم أختر شيئًا، بل إن ملائكتي وروحي هم من اختاروا لي ذلك، ثم دعتني إلى الغداء يوم الخميس المقبل لنحتفل بقرار سيقلب صفحة مهمة من حياتي ليفتح صفحة أخرى، بل منعطفًا آخر لا يقل أهمية ربما.. وكأنها تقول لي: الحياة قبل النيبال لا علاقة لها بالحياة بعد النيبال.. جملة تذكرني بما قاله لي صديق آخر: الحياة قبل الـ«آي فون» شيء وبعد الـ«آي فون» شيء آخر وكان محقًّا في ذلك.

عدت إلى بريدي الإلكتروني وبحثت عن رسالة كانت «رَوزا» قد أرسلتها منذ عامين، رسالة من صفحتين تختصر فيها رحلة لم أعد أذكر كم استغرقتها هي وعائلتها، رحلة الحج على الدراجات الهوائية إلى «سان جاك دو لا كومبوستيل».. وجدت الرسالة.. هذه المرة قرأتها بطريقة أخرى أكثر دقة وانتباهًا.. لكن «رَوزا» لا تفصح في رسالتها عن كثير، بل تقول بأنها لو أرادت أن تحكي هذه الرحلة بالتفصيل لتمكنت من تأليف كتاب إن لم يكن أكثر، واكتفت بتصميم بسيط وبضع صور وأسطر، تركز فيها فقط على طبيعة اللقاءات التي صادفتهم خلال المسير الطويل.. وتختم رسالتها المؤثرة بشبه قناعة بمعاودة الرحلة مرة أخرى مع الأولاد.. الأهل يسيرون بإيقاع بطيء، والأولاد بإيقاع «أسرع» أو شيء من هذا القبيل.

لم أتوقف عند مسألة الإيقاع كثيرًا، غير أنني تذكرتها بعد ساعات عندما تناولت كتابًا ركنته طويلًا على رف من رفوف المكتبة.. فكرت أن أكلمها، ثم قلت لا. سأرسل لها كلمة أخبرها أنني أقرأ بانتباه شديد رسالتها وأعايدها بمناسبة عيد الفصح، الذي يحين غدًا. كم الساعة الآن؟ (صرنا غدًا)... حكايتي مع «روزا» حكاية.. ولا أعرف أن كنت سأجد لها مبررًا لأرويها في يوم ما.. بعدما انكسرت صداقتنا وتناثرت قطعها هنا وهناك، فيما أرفض تسميتها بالقطِيعة على الرغم من أن كل شيء يقول بأن الأمر كذلك.

فتحت بريدي، وكنت سأبدأ في كتابة الرسالة، ثم لا أدري ما الذي حدث، ربما تلقيت اتصالًا هاتفيًا، جعلني أنسى موضوع الرسالة برُمته.. «روزا» تقول أمرًا مهمًا في بداية رسالتها، أو ما يمكننا اعتباره «دفتر طريق»، تقول إنهم رفضوا قراءة أي شيء له علاقة بموضوع الرحلة قبل الانطلاق وتركوا أنفسهم للمفاجآت.. ربما كان يجب أن أحذو حذوها.. ولكن في نهاية الأمر لم أقرأ كثيرًا عن الطريق الذي سنسلكه، ولا قرأت شهادات المشَّائين

في الجبال! كل ما قرأته كان عبارة عن الكوارث المحتملة وطرق الوقاية والانتباه واللقاح والحذر.. باختصار قرأت كل الأمور المخيفة القادرة على تكدير صفو كل ما هو جميل.

حتى الكتاب الذي اشتريته عن النيبال لم أقرأ فيه كثيرًا، قرأت مختصرات أضجرتني عن تاريخ الحكم فيها من عصور ما قبل ما لست أدري مَنْ، وقرأت عن الحادثة التي أودت بحياة العائلة المالكة، وعن بعض الطقوس التي تعجز ذاكرتي عن استعادتها حاليًّا، عن عدد اللهجات واللغات ما يقارب التسعين، وعن هيمنة الديانة الهندوسية على البلد تليها البوذية، ومن ثَمَّ قليل من كل شيء أقلية مسيحية ومثلها مسلمة...وإلخ إلخ. ما لفت انتباهي في هذه القراءات هي الأزمات والاقتتال الذي شهدته البلاد.. لم يكن قتالًا طائفيًّا أو دينيًّا.. الماويون ضد الجيش أو الحكم.. شاهدت تحقيقًا أجنبيًّا عن الموضوع ونسيت تفاصيله أيضًا.. لا أعرف أن كنت بالفعل أنسى أو أنني لا أركِّز من الأساس؟ أم إنني عندما أركِّز في كثير من الأحيان لا أفهم.. كما كان يحدث لي في الصف (حكاية التركيز والصف والمدرسة هي حكاية يجب أن أعود إليها في «مودٍ» ما لاحقًا). هل التركيز والحفظ يحفِّزان ذكاء الإنسان.. سيعيدني الذكاء حتمًا إلى «روزا».. جئنا، تقريبًا، في الوقت نفسه إلى باريس، هي لتكمل دراستها، وأنا لأعمل، وحدث أن عشنا في بيت واحد، مع آخرين أحيانًا، فترة من الزمن، فكانت الأم الحانية، والأخت التي لم أحظَ بها في الحياة، والصديقة الخدومة والمُحبة التي تحتمل كل نزوات «رات» ولا ترفض لها طلبًا.. كما أنها كانت تميل إلى قصص علم النفس والتحليل السيكولوجي، على الرغم من أن دراستها كانت في مجال مغاير تمامًا.. في يوم من الأيام، وكان ذلك قبل هبوط الإنترنت علينا، كتبَت من ضمن ما كتبت ـ وكنا نتبادل هي وأنا وشلة الأصدقاء كثيرًا من

الرسائل الورقية ـ تحليلًا لكل من شخصياتنا. أذكر أنها وضعت مجموعة من الصفات والانفعالات، وإلى جانب كل صفة أو انفعال وضعت علامة.. وإلى جانب العلامة كتبت تحليلها بشكل ظريف ولافت.. أذكر تمامًا أنني حزنت من نقطة واحدة في التحليل، اعتبرتها تحط من شأني ومن قدري.. فلقد وضعت إلى جانب صفة الذكاء علامة لم تعجبني، ستة على عشرة أعتقد. لا أعرف لماذا لم تعجبني بالضبط؛ هل لأن العلامة تعني أنني غبية أم إنها لم تعجبني لأنني كنت أريد أن أكون أذكى من ذلك في نظرها.. لكنني لم أعبِّر عن سخطي، ومن المؤكد أن هذه الحادثة ساهمت بشكل طفيف في مسألة فقدان ثقتي في نفسي. كنت ولا زلت حتى الساعة أحتفظ بمجموعة من تلك الرسائل، وعندما قررت أنني سأحتفظ بالرسالة/ التحليل أمسكت قلمًا وعدَّلت العلامة التي وضعتها «روزا» وزدتها رقمين، علمًا بأنني كنت واثقة أنه لا يمكن لمخلوق أن يرى أو يقرأ تلك الرسالة، وما زلت أجهل حتى هذه اللحظة لِمَ فعلت ذلك. وعلى الرغم من ذلك لم يتحسن مستوى ذكائي.. لذلك أكره اختبارات الـ«آي كيو»، وأعرف أنني حمارة في مسألة الرياضيات والمنطق، لكني عندما قمت بهذه الاختبارات مرتين سرًّا عبر الإنترنت محاولة قدر جهدي أن أفهم الأسئلة المطروحة، ثم أجيب بما يمليه عليَّ حدسي، كنت أحزر الجواب الصحيح في كثير من المرات من دون أن أنهك عقلي بالتحليل والتفكير المنطقي..

قرأت، ذات مرة، نظريات كثيرة تقسم الذكاء إلى مجموعات: الذكاء العاطفي أو الانفعالي، الذكاء الحسابي، الذكاء الاجتماعي وغير ذلك من «ذكاءات» وأبحاث تثبت أنه لا يوجد إنسان غبي إنما ذكاء كل إنسان يبرز في خاصية معينة لها علاقة بتركيبته وشخصيته ونشأته...وإلخ إلخ. لو كنت ذكية بماذا كان سيفيدني الذكاء الحسابي؟ هل كنت سأدخر ما يكفي لشراء

شقة، مثلًا، بدلًا من تبذير المال الذي لا أعرف كيف وعلى أي الأشياء أنفقته؟ لا يحتاج الأمر إلى ذكاء هنا.. يحتاج حتمًا إلى كل شيء عدا الذكاء.

«يا زكزك».. يستفزني الوصف الذي كنا نعيِّر بعضنا بعضًا به في صبانا دلالة على الغباء.. قالتها لي السيدة «لأ مش هيك» في آخر لقاء لنا علمًا أن علاقة من هذا النوع الذي يتيح لك المزاح كما تشاء لم تنشأ بيننا. يا زكزك؟

يغيظني «نون» أحيانًا عندما أسأله أسئلة ساذجة في السياسة أو أفتي فتوى «غبية» ومتناقضة في أمر ما، يغيظني عندما ينظر إليَّ نظرة لو نطقت لقالت: يخرب بيتك ما أغباكِ.

بماذا سينفعني الذكاء؟ هل كان سينشط ذاكرتي وقدرتي على الحفظ والفهم السريعين؟ تعمدت في درسَيْ التصوير اللذين تابعتهما أن أقول بكل جدية وأمام بقية المشاركين إنني بطيئة الفهم والاستيعاب، أثمرت نتائج هذا الإعلان في المرة الأولى، إذ حرص الأستاذ كثيرًا على إيصال المعلومة لي بهدوء ولم أكن أخجل من قول: «لم أفهم» وكثيرًا ما كرَّر بعض النقاط حتى فهمتها تمامًا.. راقتني اللعبة والاهتمام الذي حظيت به في الصف فلعبتها في الدرس الثاني مع أستاذ آخر وجاءت النتائج مدوِّية كذلك! وأما الدرس الثالث فلم ألحق بِركابه لأنني بالكاد لحقت نفسي وأدخلتها الحمام كما أن الـ«مود» كان في أسفل السافلين فلم أكلف نفسي عناء السؤال وغادرت الصفَّ غير آبهة بالمال الذي دفعته ثمنًا لهذا الدرس! هذا ذكاء من نوع آخر.

لماذا أتكلم في الذكاء؟ كنت أحاول أن أعرف بماذا سيفيدني.. هل كان سيفيدني، مثلًا، في اختيار وجهة أخرى غير الهيمالايا والنيبال وكل وجع الرأس والقدمين هذا؟ لا أعتقد.. فقد اعتمدت بالدرجة الأولى على حدسي الذي أملى عليَّ، في كثير من الأحيان، أقوالًا وأفعالًا نفذتها من دون تفكير

وقادتني إلى مواقف ستحتاج، حتمًا، إلى ذكاء حادٍّ لاكتشافها.. ذكاء حاد قد لا أتمتع به، وأنقهر عندما يتم الاستخفاف به كما فعل صديق منذ فترة.. «إنت مش ذكية ولكنك لست غبية»، فأحزن وأفتي بأن ذكائي في حدسي.

سحبت اليوم من رف المكتبة كتابًا لـ«هاروكي موراكامي» لا أعرف ولا خلق لي لترجمة عنوانه الطويل إلى العربية، ولكنه عبارة عن سيرة ذاتية للكاتب العدَّاء.. كنت قد اشتريت هذا الكتاب منذ عامين تقريبًا، ولا أعرف لماذا ابتعته، ربما لأنه «موراكامي» الذي انضممت لهواته منذ عرَّفني زميلي السعودي على كتبه مع العلم بأني لم أقرأ له سوى ثلاثة أو أربعة كتب على الأكثر والباقي مكدس في المكتبة. اشتريت هذا الكتاب وقرأت فيه ثلاث صفحات ثم تركته.. وعلى الرغم من ذلك فقد اقترحت على صديقتي أن تقدمه لصديقها الذي سيشارك في «ماراثون» باريس، ربما عند وصوله لخط النهاية حيث تنوي انتظاره.

ثم قلت إن المشي من عائلة الركض وربما يتعين عليَّ قراءة الكتاب في هذه الفترة لعلني أجد فيه إيجابيات تخفف من حدة قلقي ومخاوفي بشأن رحلة النيبال.

(تدويناتي طويلة.. معه حق «نون»).

كلما تذكرت سفارة النيبال أذكر نفسي بضرورة تسجيل ردة فعلي، غير أني سرعان ما أنسى.. الآن تذكرت وسأفعل قبل أن تطير الفكرة.. عندما ذهبت إلى السفارة للحصول على «الفيزا» كان الباب مواربًا، فدفعته بيدي وهممت بعبوره بنشاط، وإذا بالمفاجأة تعقد لساني.. تفتح الباب وتستعد لتخطو لكنك ستقف لأنك لن تجد أرضًا منبسطة لتخطو عليها، بل يجب أن تضع قدمك على أول درجة من سلَّم واقف وطويييل يقودك إلى أعلى

حيث تستقر بضعة مكاتب متواضعة جدًّا تخص موظفين هم غاية في اللطف والدماثة.

تعطيك السلالم، على الرغم من الموكيت الأحمر الذي يغطيها، فكرة مسبقة عن طبيعة هذا البلد حتى ولو لم تقرأ عنه حَرفًا.

ربما يجدر بي أن أحذو حذو «روزا» ولا أقرأ شيئًا؟ (هل قلت ذلك من قبل؟ لا بأس، ففي الإعادة إفادة ـ لا دخل للخرف هنا). سأعزو الأمر لـ«موراكامي» الذي بدأت اليوم في قراءة سيرته كعدَّاء.. وكما تعرفون كلما قرأت هذا الرجل أصابتني نوبة التدوين.. غريب أمري معه..

ما إن بدأت القراءة حتى تكاثرت الجمل والأفكار التي تعجبني وكنت أقتني في مثل هذه الحالات، حالات القراءة، دفاتر صغيرة أنيقة أدون فيها الجُمل التي تلفت انتباهي مع اسم الكاتب والكتاب ورقم الصفحة.. انقطعت عن فعل ذلك منذ سنوات طويلة، غير أني شعرت اليوم برغبة مُلحَّة في استعادة تلك العادة. فتناولت دفتر الحزن والمآسي (هكذا كان اسمه عندما اشتريته)، وبدأت أكتب بعض الأفكار والجمل التي راقت لي في الكتاب.. فجاء خطي رديئًا للغاية، كيف لا وأنا أجلس في مكتبي (السرير) أحمل الكتاب بيد بينما أحاول إبقاء صفحة الدفتر مفتوحة بجزء من يدي الثانية، وأترك الجزء الذي يضم أصابع الكتابة الثلاث ينسخ الجُمل.. ثم اكتشفت أن النسخ سيستغرق وقتًا طويلًا، وأنني فقدت الصبر على هذه الأشياء.. وندمت لأنني لم أقتن قارئًا إلكترونيًّا.. يبدو لي أنني سأفعلها بعد عودتي من النيبال وسأكتفي حتى حدوث ذلك بتذييل المقاطع بقلم الرصاص على صفحات الكتاب نفسه، وإن تسببت فعلتي تلك في ألم بالغ للورق.. لا أريد ورقًا منذ الآن فصاعدًا.. بلى سأكون مرغمة على استخدام الورق في جبال الهيمالايا، تقول ناديا بأنني سأكتب كثيرًا.. بينما ينصحني صديقي الافتراضي

بمجموعة من أقلام الرصاص ودفتر محترم.. لم أسأله لماذا رشَّح لي أقلام الرصاص، ربما لأن أقلام الحبر تتأثر بحالة الطقس وقد تمتنع عن الكتابة في البرد وتسيل في الحرِّ. لم أجد منطقًا آخر.

عدا ذلك لا أريد ورقًا بعد اليوم، أريد التحكم أكثر فأكثر في هذا العالم الإلكتروني الذي أعشقه وأحب فيه لحظة اكتشاف، وتعلم الأشياء الجديدة؛ لأنه سيأتي عليَّ وقت ما لن تنال فيه هذه الأشياء اهتمامي أو صبري أو طاقتي أو حتى قدرتي على الفهم فأعود ساعتها إلى الورقة والقلم بحنين جارف.

يتحدث «موراكامي» في بداية كتابه عن «مانترا». لا أملك قاموسًا بجواري الآن، ولكن فلنقل بأنها تعويذة يرددها العداؤون ويسمي واحدة على لسان عدَّاء: «لا يمكننا تفادي الألم، أما المعاناة فهي خيار».

اكتشفت في الصفحة العاشرة أهميته كروائي وعاديته ككاتب سيرة ذاتية.. قد يكون من المبكر الحكم على الرجل من عاشر صفحة، فلأعطه فرصة أطول..

ثم أصل في الكتاب إلى نقطة ذكرتها «روزا» بشكل عابر في رسالتها.. أخافتني قليلًا فتوقفت عن القراءة وجئت إلى هنا من أجلها، (والآن يبدو لي أن عمارة من الأسطر قد تكدست قبل أن أصل إلى ما جئت لأدون عنه).

يحكي «موراكامي» عن تباطؤ الحركة الذي يحدث على الرغم منا مع التقدم في السن.. يحكي عن الصدمة التي أصابته عندما بدأ يشعر ببطئه وبعدم قدرة جسده على تلبية إشارات مخه، كما في السابق عندما كان يركض، حدث هذا على الرغم من أنه يركض معظم أيام حياته.. يقول إن

لاعب لعبة كذا يصل إلى ذروة نشاطه وقوته في سن كذ، ولاعب لعبة كذا في سن كذا، ويصل مع لاعب، نسيت ماذا، إلى سن الثلاثين، ثم يذكر أنه كان في أوج طاقته في الركض في نهاية أربعينياته.. تنفست الصعداء قليلًا، ما زلت أملك وقتًا وبالتالي لن يمثل عمري خطرًا على مقدرتي في السير الطويل في جبال الهيمالايا مدة عشرة أيام.. أردد هذه الجملة كثيرًا ـ جبال الهيمالايا ـ ربما لأنني وعلى الرغم من مخاوفي الكثيرة لم أصدق بعد بأنني سأذهب فعلًا، ما يزال الأمر في خفة الحلم، حلم؟ فلنكن أكثر واقعية، ولنقل كالكابوس.. لكن «موراكامي» يُعزي نفسه بحقيقة أن ذروة العطاء تبرز وتنتهي لدى الرياضيين في سن مبكرة، بينما في الفن والكتابة يحدث أن تصل ذروة الإبداع في سنين متقدمة جدًّا ويضرب المثل بـ«ديستويفسكي»... أمثلته ذكرتني بكتاب أهديته لـرفيق لي عندما بلغ الخمسين من عمره.. عنوان الكتاب «سن الخمسين وما بعدها».. ويدور في فلك فكرة «موراكامي» تلك، وقد يكون هذا الأخير قد أتى على سيرته، أو اقتبس من الكتاب من دون أن ينسب معلوماته لأي مرجع لكثرة ما قرأ في مرحلة البحث لهذا الكتاب.. لم أعد أذكر عندما أهديت الكتاب لصديقي هل كتبت له أو قلته شفاهة: «هذا الكتاب ليس هدية بل مجرد سلفة. لديك عشر سنوات لتقرأه أكون بعدها قد بلغت سن الخمسين من عمري فتعيده إليَّ لأنني سأحتاجه على الأرجح».

عشية السفر إلى النيبال..
سوار مطاطي: مقتطف من نصوص ما قبل الرحلة

كما السحر تمامًا. كأنني أساسًا لا أملك رُكَبًا!

ما زلت عاجزة عن الفهم.. أحسن.

جيد. صورة العظم ممتازة. الركبة اليمنى أعلى من الركبة اليسرى بقليل، وهذا يعالج عند المعالج الفيزيائي لاحقًا..

في الحقيبة التي تفغر فاهها على الأرض بعض الثياب وكميات مهولة من المساحيق والأدوية.. صيدلية متنقلة ذات حجم مريب.

هل أدخل في تفاصيل شراء حقائب السفر؟ لأ سيكون هذا تفصيلًا بلا معنى.

ناديا تقف أمام الأغراض التي كنت أستعد لإدخالها في الحقيبة الثالثة التي اشتريتها في ظرف شهر. تفحص محتوياتها بأطراف أصابعها، ترفعها في الهواء قليلًا، تتأملها بسرعة وتهتف: «هيدا لشو؟» وترمي بلا مبالاة على السرير.. «وهيدا لشو؟» وترمي.. «وهيدا بلا طعمة» وترمي. نحَّت معظم الأغراض جانبًا وجعلتني أبقي على الأساسي فعلًا. خفَّ وزن الحقيبة. لو كنت أعرف لما كنت اشتريت الحقيبة الأكبر حجمًا.

رجوتها أن تفتح كيس النوم أمامي. إذ لم أرَ كيسًا للنوم، أو أستخدمه طوال عمري.

يضيق خلقها وتبدأ بشتم وكالة السفر وتعتبر أن التنظيم عندهم أكثر من اللازم بحيث يقتلون كل بادرة للاكتشاف والمفاجأة.

ـ لا لن أفتحه ولن أوضبه.. لا أنا ولا أنت. دعي شيئًا يدهشك للمرة الأولى في الميدان.

رضخت لها على مضض من دون أن أخبرها أنني لن آخد كيس نومها معي لأنه لا يحتمل درجات حرارة متدنية تحت الصفر، وأني اشتريت واحدًا جديدًا يقاوم برودة تصل إلى خمس درجات تحت الصفر.

السابعة صباحًا ـ قبل التوجه إلى المطار:

هناك أغراض متناثرة هنا وهناك، يجب توضيبها في الحقيبة التي سأحملها على ظهري. أؤجل وأتسكع في صفحات الإنترنت. لا شيء. فراغ.

ناديا تقبلني، وتحتضنني: «استعدي للتحوُّل».

لا أفهم ما تعنيه.. لكني مستعدة.

مستعدة لدرجة لم أعد أشعر معها بمشكلة ركبتي. حسنًا.. ربما قليلًا راقبت طريقة مشيتي اليوم ووجدت أنها تحسنت عن الأسابيع الثلاثة الماضية. اختفى الألم بقدرة قادر!

ذهبت صباح اليوم سرًا عند رفيقي. أعطاني من تلك الحبوب المهدئة التي يكرهها «نون»؛ تحسبًا لنوبات قلق مفاجئة.

قفل متين لإقفال غرفة الفندق. واحدة من توصيات دفتر الطريق الذي أرسلته الوكالة.

أحاول تشغيل القفل العصري الذي يعمل برمز سري. لا مفتاح بل رمز. ماذا إن نسيته؟

يرمقني «نون» وبوادر تذمر في عينيه.

سيتعين عليَّ شكره للدعم المعنوي الذي توقف عن تقديمه منذ سنين طويلة. كان تشجيعه لي مؤثرًا لدرجة كدت أبكي لها. كان صادقًا ومحبًّا.. وأعرف أن باله مشغول.. جدًّا. وأنا كذلك.

سيتعين عليَّ أن أشكر أحمد صديقي في اليابان الذي لم يبخل عليَّ بالتشجيع كلما أصابتني واحدة من نوبات القلق المدمر وتراجعت عن خططي. إحدى نصائحه الأخيرة: «ضعي «مغيطة» (سوار مطاطي رفيع) في معصمك. كلما أتتك فكرة سلبية اسحبي المغيطة لأقصى مداها واتركيها تلسع معصمك. سيتعلم الدماغ شيئًا فشيئًا أن الألم مرتبط بالأفكار السلبية فيتوقف عن تزويدك بها.. تقنية المغيطة ممتازة».

يتعين عليَّ، أيضًا، شكر كل الذين تحمَّسوا للمشروع وقلقوا وأسدوا نصائح عملية وطبية، لكونهم من العارفين، ومجموعة صغيرة من الناس التي تابعت كثيرًا من مراحل التحضير..

وغيدا وكريستين اللتين تعاملتا معي ككائن ناضج لا يحتاج إلى دروس على الرغم من أنني كنت أتصرف، بسبب قلقي غير المبرر، كالأطفال، قلبتا بإيجابيتهما العفوية وأحيانًا بجملة واحدة، معادلات كثيرة في تفكيري.

سأشكر، ولن أسخر من كل الذين سخروا مِني، ولو تحببًا، وضحكوا

على مصائبي الصغيرة، واستخفوا بقلقي وجسامة ما أنا مُقدمة عليه، وحسدوا وصمتوا وأفتوا بما لا يعرفونه وإلخ إلخ عن قصد أو من دون قصد..

ستشير الساعة، بعد قليل، إلى السابعة صباحًا، وأراهم منذ الآن يصغرون شيئًا فشيئًا.. صرت بعيدة لدرجة لم أعد معها أراهم أصلًا.

عالزيـرو

تعتريني، منذ مدة، رغبة عارمة في قص شعري على الزيرو.

مرة تحت زعم أنه يجب على الإنسان أن يرى شكل رأسه ولو مرة في الحياة، ومرة بحجة التغيير، ومرة بحجة «ما المانع؟» ومرة بحجة أن قصة من هذا النوع ستعينني على بكاء طويل وحقيقي لم أعد أجيده من سنوات. وكانت الحجة التالية مقنعة تمامًا فلم أتردد لحظة في دخول صالون الحلاقة الرجالي:

سأعيشِ عشرة أيام في الجبال من دون إمكانية الاستحمام وسيكون شعري مقرفًا إن غرق في الزيت. لكنه على الزيرو يمكن غسله بعبوة ماء صغيرة والسلام.. فاوضني الحلاق الجزائري قليلًا وحاول إقناعي بالبدء برقم ثلاثة على ماكينة الحلاقة وفي المرَّة المقبلة أقرر إن كانت القَصة عالزيرو أم لا، فاقتنعت عندما خيَّرني برأيي أكثر..

بدأت ماكينته تحصد كل ما تقع عليه وبدا الأمر مسليًا. وصل إلى الجانب الأيمن وحلق بضربة واحدة كل الشعر الذي يعلو الصدغ قليلًا فبانت حقيقتي التي لم أكن أراها بهذا الوضوح.. طبقة من الشعر الداكن اللون تغطي طبقة من

الشعر الأبيض الذي لم يكن مرعبًا كما بدا في لحظة تعريته.. أصبت بصدمة صغيرة دفعتني إلى التفكير في الذهاب إلى البيت فورًا لصبغ شعري.. وبعد أن أتى على الجانب الآخر هدأت قليلًا. لم يكن هناك من كارثة حتى اللحظة.. حاولت تخيل نفسي بشعر شاهق البياض بالكامل فلم أفلح.. طالبته فور انتهائه بأخذ صورة لرأسي من الخلف.. كان شعري ليلًا حالك السواد، تغزوه على حياء مذنبات فضية تنتظر عرَّافًا يفسر مرورها في سمائي.. يا إلهي إنه يهجم من الخلف أيضًا.. نظرت إلى نفسي جيدًا بعد التقاط الصورة وتفاجأت؛ لأنني لم أحزن ولم أجد ما يدعو إلى النحيب.. أحسست أنني صرت أشبه أخي، وعلى العكس أحببت شكل رأسي كثيرًا، وخرجت سعيدة مكتشفة شعورًا جديدًا يشبه الدغدغة حين يمر الهواء بين رؤوس الشعيرات المتبقية على رأسي.. شعور مختلف بالخفة التي تحتمل. صُدم «نون» تمامًا.. في اليوم الثاني حاول أن يقنع نفسه أنه معجب بالقصة (بفتح القاف).. ها قد صرت امرأة عملية لا يحتاج شعرها إلى منشفة خاصة بعد الحمام وستشتاق فروة رأسها إلى ـ الشعور ـ بملمس مشط أو فرشاة شعر.

كان هذا من عدة أيام.

اليوم لم أكن بحالة مزاجية جيدة.. كنت أبكي على نفسي طوال اليوم، وحدث أن وقفت أمام المرآة اليتيمة الصغيرة في حمام البيت (لا مرايا في بيتي) ونظرت إلى نفسي وكأنها المرَّة الأولى التي أنتبه فيها إلى قَصة شعري.. وانفجرت في نحيب. عميق. طويل. متقطع النغمات. مصحوب بحسرة على الشعر الذي كان.. ولحسن الحظ أن الشعر ينبت من جديد ولو استغرق ذلك وقتًا طويلًا.. من سوء الحظ أن بعض الأيام وبعض السعادات لا تنبت من جديد مهما منحتها من وقت.

نيبال وأشياء أُخرى

أسأل نفسي، الآن وبعد مرور شهر وثلاثة أيام على عودتي، لماذا ذهبت أصلًا؟ ماذا دهاني؟ صحيح أنني تحججت بـ«ناديا» (ابنة «نون» التي قامت برحلة مماثلة)، وبرغباتي السابقة في التشرد والهروب من واقعي ومحيطي مرَّات، صحيح أنني كنت أوقع بعض تدويناتي السرية منذ سنتين بجملة عشتم وعاش النيبال، صحيح أنني ومنذ عام ألفين وسبعة كتبت تدوينة عبَّرت خلالها عن رغبتي في الذهاب إلى النيبال من دون أن أملك أدنى فكرة عن البلد أو من دون أن أفرق أصلًا بين النيبال والتيبيت.. لكن لم يخطر على بالي ولا حتى في أشد أحلامي جموحًا أنني سأرغب في الذهاب إلى هناك أو أنني سأفعلها.

«كاتماندو»؟ سمعت اسم العاصمة للمرَّة الأولى ربما في عام ١٩٩٦ أو ١٩٩٥، وقتها كان «نون» يملك كمبيوتر «ماك»، تعلقت، من بين الألعاب المخزنة عليه، بتلك اللعبة التي لا أذكر منها شيئًا سوى اسم المحققة الجنائية «كارمن» (نسيت اسم عائلتها) والتي تجوب العالم بحثًا عن لصوص الآثار تقريبًا.. لعبت دور «كارمن».. عندما قادتني اللعبة افتراضيًّا لأول مرة في حياتي إلى «كاتماندو»، لم يحدث لي شيء

خاص، فقط أحسست أنني طرت إلى محطة تقع في آخر الدنيا وبس.. ثم نسيت «كارمن» و«كاتماندو». كل ذلك لأقول إنه لم يخطر ببالي ولو مرة واحدة أنني سأذهب بشحمي ولحمي إلى «كاتماندو» وأن «كاتماندو» هي ما هي عليه.

لا أعرف لماذا ذهبت وما هو الدافع.. ذهبت وعدت ونقطة في آخر السطر.

يزيغ نظري عندما أحاول قراءة بعض الأشياء التي كتبتها على الدفتر الأزرق الأنيق الذي رافقني في الرحلة.. أتوه عندما أحاول تصفح الملاحظات التي دونتها على مفكرة «داي ون» في الـ«آي فون».

تختلط الأيام بعضها ببعض.. حتى إنني كسرت رأسي مرة لأخمن تاريخ حدوث ـ تلك الواقعة ـ ولم أتمكن من تحديد اليوم فاستأت كثيرًا.. يبدو أنني كنت أسجل حسب المزاج والطاقة.. لم أكتب حتى أسماء القرى التي مررنا بها، ولم يكن يعنيني تنظيم «أديل» ـ سائحة في المجموعة التي ضمتها الرحلة ـ التي تريد وتباطح لتكون دائمًا في المقدمة ـ والتي كانت تحرص على تدوين كل شيء وإن فاتها اسم قرية أو جبل أو ارتفاع أو عشبة أو حشرة ما (أبالغ قليلًا)، تعود لتتحرش بالدليل اللزج علها تحصل منه على معلومة مفيدة.. هل قلت إنه دليل لا يفقه شيئًا؟ لأ لم أقل.. دليل مادي إلى أقصى حد، وهذا كاف لإدانته.

قلت لنفسي يجب أن أبدأ في كتابة الرحلة قبل أن تتبخر تفاصيلها من رأسي ولا أفعل. حتى إنني لم أقرأ كل ما كتبته في الجبال.. أشعر، كلما حاولت كتابتها وكأنني مقدمة على أعمال سخرة لا تنتهي.

مع ذلك لا أعرف لماذا ذهبت ولماذا يجب أن أكتب هذه الرحلة. يجب.

ناداني «نون» في منتصف كوب القهوة الأول هذا الصباح قائلًا: «تعي تفرجي، أصحابك على التلفزيون». لم يكن فضولي الخرافي قد صحا تمامًا من النوم (ولا هو أيضًا)، فلم أقفز كالفرنيني (ما زلت حتى الساعة لا أعرف ما هي الفرنيني بالمناسبة)، لأرى مَن هم أصحابي على التلفزيون، تذكرت أنني بلا أصحاب وأكره التلفزيون ويكرهني.. لكنني سرحت قليلًا.. ثم صرخت أسأل «نون» بصوت ارتجت له الجدران وتكفل بإيقاظي تمامًا: «مين يعني أصحابي؟» أجابني بغمغمات خافتة عمدًا علّي أتحرك وتحركت.

وقفت أمام الشاشة بخطًى متاقلة متسائلة: «مين؟» لم أنتظر الجواب هذه المرة، بل ألقيت بنفسي على الكنبة الحمراء، ثم تذكرت كوب القهوة، وطرت ركضًا (لاحظ كيف نطير ركضًا) وقد احتضنته وعدت لأغوص في الكنبة الحمراء لأشاهد الفيلم الوثائقي «طريق الموت» في النيبال.

بعد دقائق كبحت جماح دمعتين، سيتهمني بالجنون إن لاحظ ذلك. تسارعت دقات قلبي على الرغم مني، أعرف هذه الأماكن، وأكاد أعرف هذه الوجوه.. أعرف وجوهًا تشبهها تكاد تكون نسخة طبق الأصل عنها. إنه الفقر الجميل، الفقر الراقي، النظرات المغناطيسية للولد الذي خاطر بحياته من أجل حذاء جديد لأخيه الصغير، من أجل مستقبل..... لا لن أقول أفضل.

فجأة قال «نون»:

«كتير مؤثر هالشي!»

«هه؟» فلأفتح صنبور البكاء إذن.

بعد ساعتين كنا في سوق الأحد، نستكشف أفلامًا جديدة عند بائع الأفلام الرخيصة الذي سأله «نون»:

«ألديك أفلام عن النيبال؟»

«ما في كتير أفلام عن النيبال والقليل الموجود اشتريته قبل سفري.»

يلتفت إليَّ قائلًا:

«ما في أفلام عن النيبال غير تلك التي ستصنعينها أنتِ!»

نضحك.. تقفز صورة رجل الجبال أمامي. يا بيبي كم اشتقت إليه.. إليهم.

فيـل

استعنت اليوم بسيدة لتنظيف البيت وكي القمصان. يمكنني القيام بذلك لكني استشعرت أنني سأتعب أكثر من اللازم في الوقت الذي أسعى فيه لادخار طاقتي.

وصلَت قبل موعدها بخمس دقائق. لاحظت مشيتي المرتبكة. لم أخبرها قصة حياتي، بل قلت بأن ركبتي متضررة فقط.

اكتشفت أن ظهرها، هي الأخرى، متضرر. عملها على رعاية المسنين، وحملها المتكرر لهم من وإلى السرير أعطب ظهرها ففقدت عملها. ثم شرعت تندب حظها العثر: المرض، المال، العمل، الهاتف المقطوع... أخبرتها وأخبرت نفسي بنبرة حازمة: دوام الحال من المحال. سكتت.

ووجدتني أساهم في توضيب البيت، وأعتذر عن الأطباق القذرة المكوَّمة في المطبخ، وأطلق وعدًا بالاستعانة بها من أجل مسائل كي الثياب من حين إلى آخر.

لكنها بطيئة.. بطيئة جدًّا.

وأنا أيضًا صرت بطيئة. ذهبت بالأمس إلى مركز التصوير الشعاعي سيرًا

على الأقدام، شردت بينما أراقب طريقة سيري الحديثة. ما المشكلة؟ سيري بطيء؟ فليكن، سأعتاد الأمر.

قالت طبيبة المركز: «العظم سليم». جيد. إذن ما الذي يُربك الركبة بعد عشرين دقيقة فقط من السير؟

سقطتُ في المساء نهبًا للهواجس: «لن أتمكن من القيام بذلك وسأدخل في مماحكات مع شركة التأمين، ولن يعيدوا المال وإلخ إلخ إلخ».

أكذب إن قلت إنني لن أحزن لذلك، بل سأحزن كثيرًا لأنني كدحت في جمعه، ولم أرثه، ولم أجده فجأة في حسابي نتيجة لعبة حظ.

«نون» مقتنع تمام الاقتناع أنه يمكنني القيام بهذه الرحلة وأني وضعت هذه العوائق في رأسي، لأنني تجرأت. وأنا لم أجرؤ على فعل أي شيء منذ سنوات.

قال: «إن لم تذهبي سيكبر الأمر في رأسك ويتضخم باعتباره فشلًا ذريعًا. وستغرقين في دوامة القهر والبكاء على الذات. اذهبي وتصرفي وفق ما تمليه عليك الظروف هناك».

عندما علم صديقي «الياباني» أحمد بقضية ركبتي الوطنية، صار يتابع التطورات بهدوء، وأرسل إليَّ صباح أمس صورة وقصة. تأثرت بها كثيرًا غير أن ذلك لم يغير الإزعاج الذي يعشش في ركبتي.

وأما الصورة فلمُسنتين يابانيتين تجلسان في قطار وتبدوان مستعدتين للقيام برحلة سير في الجبال. يبدو ذلك واضحًا من ملابسهما ومعدَّاتهما.

كتب تحت الصورة: التقطت هذه الصورة خصيصًا لك، انظري إليهما، إنهما مُسنتان وأنت في سن ابنتيهما.

أما القصة.. فأنهيتها، ثم مسحت دموعي وانصرفت إلى شؤوني.

إن كنت لا تعرفها فها هي:

«يتم تقييد الفيل في حديقة الحيوان بواسطة حبل صغير يلف حول قدمه الأمامية، فليس هناك سلاسل ضخمة ولا أقفاص، ويستطيع الفيل التحرر من قيده وقت أن يشاء من دون جهد يُذكر، لكنه لا يقدم على ذلك لسبب ما!»

شاهدت مدرب الفيل بالقرب منه وسألته: لمَ تقف هذه الحيوانات الضخمة مكانها ولا تقوم بأي محاولة للهرب؟

أجاب المدرب: كنا نستخدم معها نفس حجم القيد الحالي وهي حديثة الولادة لنربطها به.

وكانت القيود ـ في مثل عمرها ـ كافية لتقييدها.. فتكبر الأفيال معتقدة أنها لا تزال عاجزة عن التحرر من قيودها ولا تحاول التحرر منه أبدًا.

كثيرون منا يمضون في الحياة كالأفيال معتقدين أنهم لا يستطيعون إنجاز أو تغيير شيء وذلك لأننا، ببساطة، مقتنعون بعجزنا، لقد حاولنا فيما مضى ولم نفلح.

حاول أن تصنع شيئًا.. غيِّر حياتك بشكل إيجابي وتحرر من قيود الماضي!

يا وجعي

«تعطلت لغة الكلام» على الرغم من أننا نعيش تحت سقف واحد. خرجت صباحًا، ثم عدت مساءً لأجد رسالة منه في بريدي الإلكتروني. لا أعرف لماذا أنشرها، ربما أجد الجواب في يوم ما:

أيها الكائن الجميل والذكي، يا حبي يا وجعي.

نأخذ بقدر ما نعطي والذي يقول لكِ العكس، كذاب ابن كذاب، أمه كذابة، والده كذاب، أخته كذابة. أنت أعطيت وأخذت.

أعطيتِ كثيرًا، فكِّري ما هو الكثير..

وأخذتِ، فكِّري أيضًا..

تعرفين لماذا خسر هتلر الحرب؟ هل كان ضعيفًا؟ كان في عز قوَّته..

هل كان جبانًا؟ كان في قمة الشجاعة.

خسرها لأنه فتح أكثر من جبهة في الوقت نفسه، وأنت تقاتلين اليوم على جبهات متعددة. نخسر دائمًا حين نشتت قوانا على جبهات، أحيانًا (وأحيانًا كثيرة) لا نريدها.

أنت اليوم في مرحلة سخيفة؛ لا سند حقيقي لك، مات أبوك، أمك؟ تعرفين مصيبتها لذا تجنبيها. «خيّك» الوحيد؟ كلاكما

في غيبوبة. أنا؟ غارق حتى نخاعي الشوكي في البحث عن طريقة للهروب من هذه اللعنة التي اسمها بيروت. لن أدعوك للهرب معي. قدرك هنا مثلما قدري وراحتي في مكان آخر، في المكان الذي أشعرني أنني إنسان، في تلك المدينة التي لا أرى فيها إلا الجمال، مقارنة بكل البشاعة التي تطل عليَّ من بيروت. كنت قادرًا ذات يوم على اللحاق بك إلى القمر، ذلك اليوم ما عاد نفسه!

اليوم انقطعت علاقتك بتلك التي كُنتِها وقتها.

أحبكِ أكيد. أخاف عليك أكثر من خوفي على الحياة. أثق بكِ؟ لديَّ شكوك، فاليوم لا أعرفُك. أبحث عن صورة رسمتها لكِ فلا أجدها.

تلزمني حياة جديدة لأجد ما فقدته فيكِ، وجهك لم يعد ذلك الوجه الذي اعتدت تقبيله، تلك الابتسامة الماكرة التي كانت تعيدني كل مرة إليك حين أتوه، صارت لؤمًا أو شيئًا يشبهه.

يا طفلة تريد كل شيء ولا تعرف ما تريد، يا طفلة ترى أنها شجاعة واثقة وتتردد حين تتطلب أمورها الشجاعة والإقدام.

يا «عجقة» من الأوجاع لا تريد حلًّا..

يا حبي ويا وجعي الكبير أنا بحبك.

نون

الفهرس

«أمتع الكتابات هي تلك التي تكتبها باسم مستعار
ولكل منا أسبابه.. هنا فقط تكمن الحرية» – ريتا

«أنت تبوحين بالكثير» – نور

«هل هناك عطل في الحاسوب أم عطل في البهجة؟
وهل تلك يوميات للحاسوب
أم يوميات للأرواح الجريحة؟» – فلان الفلاني

أسرار صغيرة هي مدونات الإعلامية «ريتا خوري» التي كتبتها بأسماء مستعارة، حيث تأخذنا معها بأسلوب أدبي راقٍ لكواليس الحياة المعاصرة.
هذا ليس كتابًا تقليديًا عن حياة المشاهير، بل هو رحلة ممتعة مليئة بالتجارب الإنسانية الحقيقية، لامرأة تحررت من قيود الشهرة لتفتح قلبها وخزانة أسرارها، لتغزل من التفاصيل اليومية لحظات غير عادية تُقطِر الحياة وتلخصها.

ريتا خوري منتجة ومقدمة برامج تلفزيونية لبنانية، قدَّمت عديدًا من البرامج الثقافية والاجتماعية والفنية المهمة في عدد من القنوات التلفزيونية العربية، ومنها برنامج المسابقات الشهير «الحلقة الأضعف»، و«يوميات»، و«حكايا الناس»، و«نقطة الصفر». كما شاركت في تقديم برنامج «سوالفنا حلوة». وهذا هو كتابها الأول.

www.bqfp.com.qa
ISBN 978-99921-787-7-5
90100
9 789992 178775

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

تصميم: طارق الدبسي | صورة الغلاف: جتي